





الى العرب

بيان

للامة العربية

عن

حزب اللامركزية



بقلم

فرع الشجرة اللخمية القحطانيه الأمير

شكيب ارسلان اللبنانى

(قيمة النسخة ا...)

طبع بمطبعة « العدل » بدار السعاده

١٣٣٢ ه



الامير شكيب ارسلان : مبعوث حوران وصاحب هذا الأثر



بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على النبي العربى الكريم

وبعد فانه مازال التنافس من شأن النفوس البشرية ينافس الاخ اخاه وكلاهما ابن عمه والبطن الواحد من العشيرة البطن الآخر والقبيلة الواحدة القبيلة الثانية وهما من شعب واحد وارومة فردة وعلى مذهب جامع والى غاية غير مختلفة وقد امتازت الامة العربية وهى امة واحدة بين جميع الامم بالغلو فى العصبيات والتمسك بالكلالات فهى تجعل هذا الامر فوق كل امر وتجد من غضبها لانسابها وحميتها لاصولها مالا تجده فى امة اخرى من الامم الشرقية ولا الغربية وما ترى الغارات لاجله متصلة والثارات غير نائمة لحظة الى يومنا هذا فهذه سنة الله فى خلقه على تفاوت فى درجات التمكن غلب سلطانها على الامم البادية ولم تخلص من تأثيرها الامم الحاضرة بل الامم المتمدنة الراقية فترى فى اوربا اشد المناظرات قائماً بين اقسام الشعب الواحد الذى تجمعه جامعه واحدة ويظلله لواء فرد نظير الممالك الالمانية ونظير النمسا والمجر ونظير غيرها من الممالك التى تنطوى احشاؤها على نزاع كثير ولا يأخذ بحجزاتها عن اعلان الانفصال سوى الخوف من شر اعظم والاستهداف اسهم انفذ بل تجد الدول العظام التى بينها من الاحن القديمة المصدور والحزازات المتراكمة فى الصدور مالا يكاديسعه التاريخ قد سبقت الى

الاتحاد من جهة اخرى حفظا للتوازن الذى هو اقوى شرط للسلام ودفعاً لتسلط الراجح على المرجوح وهى فى الواقع ماشية فى ذلك على حد قول القائل من شعراء الحماسة .

وذوى ضباب مضمرين عداوةً	قرحى القلوب معاودى الافناد
ناسيتهم بغضاءهم وتركتهم	وهم اذا ذكر الصديق اعادى
كيما اعدهم لأبعد منهم	ولقد يجاء الى ذوى الاحقاد

ولقد وجدت السلطنة العثمانية اكثر الممالك اجناساً واحصاها طوائف واغربها عناصر وفيها العرب والترك والكرد واللاز والارناووط والروم والارمن واليهود وغيرها وكل من هذه الشعوب قائم بنفسه مستقل بلغته حافظ لقديمه متمسك باحاديثه وتواريخه لم تكن الدولة العلية ايدها الله لتزعجه فى شئ من جهة قوميته ولم يعهد ان دولةً بلغت مدى هذه الدولة من جهة اعطا الحرية للاديان والالسنة حتى جعل كثير من علماء الاجتماع ذلك هو السبب فى كثرة مشكلاتها وتوالى فتوقها وما انهك قواها من مصائبها .

وبديهى ان اختلاف الاديان واللغات وافتراق الاصول والاجناس هما مما يورث المناظرات والمنافسات ويقف حائلاً دون الالتحام التام والالتئام الذى يكمل به النظام ومما يوجد الوحشة بين القلوب ويمنع أنسة الاجناس بعضها ببعض فلذلك طرأ على عصبية الدولة العثمانية من الواهن وداخلها من الاسترسال ما تظهر لنا آثاره يوماً بعد يوم وما لوكان فى مملكة اخرى لانحل نظامها وانتثر سلكها ودخلت فى خبر كان منذ ازمان ولكن الذى نسأ فى اجل الدولة العثمانية معماهى مصابة به من امراض الداخل ومحاطة به من دسائس الخارج هوكون مادتها الكبرى هي الاسلام وان المسلمين مهما افترقت اجناسهم وتباينت

لهجاتهم يجمعهم الدين جمعاً لايجمع امة غيرهم ويزيل من الفروق العميقة والأبعاد السحيقة بينهم مالا يزيله شئ وان المسلم العربى يرى المسلم التركى والمسلم الارناووطى اخاًله نظير اخيه العربى بدون فرق عملا بمحكم الكتاب الذى نزل فيه (انما المؤمنون اخوة) واقتداءً بسنة الشارع الاعظم صلى الله عليه وسلم القائل : ترى المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم كالجسم الواحد اذا تألم منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى .

وكذلك غلبت العصبية الدينية فى الاسلام على كل عصبية سواها وطمستها فلا تكاد تجد لغيرها أثراً بين المسلمين لأن هذه الشريعة السماوية وان جاء بها اعرب العرب ونزل كتابها بافصح لغات العرب هى شريعة عامة مبنية على المساواة التامة وبعيدة عن الأثرة الجنسية وصاحبها يقول : ليس منا من دعا الى عصبية . ويقول ايضا : انما بعثت الى الاحمر والاسود . ولو كان فى الاسلام ادنى اثر للأثرة الجنسية ماانتشرت شريعته فى الارض ولا اتبعها الاحمر والاسود ولا ضربت من المشرق الى المغرب حتى ولا اجتمع عليها العرب انفسهم الذين هم قبيلان كبيران متناظران متنافسان قحطان وعدنان فان الأثرة الجنسية كان يمكن ان تلقى العداوة والنفاسة لقحطان على عدنان بمكان هذه من قرابة النبى صلى الله عليه وسلم وكونه من سرة بطحاء قريش والعرب اشد الناس حمية للعصبيات فلا يعقل ان تطيعه العرب باجمعها لو لم يكن نبياً مرسلاً الى الكافة ناشراً دعوة المساواة صادعاً بآية (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) ولو لم يكن نزل عليه من ربه (ماكان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله)

فكون الشريعة المحمدية السمحاء شريعة عامة للبشر مبنية على اتم المساواة سائرة فى امور الدنيا على قاعدة العدل الذى يوفر لكل احد

حقه بدون نظر الى اصله وفصله وفى امور الآخرة على قاعدة تقوى
الله تعالى الذى يحاسبهم باعمالهم يوم لاانساب بينهم ولا يتساءلون هو
الخصلة الكبرى التى نشرت هذه الشريعة فى مشارق الارض ومغاربها
حتى دان بها الى يومنا هذا اكثر من ثلاثمائة مليون نسمة من بنى آدم
لايعلم الواحد منهم نفسه مسلماً حتى يرى نفسه متحققاً باخوة محكمة
متينة العرى تربطه بهؤلاء الثلاثمائة مليون من اصناف السلائل البيضاء
والسوداء والصفراء يشعر شعورهم فى السراء والضراء ويشاطرهم
وجدانهم فى الشدة والرخاء وهذا المبدأ المقدس هو هو الذى فى صدر
الاسلام جمع هذه الامة العربية مع اغراقها فى تقديس عصبياتها واطاعتها
دواعى احقادها على كلمة واحدة خرجوا بها من هاتيك الجزيرة القاحلة
ففتحوا الاقطار ودوخوا الامصار وملكوا ماوراء البحار ووطئوا
مناكب الملوك الكبار وثلوا عروش كسرى وخاقان وقيصر وورثوا
اراضى العجم والروم والزنج والبربر ولو لم تتلاش العصبية الجنسية
بالعصبية الدينية لبقى العرب محصورين فى جزيرتهم لاتعلم بهم الامم ولا
يذكرهم التاريخ الا لماماً ولكانوا الى يومنا طرائق بدداً خضعاً رقابهم
لعدو يأتيهم من طرف العراق باسم كسرى ومن طرف الشام باسم قيصر
فقد ذكر المؤرخون ومن جملتهم ابن الاثير الجزرى ان العرب لما
قصدوا بلاد الفرس بعد الاسلام مازالت الفرس تقول لهم عند محاورتهم
ومراسلاتهم فى حروبهم كنتم اقل الامم واذلها واحقرها ثم انه لما
ملكت الحبشة اليمن وهزموا ذانواس ملكها قتلوا ثلث رجالها وارسلوا
ثلث سباياهم الى النجاشى ولما اختلف ارياط قائد جيش الحبشة مع ابرهة
الاشرم الحبشى وتبارزا وحمل عتودة غلام ابرهة على ارياط فقتله قال له ابرهة
احتكم فقال لاتدخل عروس على زوجها من اليمن حتى اصيبها قبله قال ابن الاثير

فبقى يفعل بهم هذا الفعل حيناً ثم عدا عليه انسان من اليمن فقتله واخيراً
لما لم يقدر العرب على دفع الحبشة عن اليمن وفدوا على كسرى انوشروان
يستنصرونه على الاحباش ويطمعونه فى ملك اليمن وكثرة مالها فاعتذر
لهم بصعوبة المسالك ولما وفد النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود
الروم والهند ودارت المفاخرة بين الامم قال كسرى يانعمان لقد فكرت
فى امر العرب وغيرهم من الامم فوجدت الروم لها حظ فى اجتماع
ألفتها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها وان لها ديناً يبين حلالها وحرامها
ويرد سفيهها ورأيت الهند نحواً من ذلك فى حكمتها وطبها مع كثرة
انهار بلادها وثمارها وعجيب صناعاتها وكذلك الصين فى اجتماعها
وكثرة صناعات ايديها وفروسيتها وهمتها فى آلة الحرب وصناعة الحديد
وان لها ملكاً يجمعها والترك والخزر على مابهم من سوء الحال فى المعاش
وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن
والملابس لهم ملوك تضم قواصيهم وتدبر امرهم ولم ار للعرب شيئاً
(الى ان يقول) ماخلا هذه التنوخية التى أسس جدى اجتماعها ومنعها
من عدوها وان لها مع ذلك آثاراً ولبوساً وقرى وحصوناً تشبه
بعض امور الناس يعنى اليمن الى آخر ماقال فاجابه النعمان عن كل ذلك
وقال له عن مسئلة تحارب العرب واكل بعضها بعضاً انه يكون فى
المملكة العظيمة اهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون
امورهم وينقادون لهم بازمتهم واما العرب فان ذلك كثر فيهم حتى لقد
حاولوا ان يكونوا ملوكاً اجمعين مع انفتهم من اداء الخراج واما اليمن
التى وصفها الملك فلما اتى الى جد الملك من اتاه من اليمن عند غلبة
الحبشة له على ملك متسق وامر مجتمع فاتاه مسلوباً طريداً مستصرخاً
ولولا ماوتر به من يليه من العرب لمال الى مجال ولوجد من يجيد الطعان

ويغضب للاحرار من غلبة العبيد الاشرار انتهى . ومن مثل هذا يظهر
ما كان من تفرق امر العرب قبل الاسلام وتغلب الامم عليهم ولم يكن
مقصدنا من نقل هذه الامور تصغير شأن العرب الذين نفتخر بكوننا
منهم ونعتقد انهم خير امة أخرجت للناس نسباً وحسباً وصفاء قريحة
ووفاء سجية وعلو همة ولكن قصدنا ان نظهر درجة ما ابرز الاسلام
من معادنهم النجيبة التى كانت محجوبة بظلمات الجاهلية وانه نقلهم من
الحضيض الاوهد الى السنام الامجد وانه لولا الاسلام لبقوا ممزقين كل
ممزق وحقاً لولا اتساع فلواتهم الضاربة فى شمالى جزيرتهم بالمفاوز
والسباسب والمتصلة الى باطن بلادهم بالمعاطش والمجادب لكانوا قد
اصبحوا تحت استيلاء الامم المجاورة لهم وكانوا ضربوا عليهم الذل
والمسكنة كما ملك الحبشة السود اليمن وهو اعمر اقليم لهم واقدمه ملكاً
واحصن بلادهم موقعاً واصعبه مرتقى فبعد ان كان مثل الاحابش من
سود افريقية يغزون العرب فى عقر دارهم ويقومون فى وسط اوطانهم
من صغارهم ويهددون كعبتهم بفيلهم ذلك بعدم انتظام كلمتهم وبتفرق
اهوائهم جاء الاسلام فجعلهم بوحدته الدينية وبنهيه عن العصبية امة
واحدة وكتلة فردة اندمج فيها المضرى باليمانى وامتزج القحطانى
بالعدنانى فكانت اعراف السعد ذالة لهم ومناكب المجد موطأة لاقدا
مهم وابواب الفتوح مشرعة امامهم وصارت الامم الحاكمة عليهم خولاً
لهم واتباعاً واصبح الحبش لهم عبيداً ولما ضعفت فيهم الملكة الدينية
وبعد عهدهم بعصر النبوة والخلافة الراشدين عادت تحيى فيهم عصبيات
الجاهلية وتجدد مناظرات القيسية مع اليمانية حتى عاد بدرهم عرجوناً
ورجع كوكبهم نوراً ضئيلاً ومع هذا فان الاسلام كان اثر تأثيره فى
العالمين ودخلت فيه الامم افواجاً ووجدوا فى شريعته من آثار عدم

الايثار مازادهم فيه رغبة وعليه اقبالاً فلما ضعف العرب بتشظى عصاهم عن الاستقلال بحمايته قام مقامهم الترك والديلم والجركس والعجم وغيرهم من الامم فلم يكن لعربى ان يعترض على خضوع المسلمين حتى العرب منهم لسلطان من غيرهم مادام قائماً بامر الاسلام حافظاً لحدود شريعة سيد الانام وكانت فى الاسلام منذ القرون الاولى دول فى الشرق كالدولة البويهية والدولة السامانية والدولة الغزنوية والدولة السلجوقية والدولة الايوبية قد فتحوا الفتوحات ونشروا كلمة التوحيد فى قاصية الارض ووقف كثير منهم مواقف الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين وكذلك فى الغرب قامت دولة المرابطين العريقة فى البربرية فكان لهـا من الاثر فى الذب عن بيضة الملة والنشر لكلمة الاسلام فى المغرب والاندلس ما لايحتاج الى بيان فى مثل هذه العجالة ولو لم تكن عصبية العرب الدينية هى الغالبة ولو كان قد قام العرب ينافسون ابن سلجوق لكونه تركياً وابن ايوب لكونه كردياً وابن تاشفين لكونه بربرياً واوصى علماؤهم بخلع طاعة هؤلاء الملوك لمخالفتهم لهم فى الجنس اوسمحوا بنقض بيعتهم اوقيل لاهالى مصر والشام مالكم تطيعون هذا الكردى وانتم عرب وهو ليس منكم ولا ممن يفتخر بقحطان بل ممن يعتز بالاسلام لكان وقع الخلف وتفرقت الكلمة ولكان الافرنج اخذوا جميع بلاد الاسلام وغير الافرنج اخذ الباقى وصيروا المسلمين خولاً وطمسوا معالم الاسلام من كل بقاع الارض وصارت هذه الامة اثراً بعد عين وربما قال بعض اولئك الذين نعلم ماهى مبادئهم وما ذا هناك من المصيبة بزوال الاسلام وسيبقى لنا قحطان وما اشبه ذلك من الاقاويل فعندها نقول لهؤلاء نحن انما نتكلم مع من يريد ان يبقى مسلماً فاما الذين يقولون علناً اننا نحن نفضل عربيتنا

على الاسلام وانما نحن عرب فى الدرجة الاولى ومسلمون فى الدرجة الثانية كما اخذ يشيع ويذيع الآن ولو كان ذلك القول خلافاً للشرع فلا كلام لنا معهم حينئذ وان اردنا ان نجود عليهم بجواب قلنا لهم انه لولا اولئك الملوك الذين اسلموا من الترك وسائر الاعاجم لم يكن فقط سقط الاسلام بل لسقط قحطان الذى تفتخرون به نفسه واصبح من ينتمى اليه اذل من النقد نقول لهم ذلك ولو ثقل عليهم الامر لأن الحقيقة مقدمة على كل شئ والحق من ربك فلاتكونن من الممترين .

لوقال عرب الاندلس اصح العرب الطارئين على الآفاق نسباً للمعتمد بن عباد صاحب اشبيلة مالك تستصرخ ذلك البربرى الذى لايفقه من العربية حديثاً وهواذا ملك الاندلس انتزع من يدك ملكك واطاعهم ابن عباد فى هذا القول لما كان ظهر المسلمون فى وقعة الزلاقة ذلك الظهور الهائل ولماتاخراخراج المسلمين من الاندلس مئات من السنين ولكن ابن عباد العربى القحطانى اللخمى اليمانى آثر دينه على دنياه وفضل ان يأخذ بلاده البربر وهم مسلمون على ان يبقى هوتحت سيطرة الافرنج ولو ملكاً وقال : فان كنت مأكولاً فكن انت آكلى . وروى عنه تلك الجملة السائرة عندما نبهوه الى مايخشى عليه من ذهاب ملكه لواستصرخ افريقية وهى : رعى الجمال خير من رعى الخنازير

بلغت الوحدة لدينية بالمسلمين ان التتار الذين خربوا جميع بلاد الاسلام فى المشرق عندما دخلت ملوكهم فى الاسلام اطاعوهم حالاً اطاعتهم للائمة من قريش بناءً على كون الاسلام يجب ماقبله كما لايخفى وانه كان يأتى المملوك الذى اصله جركسى بل رومى او ارمنى فينشأ فى الاسلام ويقربه مولاه ويقدمه حتى يصير وزيراً ثم اذا مات مولاه بدون عقب بويع مكانه سلطاناً فكان من هؤلاء المماليك دول عظيمة

ونبغ منهم اعاظم الرجال ولاسيما فى مصر كالظاهر بيبرس وابن قلاوون وغيرهما ممن لهم الآثار الباهرة فى احياء المدنية والمواقف الجليلة فى دفع الاعداء عن بلاد الاسلام وحسبك انهم رضوا بامارة كافور الاخشيدى وهو خصى اسود من ابناء حام ولم تثقل عليهم امارته مادام قائماً بامر الدين ذلك عملاً بمبدأ المساواة المطلقة الذى وضعه القرآن الكريم واقتضاء لسياسية نبينا صلى الله عليه وسلم : اطيعوا من ولى عليكم ولو عبداً حبشياً رأسه زبيبة وبالجملة فلم يدر فى خلد احد ان يخلع بيعة هؤلاء الملوك الذين كانوا مماليك والذين اصل كثير منهم اما من الروم او من الارمن ماداموا قد نشأوا فى حجر الايمان وشبوا على خدمة هذه الدعوة فكانت العرب تنقاد لهم انقيادها لساداتها وامرائها وتحوط بهم شملها وتصل حبلها لا لجهلها بانسابهم واصولهم بل لأن الاسلام محا كل عصبية جنسية من اهله وقام هو مقامها

اذا كان هذا شأن الملوك من ابناء المماليك الذين لا يعرف لهم اصل ولا منبت اسلة فما قولك بأسرة آل عثمان اقدم اسرة مالكة فى هذا العصر وهى التى حاطت الاسلام منذ ستمائة سنة وقامت بدفع دول اوربا عن المشرق باسره منفردةً بنفسها قد اتفق عليها دول النصرانيه تسعاً واربعين مرةً مثنى وثلاث ورباع وخماس وكان العجم فى ايام الدولة الصفوية ومن بعدهم يهاجونها من الوراء عند كل حرب صليبية تصليها عليها اور وهى تقوم فى وقت واحد بدفع اعداء الاسلام من الامام ودفع العجم من الوراء وقمع الفتن الداخليه من الوسط وتوغل فى الفتوحات حتى تبلغ عاصمة النمسا وحتى ينزل جنودها فى سواحل ايطاليا وفى نيس من فرنسا فلا جرم ان دولةً هذه آثارها فى حفظ البيضة المحمدية لا تكون الا محمودةً بل مقدسة عند العرب الذين درج

هذا الدين من وكرهم وترعرع فى حجرهم فاحب الملوك الى العرب من نصر هذه الدولة التى اصلها من العرب ومرجع قوتها الى العرب والى من دانوا بدين العرب ومن قرأ تاريخ آل عثمان علم ان لهم من تعظيم شعائر الدين ومن التمسك بحبال الدعوة المحمدية مالم يفقهم فيه احد من ملوك العرب انفسهم بل مافاتوهم فيه الجميع حاشا الخلفاء الراشدين . ومن شاء ان يعلم درجة خدمتهم للحرمين الشريفين وبرهم باهل الحجاز فليقرأ تواريخ علماء العرب كتاريخ الفتوحات الاسلامية لخاتمة المحققين لسان الصدق السيد احمد دحلان المكى الذى لايجسر احد ان يتهمه بالملق ولا بالمبالغة ولهذا حامت حول بنى عثمان قلوب جميع المسلمين عرباً وعجماً والتفت عليهم وشائج القلوب والافئدة وتوسموا فى دولتهم مجد الاسلام وسعادته منذ كانوا بعد فى الروملى والاناضول وكان الغورى سلطان مصر يقول انا لايهمنى الافرنج لأنهم اذا زحفوا الى بلادى كان الاسلام كله معى ولكن اخوف ما اخاف هو من ابن عثمان الذى لوقصد بلادى مال اليه المسلمون ولم اقدر ان استعديهم عليه وقدكان الغورى عند خوفه من ابن عثمان لأنه لما سار السلطان سليم لفتح البلاد العربية التى اهلها اليه بالمقاليد وتلقوه براً وترحيباً ونزل له الخليفة العباسى الباقى كان بمصر عن الخلافة الكبرى واتفقت الامة الاسلامية على مبايعته بالامر الاعلى الذى لايقوم الا بمثل عصبية ابن عثمان فى وقته ولاتزال هذه العصبية الى يومنا هى العصبية الوحيدة التى يمكن اسناد هذ الامر العظيم اليها

طالما نفخ المفرقون فى نفير العصبية الجنسية وحاولوا اثارة العرب على الدولة بحجة انها دولة تركية واتخذوا من حوادث الزمان اسباباً ومن غلطة بعض اخواننا الاتراك اوتاداً وارادوا تغليب العصبية الجنسية

على العصبية الدينية وان يوقدوا هذه الفتنة بين ذينك الشعبين الكبيرين الذين هما قوام الدولة الاسلامية فصدهم عن ذلك لاحب العرب لسواد عيون الترك ولاذلهم لسلطانهم وهم اقل الامم قراراً على الضيم واسرعهم الى السيف ولكن حبهم ببقاء الخلافة الاسلامية وخوفهم من تسلط الاجانب عليهم يمحون استقلالهم ويعارضونهم في اعز شئ لديهم وهو دينهم ويسومونهم سؤ العذاب ويبتزونهم اراضيهم ومرافق بلادهم بالطرق المتنوعة والحيل المتعددة فآزروا الترك الذين لاتجمعهم معهم الارابطة الدين على الاور بين الدين لا تجمعهم واياهم رابطة ما والذين يخشى منهم على الدين والدنيا معاً وما اكثر الشواهد على ذلك بين ايدينا

وعلى فرض انه كان هناك مهانئ من العيش البهيمى تحت سلطة الاجانب وهو مالايزال يمنى به سماسرة الدعوة الاجنبية اهالى البلاد العربية منذ قديم فان الاستقلال مع الفقر خير من الاستذلال مع الثروة وان الاستقلال هو الحياة الحقيقية وهو مصدر العز والقوة ومنجم المال والثروة واصل الصدق والفضيلة وان الامر لكما قال السيد جمال الدين الافغانى غفر الله له وهو ان شرف النفس يقودها لاختيار الموت الفاضل على الحياة تحت سلطة اجنبية وان اقترنت برغد العيش وطيب المطعم والمشرب

ولنجتزئ من الشواهد كلها بمثل طرابلس الغرب التى يعلم كل احد انها كانت اشد ولايات الدولة فقراً واعظمها اهمالاً وطالما استغاث اهلها بالباب العالى طالبين تحكيم اسباب دفاعهم وتحصين ثغور بلادهم وامدادهم بالسلاح والعدة وتدريب شبانهم على الحركات الحربية وطالما كتب عمال الدولة انفسهم الى الاستانة بوجوب تأسيس معامل للخرطوش فى نفس البلاد خوف ان تسطو عليها دولة بحرية فيحول دونها و دون

الدولة المتبوعة لضعف الاسطول العثماني اليوم فذهب كل هذا الصريخ صرخة فى واد ونفخة في رماد فكان اهل طرابلس الغرب احق رعية الدولة بالنفور منها والحقد عليها وكانت احوال بعض عمال الحكومة العثمانية مما يزيد لها البغضاء ويوجب الجفاء وراى الطليان هذه الحالة هناك فتوهموا انهم يستثمرونها لفائدتهم وانهم يوقدون نارها لهداهم وانفقوا الاموال واشتروا ذمم الرجال وسعى بعض سماسرتهم من ابناء ذلك الوطن باخذ تواقيع بعض الروساء والمشايخ بقبول سيادة ايطاليا كما يسعى الآن ويا للاسف ويا للخجل بعض سماسرة سورية لاستجلاب قلوب المسلمين الى جهة فرنسا ويسعى آخرون باستمالتهم الى انكلتره وكل فئة لها جواسيس ورواد وسماسرة على البلاد

فماذا ظهر بعد ذلك لايطاليا وغير ايطاليا ؟ ظهر انه لما اجلبت ايطاليا على طرابلس ووصل اهلها الى حيز العمل ونظروا فرأوا علم الهلال قدغاب عن ابصارهم وحل العلم الايطالى محله بكى منهم حتى النساء ونهضوا بدون زاد ولاسلاح وقالوا مهما بلغ من بغضنا للاتراك فانهم اخواننا فى الاسلام ومهما اهملتنا الدولة بغرور بعض رجالها فلن يحملنا ذلك على ترك وطننا للاجنبي انتقاماً من الدولة ومازالوا يكافحون الطليان فى اقاصى طرابلس وبرقه منذ ٣٦ شهراً ولم يسكنوا فى اقليم طرابلس نوعاً الا من نفاد العدة والذخيرة كما انهم فى برقة لايزالون الى ساعتنا هذه تجاهدون فى عدوهم الذى يربى عدد عسكره على ثمانين الفاً وهم فى اشد حال من الجوع والحاجة الى كل شئ وذلك كله بفضل السيد السنوسى الكبير الذى أبى ان يسلم وطنه الى العدو المعتدى وفيه وفى العصابة السنوسية الفاضلة رمق من الحياة

كم حاول الطليان فى أثناء هاته السنوات ان يستميلوا عرب طرابلس

وبرقة وان يخدعوهم بالاماني والمواعيد وان يستسلوا حقودهم بالعطايا والالطاف فلم يقدروا ان يملكوا قلوبهم ولا ان ينزعوا مافيها من غل عليهم حتى ولا ان يسلوهم محبة الدولة العثمانية التى سلطانها يقول لااله الاالله محمد رسول الله ويتولى القبلة الشريفة كما يقول ويتولى عرب طرابلس وسائر العرب

جميع السادة السنوسية يروون عن مؤسس طريقتهم العالية سيدى محمد بن على السنوسى جد سيدى احمد الشريف الاستاذ الحالى انه رأى النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال له ماقولك يارسول الله فى بنى عثمان فرفع رسول الله بيده الشريفة بساطاً ظهر من تحته باب جهنم باهوالها فقال له هذا مقعد من يريد بالدولة العثمانية سوأ والذى نفس محمد بيده مارأيت لهذه الامة ارحم من بنى عثمان

سيقول اولئك الجماعة من المفرقين المكذبين المستهزئين بالدين وآياته كما تدل عليه كتاباتهم وتم حركاتهم واقوالهم أفنبنى احكامنا على المنامات ونحن الآن فى عصر الحقائق فنجاوبهم على هذا بأنهم ان لم يكونوا مؤمنين بصحة الرؤيا مثل رؤيا ذلك الولى الصالح لجده المصطفى صلى الله عليه وسلم فانه لابد لهم من التسليم بان تناقل هذا القول بين السنوسيين وعملهم به الظاهر المحسوس الى اليوم والى ماشاء الله دليل واضح على كون افتراق غرب افريقية عن الدولة العثمانية بالجنسية لم يكن له تأثير فى شدة ارتباطهم بها وانهم يرون هم بهذه العين مباءة من يكره هذه الدولة ويعدون مقعده جهنم وساءت مصيرا

فالشيخ السنوسى الذى يسمح له هؤلاء الدعاة الادعياء الى العربية بان يكون عربيا والذى نظنهم يحكمون لقومه بالاهمية مع استقلالهم وحدهم بدفع دولة قاعدة فى صف الدول السبع العظام هو الذى يدعو

جميع عرب افريقية الى تفدية الدولة العثمانية بانفسهم واموالهم وايطاليا قدعرفت ذلك وعلمت انها عندما صدقت بان العرب يكرهون الترك لم تكن الافى غرور وفرنسا نفسها تقربان جميع تبعتها من المسلمين يسؤهم مايسؤالدولة العثمانية ويسرهم مايسرها وانه لاشئ يفك عروة حبها من قلوبهم مع ان عرب شمالي افريقية اليوم ومن جاورهم من البربر المستعربين لايقلون عن ٢٠ مليوناً وهم جميعاً بهذه الدرجة من الارتباط بالدولة العثمانية فهل يسمح لنا السادة المصلحون دعاة اللامركزية وورثة عوم حوراني بان نعد هذه العشرين مليوناً عرباً ام يسقطونهم من عداد العرب كما اسقط بنو العباس نسب زياد بن ابيه من دفتر قريش ولا يبقى معدوداً فى العرب الا بعض من اصلهم ترك اوجركس وروم او ارمن وهم لوكانو عرباً مع هذا لا همة لهم الا فى صدع البيضة الاسلامية التى اذا انصدعت لم يبق هناك عرب ولا عجم واخنى على الجميع الذى اخنى على لبد

مازالت اوربا منذ قرون تقابل الدولة العثمانية من امامها ومن عن يمينها وعن شمالها وتناجزها الحروب صليبية وسياسية وتجارية وتهاجمها منفردةً ومجتمعةً فكان للدولة فى البداية الكرة على اوربا والريح الهابة فى البحر المتوسط وكان الاعداء يكافحونها كفاح الضعفاء الذين عدا تماسك بعضهم ببعض للمقاومة كانوا يلجأون الى اثارة الفتن فى داخل بلاد عد وهم ليشغلوه عنهم فكانوا يدسون الدسائس تارةً فى البلقان وطوراً فى سورية واحياناً فى بلاد العرب ويمدون ايدى المصافحه الى العجم وكانت الحروب داخلاً وخارجاً تتوالى على هذه الدولة الفريدة الغريبة فى اوربا الى ان افقرت دمها وانهكت مع تتابع الا عصر على هذه الحال قوتها واستغرقت اموالها فى الاعدادات الحربية

وحالت دون ترقيها فى العلوم والصناعات واخذ السيف حصة القلم فغلب على الاهالى الجهل وخبا نور العلم فضعفت التربية العامة وانقرض الاعلام الذين يحثون على الفضائل والمكارم فنزلت الهمم وفترت العزائم وعم فساد الاخلاق وصار الضعف يجاب بعضه بعضاً وكلما آنست اوربا فينا ضعفاً من جانب حملت علينا حملة شعواء خلال الضعف والتخذ قاعدة سارت عليها ولا سيما امة السلاف وهى عدم امهالنا ان نلم شعثنا ونرأب صدعنا ابداً لئلا نرتاش ونقوى وتصعب ازالتنا من الوجود فيقال ان بطرس الاكبر عاهل الروسية اوصى بحربنا كل مدة ۲۰ سنة وقد قام السلاف بهذه الوصية تماماً فضلاً عما قام به غيرهم من اصناف الاوربيين فكان ضعفنا بهذه الوسيلة متصلاً وسكوننا محالاً وكان توفرنا على نشر المعارف فى بلادنا كما هى فى بلاد غيرنا متعذراً وصارت بلادنا ميداناً للفتن والهزاهز وصار الاوربيون يسمون هذه الحالة بالمسئلة الشرقية والحقيقة انها هى مسئلة محمد عليه الصلاة والسلام فاتباعه اخذوا الشام ومصر وافريقية والاناضول والقسطنطنية العظمى والباقان من اتباع عيسى عليه الصلاة والسلام فهؤلاء يريدون ان يسترجعوها ويتمكنوا فيها لا كثر ولا اقل ويلقون على هذه المقاصد بعد ان اصطبغوها ظاهراً بصبغة التمدين استاراً من السياسة تخفى على الغبى اسرار مساعيهم ويتجانفون عن استعمال الالفاظ المثيرة للعواطف المحركة للحفائظ ففى الاعصر الغابرة عندما كانوا اصدق لهجة واصرح ضميراً كانوا يسمون هذه الحروب المتواصلة مع الدولة العلية حروباً صليبية وفى هذا العصر صاروا يسمونها بالمسئلة الشرقية لكن الصغار منهم مثل ملوك البلغار واليونان والصرب والجبل قد صرحوا فى الحرب الاخيرة بما كان يصرح به ملوك اوربا سابقاً وابوا هذا الرياء كله وسموا الاشياء باسمائها وفعلوا

الافعال التى حققت الاسماء واوربا تصفق لهم من ورائهم وناهيك ان ملك رومانيا الذى مملكته صديقة موالية للدولة العثمانية ومشهورة باعتدالها مع المسلمين قد صرح اخيراً لبعض مراسلى الصحف ان سكوت رومانيا فى اول الحرب البلقانية مع الاتراك لم يكن من مصلحتها ولكنها اضطرت اليه خدمة للنصرانية لأن الدول الاربع اللاتى كن يحاربن الدولة العثمانية كان مقصدهن انقاذ النصارى من سلطة المسلمين فلم يكن يليق بدولة نصرانية كرومانيا ان تشاغلهم عن اتمام هذا الامر ولو خالف ذلك مصلحتها الخاصة فاذا كان هذا اعلان الملك الصاحب فماذا نقول عن المحارب

ولقد تمكنت اوربا بعد مصارعة ستة قرون من استرجاع جزء كبير مما كان اخذه المسلمون من ممالكها وتقدم الصليب وتأخر الهلال وهكذا حال الدنيا يوم عليك ويوم لك والله تعالى يقول وتلك الايام نداولها بين الناس

ولم يكن تأخر الدولة العلية اخيراً ونكوصها امام دول اوربا عن ضعف فى المنعه اوسقوط فى الهمة او فقر فى معادن النجابة والشجاعة بل جاء باجمعه من انفرادها وحدها مع شدة اختلاف سكانها وتخاذلهم عنها وتألبهم هم اى الاوربيين عليها لبداً واذا اختلفوا فيما بينهم تراضوا فيما بعد من املاكها وتقسطوا من حقوقها

وقد جاء فى المثل ضعيفان يغلبان قوياً فما قولك اذا كان ثمة عدة اقوياء وكل منهم يحارب بسلاح والساكت منهم رده للمتحرك رابض للوثبة عند الحاجة والجميع يمشون نحو غاية واحدة

فلوانتصرت الدولة عل البلقانيين فى هده الحرب لكان قصارى ماتمكنت منه حمل البلقانيين على جزء من نفقات الحرب فلما ادال الله

لهم علينا اسرعت اوربا باعلان تمكينهم من اجتناء ثمرات انتصارهم واباحتهم الولايات الست التي كانت لنا في الروملي مع ولايتين في جزر البحر الابيض وذلك خلافاً لاعلان كانت اعلنته في اول الحرب بأن ليس للمنتصران يضم الى ملكه اراضي جديدة اياً كان . ثم اعترفت اوربا ان اعلانها الاول وقع منها على ظن ان النصر سيكون للدولة العثمانية فاى حرب تكون اظلم واعق من هذه الحرب واى حياد حفظته الدول وهن لايلزمن الحياد الا اذا كنا نحن المغلوبين

وهذا ماذكره من جهة الحرب المادية التي هي عبارة عن طعن وضرب وفتك وهتك وتجريد جيوش وسوق اساطيل

وهناك حرب اخرى تثيرها علينا اوربا ليست باقل تأثيراً من الاولى الا وهي الحرب السياسية والعلمية والاقتصادية اى الحرب المعنوية .

فمن جهة الحرب العلمية فمدارسها و مكاتبها حتى مستشفياتها في الشرق كلها مواقد اثارة على الدولة ومنافخ نار يخرج منها التلاميذ كارهين كل شئ عثماني بل كل شئ اسلامي وماشذ عن ذلك فيكون من متانة تربية الاولاد وتأثير والديهم بهم في البيت لامن توقى اساتذه تلك المدارس الطعن لهم في دينهم ودولتهم بل هم يطعنون مايطعنون في اهل الاسلام ويشوهون مايشوهون من محاسنه ويغمطون مايغمطون من ايادية البيض على الانسانية ويقلبون الحقائق التاريخية والعلمية واذا عاتبتهم على صنيعهم هذا قالوا لك انما نريد لنعلم الناشئة « الحقائق » فكيف تريد ان يخرج من تخرج في هاتيك المدارس لاجرم انه يخرج حرباً لدولته وملته بل ولوالديه اللذين ربياه صغيراً

واما الحرب الاقتصادية فهي الآن اهم حرب عندهم وامضى سيف في ايديهم فان الشرق في اكثر البضائع لايقدر ان يباريهم ولا

ان يزاحمهم والشرقيون عيل عليهم فى استمداد النقود فهم لايستطيعون معهم قبضاً ولابسطاً وتراهم يقتلون كل مزاحمة لهم فى اية صناعة وفى اية تجارة الا النادر الذى لايعتدبه وعدا هذه الحرب الاقتصادية التى هم مصلوها امم الشرق فانهم يثيرونها احياناً على الدولة نفسها ولولا شدة تزاحمهم فيما بينهم وما يفضى من ذلك الى خلافهم وسباقهم الى المرافق لكانوا يسدون على الدولة كل باب اقتصادى ويخنقونها فى ارضها ولكن وجدوا دون ذلك عوائق جمة كما حصل فى مسئلة ادرنه اخيراً فلقد قطعت الدول عنها كل مدد مالى هذه المدة كلها وعاشت الدولة بواردها الخاص واعاشت الجيش الذى كان مرابطاً امام البلقانيين بدون ان تعقد قرضاً حتى لقد قال كاتب ايطالى عظيم فى جريدة (استامبا) ان تركيا ذات حياة قوية لم يستطع شئ ما ان يتغلب عليها وهى لاتعرف الفناء وتتعود ضنك العيش وتحمل الظروف القاتلة فتهديد الدول لها بقطع المال عنها لم يخف احداً وفضل عدول الدول عن التضييق المالى لايرجع للدول فان هذه تعمل جهد استطاعتها على فناء الدولة ودمارها وقدرات تركيا حتى اليوم انها مغبونة من الدول المسيحية لأنها لاتعاملها معاملة الكفء للكفء بل تعاملها بعدم المساواة والظلم انتهى كلام الكاتب الايطالى واما الحرب السياسية فانها على شقين منها مواطآتهم بعضهم مع بعض علينا فى الخارج ومنها دسائسهم علينا فى داخل بلادنا فاما المواضعات والمواطئات على ابتلاع بلداننا فكاتفاق فرنسا و انكلتره على مصر ومراكش السودان واتفاقهما مع ايطاليا على مسئلة طرابلس واتفاق النمسا والمانيا وايطاليا فى مسئلة بوسنه واتفاق البلقان الاربع بارشاد دولة روسية على اقتسام ولايات الروميلى وكاتفاق انكلترة والروسية على فارس وهلم جراً

ومنها دسائسهم فى داخل بلادنا وذلك كدسائس السلاف فى الروميلى منذ اعصر ودسائسهم مع الارمن فى الاناضول وتحريك ايطاليا للادريسى فى عسير وما كانت تدسه فى طرابلس قبل دخولها اليها ومنها تحريكات النمسا وايطاليا فى البلقان ومداخلات فرنسا فى سورية وهذا فى سورية امر قديم يبتدى منذ ايام الصليبين وقد كانت اصابع الاكثرين منهم تلعب فى سورية بسبب كثرة المسيحيين فيها واتخاذ اوربا مسئلة المسيحية متسلقاً لمداخلاتها ولو لم يطالبها المسيحيون بذلك وفى ايام الامير فخر الدين المعنى عقدوا معه حلفاً وسافر هو الى توسكانا فى ايطاليا وكذلك كانت كاترينا امبراطورة الروس تداخل ظاهر العمر الزيد انى فى عكا ولسنا هنا فى تعداد الدسائس الاجنبية فى بلاد الدولة وسائر اصقاع الشرق فأنه يطول جداً ولكننا نريد من هنا الوصول الى مسئلة الحركة اللامركزية التى قامت فى ابان حرب البلقان فانها من بعض الدسائس الاجنبية ايضاً ومن جملة الحرب السياسية المثارة على الاسلام والاشراك الموضوعة لسقوط الشرقيين الاخير والغاية من هذه الحركة مشاغلة الدولة عند ما تكون مدهوشة بحرب البلقان منصرفة الى الدفاع عن عاصمتها حتى تضطر الى اعطاء الولايات العربية الادارة اللامركزية رغم انفها خوف انتقاض العرب عليها فتكون اللامركزية هى الخطوة الاولى نحو الانفصال ثم تحدث حوادث اخرى وتثور مشاكل جديدة والشاكل الى الدولة العثمانية بفضل اورباع اسرع من الماء الى الحدور فتعطى الاشارة الى اولئك الدعاة انفسهم باعلان الاستقلال تماماً فى اثناء ذلك البحران التى تكون حكومة الاستانة قد وقعت فيه وتكون هذه هى الخطوة الثانية بان يخدع اولئك السماسرة قسماً من الاهالى كما هم خادعوهم الآن بالفاظ الاصلاح والفلاح والنجاح وما اشبه ذلك ويكون

الميدان يومئذٍ اصبح اوسع للجولان لأنه مما لامشاحة فيه ان نفوذ الحكومة المركزية يكون اضعف فى الولايات المستقلة بادارتها اعتبر ذلك فى جبل لبنان وقسمه ببقيه الولايات فتعرف الفرق فهذا مايمنى الاجانب انفسهم به من اللامركزية ببلاد العرب العثمانية لتكون الحربة اوسع والمقاومة اسهل وتصير الاساليب اطلى وافتن والالفاظ اعظم واضخم ويقال حينئذٍ الخلافة العربية والدولة القحطانية والاستقلال القومى والتحرير الوطنى وخلع الربقة ورفع العبودية وغير ذلك من الالفاظ الطنانة والكلمات المستعذبة خصوصاً عند الشبان فيتحمس لها بعض من لايعلمون عواقب الامور ويرفعون لواء الثورة ويتبعون مثل البلغار عند استقلالهم عنا فتقع بينهم وبين الحكومة المتبوعة الواقعات وتسيل الدماء وينتصر للحكومة فريق الاهالى الذين يعلمون ماوراء الاكمة فتموج الامة العربية بعضها فى بعض ويفجر الدماء بعضها بعضاً ويعاد فى بلادنا والعياذ بالله تمثيل رواية الروملى ولا يمارى اثنان فى كون انقلاب كهذا فى بلاد العرب لايمكن ان يحصل بدون حرب داخلية دموية تكون هى القاضية على استقلال العرب بدلاً من ان تكون هى مبدا استقلالهم فتأتى الدول الاستعمارية باساطيلها وتدعى كل منها وقاية مرافقها وينتهى الامر فيما بينها بانزال عساكرها كل عسكر فى منطقة لبتم التراضى بينهن فيكون نزول عساكر الانكليز فى يافا لمحافظة الامن فى فلسطين والفرنسيس فى بيروت لمحافظة سورية ولبنان والالمان فى مرسين واسكندرونة ارضاءً لهم وثمناً لسكوتهم .

هذه نتيجة حركات اللامركزيين الذين يزعمون انهم هم قائمون لاجل تقوية الوطن ضد الغارة الاجنبية وهم يمهدون سبل الغارة الاجنبية ويداوون لعلة بالتى كانت هى الداء .

والخصال التى دعت هؤلاء الجماعة الى هذا العمل عديدة والاسباب متنوعة ولكن المرجع الاصلى هو طمع الاجانب فى بلادنا والتحريك والمتواصل سراً فيها والمبالغ السرية التى تتسرب من صناديق وزارات الخارجيات الى جيوب الصحافيين والمكاتبين مما لاينكره الا كل من على بصره غشاوة اوفى قلبه مرض .

وان فريقاً من الذين قاموا بهذه الحركة ان لم يكونو يأكلون من مال الاجانب فانهم ناقمون على الاتحاديين اهمالهم اياهم بعد اعلان الحرية مع انهم كانوا من انصارهم على عبد الحميد فى ايام الاستبداد فلا يريدون ان يغفروا لهم زلة تكبرهم وتجبرهم عليهم بعد الفوز وعدم تذكرهم من كان يألفهم فى المنزل الخشن وان آخرين وعدوا باشياء لم تنجز لهم وآخرين تطالوا الى مناصب عالية فضن الاتحاديون بها عليهم فشمخوا بانوفهم وصاحوا بالانتقام وصاروا يتربصون بالدولة الدوائر ويتوقعون الفرص الملائمة للقيام فاقصت الدولة بعضهم وعزلت بعضهم واسقط الاتحاديون ترشيح بعضهم لمجلس الامة فهناك اشتد الحنق وغلت مراجل الحقد وتنازعت الريح مع السفينة فدارت الدائرة على البحرية كما يقال ونحن فى هذه البلاد التاعسه لم نقدر الى الآن ان نفصل بين المسائل العمومية والمسائل الشخصية كما هو فى البلاد الاخرى فعندنا مثلاً اسماعيل كمال بك الارناووطى مواطئ اليونان منذ مدة طويلة على دولته ووطنه ومعلوم انه لم يكن يدع فرصة حتى يتوردها لاجل اثارة بنى جلدته على الدولة وسفك الدماء فكل من غضب من طلعت بك او جاويد بك او غيرهما من روساء جمعية الاتحاد والترقى تراه ينضم الى اسماعيل كمال ويصفق لعمله طرباً ويستزيده مما هو فيه بدلاً من ان يقول انى ولو كرهت طلعت او جاويد او اى رئيس كان من روساء

الجمعية فلا ينبغى ان استحسن الحركات الموجهة ضد دولتى وبلادى ولا ان اصافح الايدى العاملة فى خراب بيتى وبيوت اخوانى ويمكننى ان اكون عدواً للاتحاديين مع بقائى عثمانياً صادقاً عدواً لكل من يمس العثمانية بسوء .

وعندنا صادق بك الذى طالما وضعه اعداء الاتحاديين فى صف اعاظم العثمانيين قد تكررت منه مؤخراً التلغرافات الى قيصر الروس فى معنى دعوته للتدخل فى شؤون الدولة العثمانية ولو كان فى ذلك من فقد الحقوق ومس الاستقلال مافيه .

وعندنا شريف باشا سفير الدولة السابق فى استوكهولم بعد سقوط وزارة كامل باشا كتب فى الجرائد طالباً من فرنسا وانكلتره ارسال اساطيلهما لاسقاط محمود شوكت باشا من الباب العالى بالقوة فى وسط الاستانة فانظروا الى درجة صدق هذا العثمانى ومبلغ وطنيته وتأملوا واحكموا . واغرب من هذا انه كتب الى صديق له فى مجلس نواب فرنسا كتاباً يعاتب فيه الحكومة الفرنسية على تساهلها مع ضباط الاتحاديين فى المرور من تونس الى طرابلس وقد قام ذلك النائب يتلو كتابه هذا فى بهوة المجلس حتى تحير من عمله انفس الفرنسيس الذين يقدرون قدر الوطنية فانظروا ايضاً الى هذا العثمانى الذى لايهمه الدفاع عن طرابلس وعن الشرف العثمانى بل يهمه سرعة استيلاء الطليان على طرابلس غيظاً بالاتحاديين وهو يغرى الفرنسيس بالمجاهدين .

ويقال ان كبيراً من الحزب المعارض للاتحاد والترقى ورد مصر فى اثناء حرب طرابلس فعذل الحكومة الانكليزية على اغضاء الطرف على ذهاب الضباط العثمانيين الى الجبل الاخضر وشددهم فى قضية منع الامدادات عن مجاهدى العرب ليسقط فى يد الاتحاديين من جهة

طرابلس وينكسر نفوذهم واستدل الناس على ذلك بكون الانكليز شددوا المراقبة جداً على الحدود من بعد مجيء ذلك الكبير الا مصر ومن اجل هذا وامثاله نفر كثيره من الحزب المعارض للاتحاد والترقى واكبروا خلط الاحقاد الحزبية بالمصالح الوطنية العمومية وعادوا يثنون على الاتحاديين جميلاً حتى لقد الف احد هؤلاء المعارضين فى هده المعارضين فى هذه المدة كتاباً سماه « افلاس المخالفة » بين فيه بهذه الشواهد ان الحزب المعارض اسقطته اعماله المخالفة للعثمانيين عامة لا للاتحاديين خاصة وهناك امور اخرى لا تعد ولا تحصى من هذا القبيل فهل يظن القارئ ان دعاة اللامركزية الذين يدعون الآن الاخلاص للدولة العلية والقيام لمجرد الاصلاح فقط ينكرون شيئاً من هذه الاعمال او يقبحون هذه الحركات التى لايمكن ان ينطبق عليها الا اسم الخيانة او يبرأون من هؤلاء المعارضين يوماً كلا والله ان اكثر من نعرف من رؤساء هذه الحركة هم يد واحدة مع هؤلاء وانهم يلتمسون لهم الاعذار ويقيمون على صحه مبادئهم الادلة وان قبح منهم احد افعالهم فيكون ذلك رياء وسمعة وخوفاً من غضب الامة فقط .

وهل يوجد دليل على كون وجود هذه الاحساسات الخبيثة فى صدورهم اوضح مما ظهر منهم اثناء الحرب وما بدر على السنتهم واقلامهم يوم استردادنا ادرنه فقد كان ذلك اليوم عند الامة عيداً وعند بعض اولئك الجانين مأتما شق فيه عليهم دخول العثمانيين الى ادرنه ازيد مما شق على البلغار الذين خسرو عليها ٢٠ الف رجل وذلك خوفاً من فوز الاتحاديين وارتفاع شأن الدولة بعد ان انخفض فى عيون الامة الاسلامية ولم ينس الناس ماكانت تكتب فى هذا الصدد جرائدهم التى بقيت تأمل ان اوربا تطرد العثمانيين من ادرنه الى ان اتى سفراء البلغار

الى الاستانة يطلبون الصلح فايقنوا بفوز الدولة وكان ذلك لهم خذلاناً عظيماً .

ولقد بلغ بعضهم من التهور فى البغض والانحطاط فى الاخلاق الى ان كانوا يشمتون بانهزام العسكر العثمانى الذى بانهزامه اهين كل عثمانى بل كل مسلم على وجه الارض وكانت تبدو عليهم لوائح السرور باخبار البلقـان حتى فى ايام الوزارة الكاملية ممـا يدل على ان عداوتهم هذه لم تكن للاتحاديين وحدهم بل للاتراك بل للمسلمين اجمع . ولا شك انهم ينكرون كل هذه المسائل ولـكن انـكارهم هذا لايفيدهم اصـلاً لانه مما نمت عليه خوائن الاعين وخوا فى الصدور وهم يخطئون جداً ان كانوا يظنون ان حقائق امورهم مجهولة عند الناس .

ومهما يكن عند امرئ من خليفة
وان خالها تخفى على الناس تعلم

والحاصل ان عداوة الحزب تنقلب عند كثير من ابناء هذا الوطن التاعس الى عداوة الدولة نفسها وبغض الاتراك يحول الى بغض الخلافة والاسلام حتى لقد سجلوا على العرب عار الاجحاف بالدولة والمقاومة للخلافة فى ابان الشـدة التى يأبى العدو ان يشـاغب فيها فضـلاً عن الصديق مع ان العرب هم اولى الامم كلها بالالتفاف حول الخلافة وان الا تراك هم تلاميذ العرب بالاسلام .

وعليه فهذه الفئة من العثمانيين هى التى وجدها ولا يزال يجدها الاجانب احسن آلة فى ايديهما لقضاء اوطارهم الاستعمارية وهى التى لايزالون يتقدمون اليها فى نقض بنيان الجامعة العثمانية وفك عرى الرابطة الاسلامية فنهم من يستعدونه على الدولة بتحريك الجنسية ومنهم من يستميلون بالمال ومنهم من يؤكدون له مصير هذه البلاد اليهم فهـو يريد ان يزرع

منذ اليوم عندهم مودة تحفظ عليه مكانته و مصالحه عندما يصيرون اصحاب البلاد لاسمح الله ومنهم يائس قانط من رحمة ربه نظر فى وجوه الوسائل لنهوض الاسلام فوجد الفرق عظيماً فى القوة فلم يقدر على حل هذا المشكل بعقله وعلمه وبايمانه فاستسلم الى اليأس وذهب به الخوف ان يظن ان الاوربى لوشاء ان يمنعنا ورود الماء على الفرات ونحن معطشون لخمس لامكنه ذلك بمجرد الفكر. فرمى بنفسه فى حضن هذه الفئة من شدة اليأس ومنهم ناقم على الاتحاديين اوعلى الاتراك اموراً شخصية وسفاسف لاطائل تحتها ومنهم معتقد ان تعين المأمورين من الاستانة مانع من تقدمه فاللامركزية فى الولايات هى التى تكفل له رقيه و صعود ومنهم طائفة لم يبلغ بهم سوء الظن ان يعتقدوا فى اولئك الدعاة التغرير بالوطن فحملوا حركتهم هذه على مجرد الاصلاح والاستبدال شكل الادارة الذى لا شك فى وجوب تبديله وحفظوا محبتهم للدولة وحميتهم على الوطن وهؤلاء هم الفئة الوحيدة الصادقة من اصحاب هذه الحركة وهم فى حقيقة الامر متفقون متقابل مع الباب العالى نفسه على اكثر النقط وان كان ثمة اختلاف فى الانظار فيكون على اعراض غير ذات بال وتكون الطرق كلها الى وجهة واحدة هى تمكين الدولة ووقاية الاستقلال العثمانى

نعم عند هذه الفئة بعض اغلاط فى القياس مثل تجويزهم اعطاء سورية فى حالتها الحاضرة والعراق ادارة لامركزية بناءً على كون المانيا مثلاً هى ذات امارات وادارات متعددات ولم يمنع ذلك من وحدتها الالمانية ولا اوهن ما بينها من الربطة العامة اوان استراليا مع استقلالها الداخلى لاتزال شديدة الارتباط بأمها انكلترة وغير ذلك مما يلقيه اولئك المغالطون فيلقفه هؤلاء بدون روية ولايفكرون ان بين المانيا والبلاد العربية بوناً شاسعاً من جملة وجوه وانه كلما كانت الرابطة المادية قوية ضعيفة لزم ان

تكون الرابطة المادية قوية ومتى تقوت الرابطة المعنوية وقامت المعانى التى فى الصدور مقام الاوامر والقوانين فعند ذلك لا يبقى مانع من الاستقلال الادارى لأنه يسرع بحركة التقدم دون أن يضر بالوحدة الضرورية لبقاء الدولة ونجاة الوطن

ومما ينزع اليه الصادقون من طلاب الاصلاح ولا يخالفهم فيه احد يحب الحق ويتوخى المصلحة هو المساواة فى الحقوق بين الاجناس واعطاء الولايات اقساطها من الاصلاحات على نسبة واحدة فهذا مطلب حق لا يقدر ان ينازع فيه تركى ولا عربى ولا يجوز للدولة العلية ان تنحرف عنه قليلاً ولا كثيراً ولا سيما بازاء امة نجيبة كالعرب قد آتاها الله من معادن الفضل ومدارج النبل ومطالع الذكاء ومنابت الشجاعة ومقاطع الكرم مالم يؤته غيرها من امم البسيطة فالدولة العثمانية خليقة بان تستورى زناد العرب الاذكياء فى ادارة امورها وان تنثل لحياطة هذا الوطن العثمانى كنائن القرائح القحطانية والعزائم العدنانية وهى هى الملومة على اهمال هذا الامر دون غيرها ولكن هناك امور لابد لنا ان نستوقف عندها انظار المعارضين والمعترضين سواءً كانوا من الفئة الصادقة المعتقدة صحة مذهبها اومن الفئة المفسدة الرائدة للاجانب اوالفرقة الضالة على علم ليعلم الجميع مالنا وما علينا

ان هؤلاء جميعاً يقولون ان العرب غير متمتعين بنعمة المساواة مع اخوانهم الاتراك غير مشاركين لسائر الامة العثمانية فى ادارة المملكة وان الولايات العربيه مهملات تمام الاهمال عاطلات من حلى الاصلاح تأخذ الدولة ريعها وتصرفه فى تنظيم الولايات التركية جزافاً وان اكثر عمال الدولة هم من الترك والجركس والارمن وغيرهم وان اكثر الوظائف

هي لهم وان اكثر الارزاق هي دارة عليهم الى غير ذلك مما يكرره هؤلاء الناس بكرةً واصيلاً ولم يبق عثماني ولا اجنبي الا وقد سمع به

فالجواب على ذلك ان المملكة العثمانية هي على مستوى واحد وان وان حاجتها الى الاصلاح هي في كل الولايات بدون استثناء وذلك كما قلنا بسبب الحروب والفتن والمشاكل الداخلية والخارجية التي نزفت ثروتها وافرغت خزائنها والتي مصدرها مطامع اوربا المتكالبة عليها من كل جهة ومناصبتها اياها منذ ٦٠٠ سنة

واذا نظرنا الى ولايات الدولة رأينا الولايات العربية مع فقرها اسعد حالاً وارقى في درجة المدنية من ولايات الاناضول التي هي عش الاتراك ومضرب عسلتهم ورأينا الاناضول احط المملكة في كل ضرب من ضروب المدنية مع انه في الحقيقة هو مادة الدولة التي يستمد منها الحياة وهو القلب الذي يدفع دم القوة الى الاطراف وهو الذي عليه المعول في النائبات فكيف بعد هذا يقال ان الدولة تؤثر الاناضول على بلاد العرب وتستأثر بريع الولايات العربية لتصرفه في الولايات التركية وهل يجوز رمي الكلام بدون تحقيق وتضليل الافكار على علم واغضاب العامة بدون اساس صدق والمشي بالخلف بين هاتين الامتين اللتين اذا افترقنا سقطنا جمعاً وهل يسامحنا الله في آن نزعم كون الترك ينظمون ولاياتهم من ريع ولاياتنا وان نهيج بالزور والبهتان حفائظ العرب و تكون بلاد الترك هي بالنسبة الى بلادنا في العمارة كما هي بلادنا بالنسبة الى اوربا واميركا ومن شاء الاطلاع على ذلك فما عليه الا بالسير والنظر في البلادين كذلك طالما سمعنا من جملة اوضاعهم ان نظارة الاوقاف تأخذ ريع اوقاف العرب لتصرفها في الاستانة والاناضول وهي فرية ماز الوا يغيرون بها قلوب العرب على دولتهم ولا يرقبون وجه الله فيما يقولون ولا مصلحة الامة فيما يغيرون

ويوغرون والحال ان الحقيقة هي خلاف ذلك وهاك واردات ومصروفات اوقاف ولايات برالشام بموجب جدول رسمي مصدق من نظارة الاوقاف

مصاريف السنة الحاليه		الوردات بحسب اجمالات سنة ١٣٢٧ المالية		التحصيلات من اجمالات سنة ١٣٢٧ المالية		
پاره	غروش	پاره	غروش	پاره	غروش	ولايه
	١١٢٧٤٨٥	٢٥	١١٧٢١٦٦	١١	١٠١١٤١٩	بيروت
٢٤	٢٠٢٩٦٧٥	١٦	١٥٧٩٣٦١	٠٨	١٤٤١١٢١٦	حلب
٣٧	١٦٥٢٦٦٩	٢١	١٢٤٣٢٢٨	٣٤	١١٠٣٢٠٢٩	سوريه
٢٦	١٥١٢١٨٥	٠٧	٣٢٥٦٣٩١	٣٠	١٣١٤٤٠٦	قدس
٠٧	٦٣٢٢٠١٦	٢٩	٦٢٥١٢٤٧	٠٣	٤٨٦٩٠٧٢	

بقيت هناك مسئلة العمال والمأمورين والوظائف والمعاشات وهذه لا ينكران الترك مستأثرون فيها بالشق الاوفر و انهم قلما يتعاطون التجارة والصناعة والزراعة بل جل معولهم لسوء الحظ على وظائف الدولة وهي بلية من بلايا المملكة العثمانية ومرض اعضل امراضها نرجوالله ان يصححه منها ولو تدريجاً لأن انصراف الترك الوظائف ودوران معايشهم على محور الاستخدام جعل جميع متاجر الاستانة واخذها وعطائها وحرفها وصناعاتها في ايدي الارمن والروم والافرنج ولم يكن منه في ايدي الترك الاسداد من عوز فاموال الدولة تدخل على الاستانة والجانب الاكبر منها يدخل على الارمن والروم والاوربيين ولكن هذه الحالة هي في الحقيقة

خاصة باتراك الاستانة نظراً لمجاورتهم للباب العالى ولاعتيادهم الوظائف والتعيش من خدمة الحكومة فاما اتراك الاناضول فان نصيبهم من الوظائف نصيب سائر المملكة ونصيب العرب انفسهم اذاً فليس استئثار الترك بالوظائف هو لمجرد بغضهم العرب او لكونهم لايريدون ان يستخدموا الا ابناء جلدتهم ولو كان ذلك كذلك لوجب ان يتساوى اهل الاناضول مع اهل الاستانة فى هذا الامر لأن جميعهم اتراك وانما غلب الوظائف اتراك العاصمة بسبب الجوار والالفة كما قلنا ونحن نعلم ان سكان مركز الولاية فى كل الولايات يكون منهم عدد المستخدمين والمأمورين اكثر من سائر الولاية باسرها فاذا نظرت الى ولاية الشام مثلاً وجدت اكثر مأموريها هم من نفس دمشق او ولاية حلب كان اكثر مأموريها من نفس حاضرة الشهباء وكذلك الالوية اكثر مأمورى اللواء يكونون من نفس مركز اللواء لملازمتهم باب الحكومة وكونهم اقرب الى الدوائر الرسمية من اهل القصبات والقرى فاذا قلنا ان العرب مظلومون او مهضومون من هذه الجهة فلا يكونون مظلومين اكثر من اهالى الاناضول مع مراعاة النسبة فى عدد الولايات واذا اخذنا حاضرة الشام او حاضرة بغداد او حاضره حلب وقسنا من له اتصال فيها بخدمة الحكومة الى امثالهم من مركز ولاية سيواس او ازمير او اطنه مثلاً لم نجد اهل هذه المراكز اكثر مأمورين اواوفر رواتب من اهالى دمشق والزوراء والشهباء وقس عليه البواقى نعم المزية فى الاستكثار والاستئثار لاهل الاستانة نظراً للمجاورة والمعاشرة ولدينا مثل اوضح واجلى وهو ان اهالى جبل لبنان يناهزون خمسمائة الف نسمة واهالى قصبات دير القمر مصيف المتصرفية وقرية بعبدا مشتاها لايكادون يبلغون خمسة الاف نسمة ومع هذا فان

ثلث مأموري لبنـان هو من هاتين القصبتين فان قلنا انه يجب توزيع الوظائف على نسبة العدد فان الخمسـه الالاف لايمكن ان تكون ثلث الخمسمائة الف وما الاصل فى ذلك هوامتيازهم على بقية اهل الجبل فاهل الجبل متساوون فى كل الحقوق ولكن الاصل فيه قربهم من مركز الحكومة واعتيادهم خدمتها ومن الامور البديهية ان الاقرب داراً الى النهر يكون اقرب وروداً وايسر ماءً ومع هذا فليس منـا من يجـادل اويكابر فى وجوب توفير حقوق العرب وعدم بخسهم ميزانهم لاننا اذا كنا ناقين على بعض العرب التكلم فى الجنسية والدعوة الى ايثار انفسنا على الاتراك بكونهم اخواننا فى الاسلام والعثمانية فنحن بالاولى ننقم على الاتراك ايثار انفسهم على ابنـاء جلدتنا مع كونهم لايفضلون العرب فى شئ لا اصلاً ولا فصلاً ولا كفايةً ولا فضلاً

وهناك امر اخر لابدان نسترعى له اسماع ابناء السلالة العربية وهو ان العرب الى يومنا هذا لم يقفوا فى جانب الدولة موقف الاتراك ولارضوا ان يستأنسوا بالحكم والنظام جميعاً بل اذا عددنا العرب العثمانيين اثنى عشر مليوناً اوخمسـة عشر مليوناً من الانفس مثلاً لزم ان نقسمهم الى ثلاث طبقات الاولى البوادى وهم اكثر من ثلث هذ العدد وربمـا ناهزوا نصفه والدولة لا تستفيد منهم سوى شن الغارات. وافساد السابلة واقلاق راحة المعمورة وهى لا تأخذ منهم عسـكراً ولا خراجاً واذا استوفت بعض رسوم على مواشيهم فبالمقـدار الزهيـد الذى لايوازى الوظائف والجمائل المعينة لمشايخهم والخلاصة ان هؤلاء خارجون عن الدائرة التى الكلام فيها فليس لهم الا الفائدة المعنوية من اطاعتهم للخلافة وكونهم من جملة الرعية نعم هم سياج المملكة الذى لا تخترق نواحيه وعضد الدولة الذى لا يفت فيه اذا وقعت لاسمح الله غارة اجنبيه الطبقة الثانيـة حضر جزيرة

العرب كاليمن والحجاز ونجد والبحرين وما ماثلها فانه لايقدر ان يقول
احد ان الدولة تستفيد من هؤلاء فائدة مادية اصلاً بل هى تخسر على
تأمين بلادهم وادارة امورهم اموالاً طائلة كل سنة فاضلة على ماتأخذه
من خراجهم ومعلوم ان الحجاز معيشته من الدولة العلية والعالم الاسلامى
وهذه طبقة لاتقل عن اربعة ملايين ليس منها للدولة سوى الدعاء لمولانا
السلطان والتأييد المعنوى الذى لاشك فيه . الطبقة الثالثة الحضر
الذين فى بر الشام وفى العراق والجزيرة وهؤلاء هم الذين تجند منهم
الدولة العساكر وتأخذ الجبايات كسائر اهل السلطنة لكنهم لا يزيدون
على ثلاثة ملايين ولذلك كانت دعوى بعض اخواننا العرب بأنهم هم
اكثر من نصف المملكة صحيحة من جهة العدد وغير صحيحة من
جهة التكاليف الاميرية وكان على بعض العرب قبل تعريض هذه
الدعوى ان يشمروا عن ساق الجد ويدخلوا فى المدنية وينشروا العلم فى
طبقاتهم ويتقربوا الى الدولة باحصاء نفوسهم وبقبول الخدمة العسكرية
فى صنوف الجيش بعدذلك يصيرلهم الحق بالمطالبة والمحاسبة حسبما يقولون
الآن وينتخب لهم نواب فى مجلس الامة بنسبة عددهم

ولنفرض ان كل هذه الدعاوى صحيحة وكل هاتيك الاعتبارات
وهمية فما معنى القيام للمطالبة بالحقوق بهذه النعرة الجنسية المشعرة بالمقت
والانشقاق الطالعة بالجفاء والازورار وما فائدة فك رابطة الاسلام
لاقامة رابطة الجنس مقامها وما مدخل العصبية القومية فى قضيه فتح
مدرسة او عقد قنطرة اومدسكة اواتمام اصلاح ما الا ان يكون هناك
سبب هوغير داعى الاصلاحات ودسيسة خارجية هى عبارة افساد لااصلاح
فعلى الامة العربية ان تحذر من الحركات الماشية بين ظهرانيها وتتنبه الى
السم المدسوس فى طعامها ان الاوربيين مع مابلغ بالاسلام من الضعف

والتلاشى ومع سقوط اكثر الحكومات الاسلامية المستقلة لايزالون ينظرون الى الاسلام نظرهم الى القرن المصارع والخصم المضارع يتذكرون ماضى الاسلام ويخشون كراته وربما وضع بعض مؤلفيهم الكتب فى التحذير من مستقبل الاسلام والتنبيه الى اتقاء خطر الجامعة الاسلامية اوالاتحاد الاسلامى المسمى عندهم بالبانيسلاميسم والذى اذا تمثل طائفه فى النوم لاحد قياصرتهم اورجال سياستهم مذعوراً

وقداصبح عند انكلترة مائة وعشرون مليون مسلم وعند فرنسا نحو اربعين وعند الروسية ثلاثون وعند هولندة نحو خمسة وثلاثين هذا عداماعند النمسا فى البوسنه والمانيا فى افريقية وماتحاول ايطاليا اخذه فى طرابلس واسبانيا فى شمالى المغرب الاقصى وعدامسلمى البلقان وان الطف الدول المسيحية معاملة للمسلمين هى اميركا فى الفيلبين والحبشة فى بلادها

فهذه الدول لاسيما الاربع اللاتى عندهن القسم الاكبر منهم لاتخشى من شئ كخوفهن من الرابطة الدينية التى تربط جميع المسلمين بعضهم ببعض كانها تربطهم جميعا بالدولة العلية . ولاترين يوماً اسعد من اليوم الذى تجدن فيه خطباً حل بالدولة العثمانية ولم يكرث هؤلاء المسلمين الذين تحت سلطتها ولااقام قيامتهم ولقد استعملت ضروب الحيل فى ابعاد هذه الامم عن الدولة واقامة الحواجز والسدود ودخلت عليهم من ابواب عديدة واجتهدت فى تقطيع آمالهم من الدولة اقصى الاجتهاد فلم تستفد من كل مساعيها فائدة تذكر ولم يفتأ اولئك المسلمون يذكرون الدولة العثمانيه ويدعون للسلطان العثمانى على منابرهم وان منعوهم من الدعاءله جهراً دعواله سراً واوربا ترى ان هذه الحركه بدلاً من ان تضعف بضعف الاسلام قداخذت تزداد وتنمو وان المسلمين قدابتدأوا يشعرون

شعورا عاماً ويستيقظون من سباتهم العميق وصارت تبدو منهم امائر النزوع
الى وحدة تجمع شملهم وتمنع ذلهم وتقيهم خطر السقوط التام الذى
يتهددهم فكان لهذه الحركة الروحية التى تحتاج بالمسلمين مايقيم اوربا
ويقعدها ويحفزها على تدارك عواقبها فهى ترى المسلم الصينى يتلاقى
بالمسلم المراكشى والمسلم الفيلبينى يتصافح مع المسلم الهندى كأنهما شقيقان
ولدهما اب واحد وام واحدة ولاتجد هذه الاخوة حية فى حى من
الاحياء اوشعب من الشعوب كما تجدها بين المسلمين ولاتعلم لهاسبباً سوى
جامعة هذا الدين الحنيف اذ كانت عناصر هذه الامم متباعدة فيما بينها
تباعد الارض عن السماء فاوربا بعد ان حاربت الدولة العلية بجميع
انواع الحروب جاءت تحاربها الآن بحرب جديدة هى احياء الجامعة
الجنسية بين الامم الاسلامية لاجل ان تتفكك بها اوصال الاسلام ولا
يبقى محل لحنين المسلم الصينى الى الهندى والى التركى والى العربى
ولهذا لاتكون كتلة واحدة ولما وجدت بعض العرب اوالمستعربين
مستعدين لقبول هذا الفساد وكانت ترى انهم هم الذين يقدرون على
مشاغلة الدولة اكثر من سواهم وانهم هم الذين يمكنهم احياء العصبية
الجنسية ومهاجمة الدولة بها فتصير الدولة مشغولة فى بلادها بالمسئلة العربية
كما ان تلك الدول مشغولة فى مستعمراتها بالمسئلة الاسلامية اخذت تدس
الى بعض الصحافيين فى المشرق بان يتكلموا فى الجامعة القومية ويحيوها
فى صدور العرب وشرع رجال السياسة الاوربية ومن يبث دعوتهم من
الشرقيين يضربون على هذا الوتر فى عرض النصيحة قائلين ان المسلمين
لايبلغون من النجاح غاية يبغون بها حتى يضارعوا الاوربيين فى ترك
الدين والتمسك بالجنس وان الامم المتمدنة الراقية اليوم لاتقيم للدين
وزناً وعلى فرض انها احترمت الاديان ظاهراً فانها لاتعمل بها ولاتبنى

سياستها عليها وآمن كثير من الاغبياء باقوال الاجانب هذه وتمويهات سماسرتهم وذلك لقصور اطلاعهم وركاكة عقولهم واخذوا يقلدون اولئك النفر فى الكلام تقليد اعمى ويقولون لا امل بالرقى بواسطة الدين الاسلامى فما علينا الا ان نعود الى الرابطة القومية بدون نظر الى العقيدة الدينية اقتداء باوربا التى اصبحت الرابطة الدينية عندها نسياً منسياً

ولو كان اولئك المساكين على اثارة من علم لكانوا علموا انه لم يأت يوم واحد نبذت فيه اوربا الرابطة الدينية او قصرت فى حرمتها وان الانكليز الذين يحسبهم الشرقيون مثال التمدن والارتقاء هم اشد الامم تمسكا بالدين المسيحى وان كان تمسكهم مقروناً بالمدنية لا كنصرانية الامم السلافية التى افعالها ظاهرة للعيان ومن الغريب ان نكون نحن قاصدين الاقتداء باوربا قائلين حسبنا من الرقى نصف ما بلغته منه وعند ما نصل الى مسئلة الدين نحسب انفسنا ارقى من اوربا ونطالب اقوامنا باطراح الجامعة الاسلامية عندما لا تكون امة من امم اوربا رضيت سراً او علناً باطراح الجامعة المسيحية التى لا تزال هى مدار سياسة اوربا الى يومنا هذا .

ومن اوهى الاعتراضات على وجود الجامعة المسيحية بينهم قول المغالطين المضللين ان الدول لا تستنكف عند اقتضاء سياستها من ان تعاضد دولة اسلامية على دولة نصرانية كما حصل فى حرب القريم مثلاً والجواب ان الجامعة الدينية لا تنفى وقوع الخلاف بين ابنائهما فالنصارى يتشاجرون والمسلمون ايضاً يتشاجرون والصحابة الكرام رضى الله عنهم تشاجروا وهم اساتذة الاسلام وكلهم مجتهدون وان الباباوات المعصومين من الخطأ فى الكنيسة الرومانية كانوا يختصمون فيقوم اثنان

فيدعى كل منها انه هو البابا الحقيقى وكل هذا لايمنع من ان تكون بين المتشاجرين جامعة تجمعهم على من هو خارج عنهم ولا يصح ان يقال ان اوربا اصبحت غير ذاهبة مع التعصب الدينى وانها لاتعرف امامها الا الانسانية الامتى صارت تنظر الى المسلمين نظرها الى المسيحيين بالتمام ومتى ابطلت صحفها الشهيرة ورجال سياستها القول بدول النصرانية ومصالح النصرانية الى غير ذلك واثبتت بالدليل تلو الدليل على ان المسلم والمسيحى واليهودى عندها شرع لا فرق بينهم عند ذلك نقول بطلت الجامعة الدينية من بينهم هذا بدون نظر الى مسئلة ماذا كان جائزاً ترك الرابطة الدينية مع الاعتقاد بالدين .

فاوربا لم تترك من النصرانية الا المبادئ الانجيلية الشريفة المبنية على محبة القريب وترك الطمع والزهد فى الدنيا والصدق فى المعاملة ولم تعرف النصرانية الا فى الشكل الذى اتى به بطرس الناسك اى شكل ابادة المسلمين مع ان النصرانية الصحيحة هى الشق الاول الذى تركته اوربا واما الشق الثانى فهو مناقض من جميع الوجوه لتعليم المسيح عليه السلام وان كثيراً من فضلاء النصرانية فى الشرق والغرب يقرون بكون افعال اوربا منافية للنصرانية رأساً ولقد تألف كتب كثيرة فى اوربا تشهد عليها بظلمها للمسلمين ومؤخراً صدر كتاب باسم « الحرب الصليبية البلقانية » لبعض افاضل الفرنسيس من الحزب الاشتراكى وفيه مقدمة لاحد نواب الامة الفرنسية ورد فيه من هذا الباب ما فيه مقنع لمن يريد ان يكون ريان من هذا الموضوع وقد جاء فى كتاب وارد من رئيس نقابة المحامين فى جنيف الى لجنة المحامين فى اثينا الجمل الآتية .

« اننا تتبعنا بالم شديد حوادث القسوة والتوحش البربرى التى جرت فى البلقان اثناء الحرب وقد رمى المتحاربون بعضهم بعضاً بها واظهر

كل منهم وثائق وادلة بحجج مما اصبحنـا لانقدر معه على تعيين درجة المسئولية ولكننا نقول على وجه الاجمال اننا شهدنا مشهداً هو من الفظاعة فى عصرنا ومن المخالفة لدين المسيح الذى باسمه اريد طرد الاتراك من املاكهم التى فى ايديهم منذمئات من السنين بحث يمكننا ان نتساءل عما اذا لم يكن المغلوبون هم الذين ساروا فى اثناء هذه المجازر الفاجعة باحسن سيرة انسانية جديرة بان تستميل عواطف العالم المعتدين المتمدن»

اما ظن هذا الفاضل بأن سيرة الاتراك جديرة بان تعطف عليهم العالم المتمدن فالحقيقة انها لا تعطف منه سوى نفر من الاحرار المتحققين بالفضل وفئة من الاشتراكيين الكارهين لهيئة اوربا الاجتماعية الحاضرة ومابقى فانهم لا يبالون باى شكل قتلوا الاتراك ولا على اى شكل صلبوهم وكذلك ليسوا اعطف على العرب مما هم على الاتراك وهذه حروب افريقية الحاضرة لدينا والعرب يسامون فيها انواع البلاء من كل جانب والسيف واقع فيهم من كل صوب ومالهم عن حياض الموت تهليل فالحرب الصليبية لسوء البخت لاتزال قائمة من اوربا واذا قام من كتابنا من يستغيث منها ويلتمس الانصاف ويدعو قومه الى التماسك والتعاضد ويقول مادام هذا التحامل واقعاً فى كل بقعة على المسلمين فأحر بهم ان يتعارفوا وان ينهضوا يدا واحدة لوقف هذا الاعتداء عندئذ قام بعض رواد الافرنجة من الشرقيين يسلقونه بالسنة حداد ويرمونه بالتعصب الدينى ويتهمونه بالتفريق بين المسيحيين والمسلمين وقام بعض المسلمين يجارونهم فى هذا الافتراء ويوافقونهم على هذا القول ليثبتوا لهم انهم قوم متمدنون متهذبون وانهم والحمدلله من الطبقة الراقية وانهم من العلماء الاجتماعيين

فكانه من الواجب ان تأخذ ايطاليا طرابلس وترتكب فيهاما ارتكبت وان تغزو فرنسامراكش وتقتل القوم فى وسط ديارهم وتزحف الروسية

الى العجم وتقتل كبار مجتهديهم فى اوائل المحرم وتصلب صاحبنا الامام ثقة الاسلام التبريزى فى يوم مأتم الحسين رضى الله عنه وتضع خيولها فى مساجدهم المقدسة وان يستأصل البلقانيون مسلمى الروملى قتلاً واسرا ويهتكوا استارهم ويسبوا الوفاً من نسائهم ويحملوا منهم نحو ١٥٠ الفاً على النصرانية بالسيف ويقلبوا مساجدهم كنائس ويستبيحوا فيهم كل محرم ولا يجوز ان يرفع مسلم اوانسان مطلقاً صوته بشكوى ولا ان يتلفظ بذكر هذه الفظائع حتى يقام عليه النكير وينسب اليه التعصب الدينى الذميم وهذه لعمرى نهاية النهايات فى احتقارعقول الناس واحلامها والهزؤ بحقوقها

ولقد شاهدنا بعض الجرائد المأجورة للاجانب من الجرائد العربية قدسكتت سكوتاً تاماً عن فظائع البلقان مع تواترها حتى فى صحف اوربا ورأينا جريدة المقطم احياناً تحاول انكارها لأن ثبوت هذه الافعال الوحشية مع سكوت الدول العظام عنها عبارة عن اعلان اوربا الافلاس الادبى وسقوط الاوربيين العالين فى نظر اهل الشرق من جهةالاخلاق كماهم ساقطون فى نظر اهل الصين الذين يسمون الاوربيين برراً فلا ينتظم ذلك مع مبدأ الصحف التى تدعو الى قبول السيطرة الاوربية والتى لاتزال تترنم بمنازع العدل الاوربى ولكن قد افتضح هذا الامر رغم سكوتها وظهر للناس عدم تحرى هذه الجرائد الحق و انما ذكرنا المقطم فى هذا الباب دون غيره لأنه يستحق الذكر و يصح ان يوجه اليه الملام بخلاف غيره

ولقائل ان يقول ما مدخل هذا البحث الذى هو اثبات تحامل اوربا علينا فى قضية طلب الاصلاحات من الدولة العثمانية على قاعدة اللامركزية وانا مسلمون مؤمنون بوقوع هذه الحرب الصليبية علناولذلك

نحن نطلب الاصلاحات ابتغاء تحصين الوطن فى وجه العدو الطامح اليه والجواب سترون ان البحث واحد وانه سلسلة آخذ بعضها برقاب بعض ولسنا نقبل منكم المغالطة فانتم لم تقوموا فقط لطلب اصلاحات واستفتاح مدارس واستثمار مزارع واستخراج كنوز واستنباط عيون بل قمتم من اول ماقمتم بالعصبيه العربية الجنسية وصحتم بالنعرة القومية و دعوتم الى حمية الجاهلية المنهى عنها فى الشرع الاسلامى و اخذتم تسدون وتلحمون فى موضوع تنفيز العرب من اخوانهم الترك مما لم تخل منه كتابة من كتاباتكم وكذلك كنتم تشيرون من طرف خفى الى وجوب اطراح الجامعة الدينية الاسلامية والعروج الى المعالى بمدارج الجامعة العربية فقط وهذا قد نمت عليه كثير من اقوالكم وحركاتكم وان كنتم لم تصرحوا به الى غاية ما فى نفوسكم فانما هو مداراة للعامة وخوفاً من سخط الدهماء التى لاتزالون تخدعونها بزخرف الاصلاحات وتنكرون عليها حقيقة مقاصدكم من جهة الدين ومع هذا فاى تصريح تريدون أعظم من استشهاد رفيق بك العظم رئيس حزب اللامركزية بقصيدة اليازجى السينية التى اختارها له من بين جميع قصائده فى حفلة تشييع رفاقه بمحطة مصر وهى القصيدة التى يقول اليازجى فيها

دع مجلس الغيد الاوانس ... وهوى لواحظها النواعس
واسل الكؤوس يديرها ... رشأ كغصن البان مائس
وذر التنعم بالمطاعم ... والمشارب والملابس
اين النعيم لمن يبيت ... على بساط الذل جالس
ولمن تراه بائساً ... ابداً لذيل الترك بائس

الى ان يقول

فاليكم ياقوم فاطرحوا ... المدالس والموالس

وتشبهو بفعال غيركم — من القوم الاحامس
بعصائب جاءوا فجادوا — بالنفوس وبالنفائس
هبت ظلائعهم يليها — كل صنديد ممارس
تركوا جميع الترك تعصف — حولها النكب الروامس
ملأوا البطاح بهم فداس — على الجماجم كل دائس

يشير الى حرب الروس للعثمانيين سنة ١٨٧٧

فاستوقدوا لقتالهم ناراً — تشب لكل قابس
وعليهم اتحدوا فكلكم — لكلكم مجانس
اولستم العرب الكرام — ومنهم الشم المعاطس
ودعوا مقال ذوي الشقاق — من المشايخ والقمامس
يمشون بين ظهوركم — تحت الطيالس والاطالس
فهم رجال الله فيكم — بل هم القوم الابالس
فالشر كل الشر ما — بين العمائم والقلانس

فنحن نوافق على مضمون قول اليازجي

اين النعيم لمن يبيت — على بساط الذل جالس
ولمن تراه بائساً — ابدا لذيل الترك بائس
ولمن يرى اوطانه — دمناً واطلالاً دوارس
كسبت شحوب الثاكلات — وكن قبلاً كالعرائس
عج بي فديتك نادباً — مابين ارسمها الطوامس
واستنطق الآثار عما — بين هاتيك البسابس
عن عزة كانت تذل لها — الجبابرة الاشاوس
ومدائن غناء قد كانت — تحف بها الفرادس

ابن المكاتب والمصانع والمدارس والمغارس
بل اين هاتيك الالوف بها فسيح البرآنس

ونرفض الذل ونطلب المساواة وننشد الاصلاحات ونبغي عمران الاوطان ولكننا لانجعل السبب في انحطاط هذه الاوطان سوى صليبيات اوربا وتحاملها الى يومنا هذا على الاسلام وعدم امهالها الدولة العثمانية فواقاً ان تنهض او تتنفس وعدها عليها انفاسها ذنوباً وحسناتها عيوباً وزحف امثال اولئك الذين جاء وجادوا بالنفوس وبالنفائس وداس منهم على جماجمنا كل دائس كل مدة بضع سنين مرة بحيث لم تقدر هذه الدولة ان ترمم شيئاً من ذلك الخراب الواسع الابشق الانفس .

ولكننا لانوافق على مضمون الشماتة بالترك الذين هم اخواننا في الدين والتابعية والذين نذل بذلهم ونعتز بعزهم شئنا او أبينا فاما رفيق بك استاذ اللامركزية فقد اقر بأنه قال ان هذه القصيدة ما قرئت على ملأ الا وجمعت بين الشتيتين يشير بذلك الى مسلمي العرب والنصارى منهم وهو مقصد حسن لو وقف عند هذا الحد ولم يجئ مقروناً بعد وان الدولة والافتراق عن الترك .

وهنا ايضاً موقف آخر مهم وهو اننا لا نفكر ابداً في الانفصال عن نصارى العرب بدون نظر الى قضية كونهم عرباً او مستعربين او اصلهم من امم مختلفة او كون جزء يسير منهم عرباً والباقي قداستعرب بكرور الايام فاننا نحن نعلم كل النصارى الذين يتكلمون بالعربية عرباً ونريد ان يبقى الاتحاد بيننا وبينهم وان تكون المساواة شاملة لنا ولهم وان لا يمتاز المسلمون عنهم بشئ من الحقوق ولكن على شرط ان لا يدعونا ذلك الى ترك رابطتنا الدينية بالاتراك وسائر مسلمي المعمور وان لا نزعم كوننا نحل الجامعة الجنسية العربية محل الجامعة الاسلامية واننا

اصبحنا لا نعرف المسلم التركي ولا الفارسي فليصبه ما اصابه فلا شأن لنا به ولتهتك اعراض مسلمي الروملي فأي علاقة لنا معهم هم ترك وبلغار وبشناق ونحن عرب ولينصرهم البلقانيون فلا يعنينا من هذا الامر شي فان هذه الامور لا نقدر ان نسلم بها طرفة عين وليست هي شرطاً لازماً للاخاء نصارى العرب فقد كان العرب نصرانيهم ويهوديهم ووثنيهم قبل الاسلام يجتمعون على قتال الاعاجم كما حصل في وقعة ذي قار والى اليوم يمكن ان نكون يداً واحدة مع نصارى البلاد البلاد العربية لاجل الدفاع عن اوطان هي لنا ولهم معاً ويبقون هم نصارى ونبقى نحن مسلمين لأنه ليس في ديننا ولا في دينهم ما يمنع من الاخاء فيما بيننا والاجتماع على غاية واحدة ولكن لما كانت اوربا نفسها لم تنكر الى اليوم الرابطة الدينية وكانت فرنسا ام التمدن تدعي حماية الكاتوليك في الشرق بحجة اجتماعهم معها في كنيسة واحدة مع اننا لو نظرنا الى العنصر لوجدناهم اقرب الى المسلمين نسباً وامس رحماً مماهم الى الفرنسيس اذ كانوا والعرب من السلالة السامية كما ان الاتراك اقرب الى المجار .والبلغار نسباً ومحتداً وهم مع ذلك اعداء لهؤلاء واخوان للعرب بالرابطة الدينية فاننا لا نريد ان ننكر هذه الرابطة ولا ان نعمل على توهنها وحدنا ونجعل فرنسا اقرب منا الى التدين ويا ليت شعري لو لم تكن الدولة العثمانيـة في الوجود فمن ذا الذي كان يضطر البلغار الى ترك البوماق المنصرين جبراً يرجعون الى الاسلام ومن يقسر البلغار على اعادة الالوف من السبايا الى والديهن كما اشترطت الدولة ذلك في عقد الصلح مع البلغار اخيراً ومن ذا الذي كان يجبر البلغار على ازال مئات من النواقيس من رؤوس المآذن واعادتها الى النداء بكلمة لا اله الا الله كما كانت وان قال أولئك القائلون

بالجنسية دون غيرها وما ذا يهمنا من امر البوماق والبوشناق والترك مادام هذا الامر لم يقع مع العرب اجناسهم فلو خطر فى بال فرنسا او ايطاليا ان تنصر العرب فى افريقية جبراً كما فعل البلغار مثلاً فهل يوجد مانع يمنع هذه الدول من ذلك غير الدولة العثمانية التركية افلا يرى الناس الى اعمال المبشرين البروتستانت فى مصر واهانتهم للدين الاسلامى وصاحبه علناً فى الشوارع مع ان مصر لايزال يقال انها عثمانية ولا تزال ملك الدولة العلية فكيف لوخرجت من ملك الدولة افلا ترون ان اهم شروط معاهدات الصلح بينها وبين ايطاليا هو حفظ الحرية الدينية الاسلامية والاوقاف ومع البلغار كان المحافظة على الجماعات الاسلامية فى بلاد البلغار وعلى اوقافهم ومساجدهم وتأمين حريتهم الدينية باوسع ما يتصور العقل وان الذى يؤخر عقد الصلح بينها وبين اليونان ماهوالاطمع اليونان فى اعتراض المسلمين الذين عندها فى امورهم الدينية بل محاولتها الاحتفاظ ببعض شؤون تخالف الوجه الشرعى وان ظن بعض سفهاء الاسلام كون الدولة العلية لا تقدر على حماية دين الاسلام لو تألبت اوربا عليه وان ترك اوربا للاسلام حريته الدينية هو من بعض مظاهر العدل الاوربى فهو وهم باطل فان اوربا تفهم انه مهما بلغ الضعف من المسلمين فاذا مدت يدها الى دينهم وعرضهم نهضوا نهضة رجل واحد واستماتوا لايلوون على شئ وجعلوا مستعمرات اوربا فى خطر الضياع وكان لهم من الدولة العثمانية رأس تنتظم به كلتهم وتتحد حركتهم فهى تهدأ عن هذا الامر مادامت الدولة العثمانية فى الوجود لأن قطع الاعضاء مع بقاء الرأس لايمنع وجودالجسم وحياته ولقد شهدنا ان رجلا كسيدى احمد الشريف السنوسى صفته مشيخة طريقة من طرق الاسلام قاوم دولة عظيمة ٣٦ شهراً ولا يزال يقاومها

ويوالى على جيوشها الهزائم وذلك بسبب كونه رأساً مطاعاً فى بلاده تجتمع عليه كلمة العرب هناك فكيف يكون شأن السلطان العثمانى اذا اشتد بالمسلمين الخناق والتفوا حوله لاجرم ان وجود الدولة هو الذى وقف بمظالم اوربا للاسلام عند هذا الحد فقط مترقبة زوال الدولة لاسمح الله لتأخذ فى المسلمين حريتها التامة وقد يعترض حزب المتمدنين المتهذبين والذين ليسوا نظيرنا من المتعصبين بأنه ماشأننا بالدين ودعوته وما ذا يهمنا من حفظه وعدمه ونحن دعاة مدنية لادعاة دين فنجاوبهم هل يسلمون بان دول اوربا دول مدنية ام لا فان كانوا ولا شك لايسلمون بكون دعوتها للمدنية فقط قلنا لهم هل اذا قامت الدولة العثمانية تحمل نصارى اقل قرية من قرى الشام على الاسلام قسراً تسكت اوربا عن هذا العمل ام تتوسط الامر بالنصيحة اولاً وان لم تنجح النصيحة فبالسيف ثانياً فاذا قالوا كلا لا تقبل اوربا ذلك اجبناهم ان المدنية لم ترفع الدين اذاً .

نعم ان وجود الدولة العثمانية هو الحافظ الوحيد للمسلمين فى المعمور كله دينهم وعرضهم واذا تأذن الله بزيالها لاقدر الله ذلك رفعت دول الاستعمار القرآن حالاً من ايدى المسلمين وحملتهم على النصرانية قسراً وانشأت لهم برنامجاً خاصاً للتعليم ينشأنشهم الجديد عليه حتى ينسوا معنى الاسلام بالكلية وتذهب منهم روح المقاومة وتأمن اوربا على مستعمراتها وتنتهى مصارعة الهلال للصليب بعد ان استمرت بضعة عشر قرناً هذا ما ستبادر اليه اوربا اذا زالت دولة ابن عثمان لا سمح الله وهذا ما تتوخاه كل دولة منها بمفردها وينوب المسلمين من كل دولة يومئذ ما نابهم فى الروملى من البلغار واليونان والصرب والجبل الاسود فى الكائنة الاخيرة التى لم يقع فى تاريخ الاسلام

ما يضاهيها سوى ثلاث مصائب الطامة الاولى الحرب الصليبية التى اخذ بها بيت المقدس واكثر الشام واصبح الحجاز تحت الخطر الثانية الحرب التاتارية التى خربت بها جميع بلاد المسلمين ماخلا مصر وافريقية وسقطت بها خلافة بغداد ا بقى بعدها الناس ثلاث سنين بدون خليفة الثالثة المصيبة الاندلسية التى زال بها ملك الاسلام فى تلك الجزيرة بعد ان استمر فيها نحو ٨٢٠ سنة وهذه الفادحة البلقانية هى الرابعة اذا كانت صدور الامور مؤذنات باعجازها فهذا ماستفعله اوربا فى ذلك اليوم لااراهاالله اياه ولاينكر ذلك الا من سفه نفسه وكذب حسه وكابر فى المحسوس وتناكر مطالع الشموس فان تحامل اوربا على الاسلام والدولة العثمانية قائمة والدول المتناظرة تتشطر اضرعهافى طلب المرفق وينافس بعضها بعضاً عليه هوماتراه وماتحسه فى كل نبأة فماظنك به وقد فقدالاسلام حاميه وراعيه واصبح ابناؤه هملاً وانقلبوا لغيرهم خولاً والعياذبالله هل تنفعنا يومئذ اللجنة العلياالحزب اللامركزية فى كشف تلك الغمة ام نلجأ الى عمون وزينيه وغانم ونجار وخيرالله ومن شاكلهم مناشدين اياهم باللحمة العربية العزيزة عليهم ان يشفعوالنا لدى دول اوربا بمالهم من دالة اللحمة الدينية معها فى الكف عنا والرفق بناواعطائنا حريتنا والمحافظة على عقائدنا وعاداتنا

لااظن نصارى العرب وحدهم عاجزين عن ادراك تلك الغاية بل لو توسط الامر حضرة البابا نفسه ومن ورائه الكرادلة والبطاركة وصاروا وكلاء عنا ماسمعوا لهم كلاماً ولاصروا على اقتلاع جرثومة هذاالدين الذى يعلم ابناؤه اباء الضيم ومحبة الاستقلال نعم المسلمون سيقومون بحفظ دينهم وعرضهم وملكهم مهما بلغ منهم الضعف مادام سلاحهم بايديهم اواقامت دولة ابن عثمان من فوق رؤوسهم فلاتكف

اوربا عن ارهاقهم الا اذا قام لها وازع من نفسها كان يقوى الحزب الاشتراكى مثلاً قوة يقبض بها على زمام الامور ويتولى زعامة الجمهور وذلك لايزال بعيداً جداً اوكان تقع الحرب العامة فيما بينهم فيسكتون عن الاسلام موقتاً وبقدر مقدور

وبعد فان الرابطة الجنسية التى يطبل ويزمر بها اللامركزيون ويقولون هى حسبنا ولا حاجة بنا الى غيرها لايمكن ان تأتى بالفائدة مع العرب مهما تعب اللامركزيون فى بث هذه الدعوة لأن العرب بدواً وحضراً هم ابعدالناس عن الخضوع بعضهم لبعض والاجتماع على طاعة رئيس واحد منهم وانىا عهدناهم الان فىسورية بواديهم لاتنقطع عن اكل بعضها بعضاً وحواضرهم ملاى بالاحزاب والفرق حتى لوارادوا انتخاب مختار فى قرية لدخلت فى ذلك العصبيات ولم يتفقوا الا بأن توفق بينهم الحكومة ولهذا الطبع المتأصل فيهم من على عنق الدهر قال النعمان بن المنذر لكسرى ان العرب من انفتهم يكادون يكونون كلهم ملوكاً ولايطيع احدهم الآخر بخلاف الاعاجم التى اذا وجدت فيها بيتاً عظيماً اطبقت على طاعته ولم تسم الى منافسته ومن اجل هذا الخلق ايضاً كانوا لايجتمعون الا بدعوة دينية تأتى فوق القبايل والعمائر وتتأطى لها الرؤوس من الجميع حتى قال ابن خلدون اعظم فيلسوف اجتماعى وواضع فن حكمة التاريخ بدون مثال سابق وصاحب المقدمة التى لم يؤلف قبلها ولا بعدها مثلها انه محال اجتماع العرب الا على عصبية دينية

ولعمرى لابأس من تقوية الرابطة الجنسية العربية واحياء موات معارفها وتجديد ذكرى انسابها وعمارة صدور العرب بمعرفة أصولها التى تذكرها بوحدتها لكن بشرط ان لا يبتدأ فى ذلك بالنفور والتنفير

من الترك وبالقدح فى الدولة وهياج خواطر العرب عليها لاسيما فى هذه المآزق التى ينبغى ان يتناسى الناس فيها جميع الاحقاد ومع تتابع المحن التى من عادتها القضاء على الاحن فان الترك انفسهم الفوا جمعية سموها « ترك يوردى، » يقصدون بها احياء الجنسية التركية المنبثة فى شمالى آسية الى اقاصى الصين لكن بدون تحامل على العرب وبلا سعى فى كسر شوكتهم بل تراهم بالعكس يتمنون ان يتوفق كل من القبيلين الى ترقية عنصره بشرط ان تكون غايتهما صيانة هذه الدولة الوحيدة للاسلام وللشرق اجمع

وعدا ذلك فماهى الفائدة من ان نأذن الاتراك بحربنا ونحذرهم كيدنا ونجعلهم اعداءً لنا وهم بحسب زعمنا اصحاب البلاد والمستبدون بامورها من دوننا فان كانت حركتنا هذه هى لاجل التهويل عليهم والانتصاف منهم فاشرف منها وانجع واجمل فى الاحدوثة وانفع ان نطالبهم بحقوقنا الضائعة عندهم ضمن الدائرة العثمانية وبدون مراجعة دولة من دول اوربا وبان نتداعى من جميع بلاد العرب ونعقد اجتماعاً فى نفس دارالخلافة ونقدم مطالبنا بعدالدرس والتمحيص والتأمل فى الظروف والاسباب الى الباب العالى الذىهو مرجعنا جميعاً فان الدولة مهما بلغ من ضعفها واضطرارها الى المداراة وارضاء المتعنتين واعتاب المتجنين فانها كانت تهاب من جانب العرب المجتمعين من كل فج فى دارالخلافة بطلب الاصلاح والنصفة اكثر مماتهاب من حركة بعض شبان جاءوا من بيروت وبعض جهات من الشام ومن جبل لبنان الى باريز واخذوا يتكلمون باسم العرب وعقدوا مجمعاً سموه مؤتمراً وليس من العرب امير مطاع ولاسيد فى عشيرة ولا زعيم يلقى اليه بالمقاليد فوض اليهم حق الكلام عنه اوعنقومه فهذه اشراف مكة وهذا الامام

يحيى وهذا ابن سعود وهذا ابن رشيد وهؤلاء زعماء بوادي الشام والعراق واعيان حواضرهم وامراء عشائرهم ومنهم اهل السنان والعنان لايعلمون شيئاً من خطب هذا المؤتمر الذي سموه بالعربي وهؤلاء علماء الامة العربية واهل الفتيا فيها لم يجوزوا شيئاً من اعماله ولذلك تصدى اكثر سراة الامة واعيانها لتكذيبهم في النيابة عن العرب والتكلم باسم الامة وقال بعضهم انهم لا يملكون حق الكلام الا عن اشخاصهم وسكت اناس عنهم لاارتياحاً لعملهم بل حباً بالسكون والتسكين فقط واكبر الجميع عقدهم هذا الاجتماع في عاصمة اجنبية ومراجعتهم وزارات خارجيات اوربا في مسئلة عثمانية صرفة لامدخل للاجنبي فيها مما دل على سوء النية عدا مادار حول هذه المسئلة من الكلام على المبالغ السرية التى انفقتها في هذا السبيل بعض الدول مما نمسك عن الخوض فيه حفظاً لكرامة بعض اعضاء ذلك المؤتمر الذين نجلهم عن هذه التهمة كما انا نمسك عن الخوض في حديث مشروع الاصفر الشهير الذي دخل فيه بموجب مقاولة بعض اصحاب الجرائد في سورية ثم شاع الخبر وتساءل الناس عن كيفية هذه المقاولة السرية واخبرهم بعض من اطلع عليها بما تضمنته من بيع مرافق الوطن وقامت القيامة على اولئك الوطنيين الذين اتخذوا الوطن آلةً لدريهمات يكسبونها وبقي الحديث في هذه المسئلة الى ان وقعت حرب طرابلس فادهشت الخلق عن مشروع الاصفر وغيره ولم يكف اهالي سورية وفلسطين عنهم الا بمصيبة عامة تلهي الام عن ولدها وما كفاهم ذلك حتى في السنة التالية قاموا بمشروع اعظم وافظع وهو طلب الاصلاحات على قاعدة اللامركزية والسعي في انفصال العرب عن الترك والنداء الى ذلك من باريز وايام وجود البلقانيين على ابواب دار الخلافة

كانت هذه الحركة عبارة عن استعداد في نفوس كثيرين من ابناء

الوطن السورى من ناقم ومضطغن وكاره وطامع ورائد لاجنبى يرجو بالانفصال تمهيد السبيل للاحتلال الى غير ذلك وكانت قوة الدولة تخفى هذه الحزازات الحاكة فى الصدور وهؤلاء القوم يتناجون بما يتمنونه سراً ويتوقعون لابرازه الى حيز الفعل فرصة فلما دارت الدائرة على الجيش العثمانى فى الروملى وضعف شأن الدولة داخلاً وخارجاً واصبح موقعها لا يساعدها على الشدة مع رعاياها اسرع هؤلاء الذين فى نفوسهم تلك الاشياء الى انتهاز هذه الفرصة وقالوا هذه هى الفرصة الوحيدة لنيل امانينا فمن اعجز العجز وافظع التفريط ان نضيعها

واول ظهور هذه الحركة كان فى بيروت وكذلك فى القاهرة بواسطة بعض السوريين المقيمين بمصر فاما فى بيروت فكانوا يقولون ان الدولة افلست من كل شئ ولم يبق فيها ادنى امل وايقنوا بدنو اجل سورية وجاءت بعض الصحف الفرنسية التى يستطيرها اقل شئ فاخذت تحوم حول الموضوع وكتبت أن فرنسا لها من المرافق فى الروملى ماسيضيع بعد ذهابه من يد الدولة فالعدل يقضى بالتعويض عليها من جهة سورية وزعم بعضها ان انكلترة اعترفت لفرنسا بمركز مخصوص فى سورية وكان الاسطول الفرانساوى ايضاً واقفاً فى مرسى بيروت كما هى العادة اذا حصلت حروب فى الشرق بان كل دولة ترسل الى بحر الشام بعض اساطيلها واخذ رواد الاجانب وسماسرة بيع الاوطان يتكلمون فى موضوع تقسيم المملكة العثمانية ومن الامور المعلومة ان الدولة عند الاهالى الذين فى تلك البقعة هى مكروهة وهى قوية عزيزة فكيف اذا كانت مغلوبة ضعيفة فظن اهل بيروت ان قد قضى الامر ولم يبق بينهم وبين الاحتلال الفرنساوى الا قيد شبر وانقسموا الى قسمين قسم منهم وهم المسلمون وبعض افراد من النصارى يرجحون انكلترة والمسلمون يلتمسون الحاق سورية بمصر

اذ بذلك تسعد احوالها وتروج تجارتها وتكون فى حرز حريز من المهاجمات والحروب التى تتعطل بها الاشغال وتقف حركة التجارة ويكون الحكم الاجنبي اخف وطأة بظهوره فى شكل حكومة اسلامية ولو على الاعين بخلاف مالوجاءت فرنسا واستولت رأساً فتكون المصيبة اعظم واما النصارى فرجحوا فرنسا على انكلترة وصار كل من الفريقين يتطلع الى سير الحوادث ويتذرع بالاسباب الموصلة الى غرضه وقيل ان بعض المسلمين قدموا سراً عرضحال الى قنصل انكلترة فى بيروت واما العقلاء فانهم وقفوا عن كل حركة مترقبين نتائج الحرب وعارفين ان الامر ليس من السهولة بالدرجة التى توهموها وان وراء هذا التقسيم وهذا النزول بالشام اهوالا ً ولما كان فى نفوس الفريقين اشياء كثيرة من الدولة ومن طرز الادارة منه ماهو بحق ومنه ماهو بغير حق وكانت القوة فى الماضى مانعة من اظهاره فقد تمكنوا من اظهار مافى ضمائرهم فى فرصة ضعف الدولة بالحرب البلقانية وهبوا للمطالبة بالاستقلال الداخلى تحت عنوان الاصلاح والحقيقة ان الاصلاح هو غير الاستقلال الداخلى ويكون كل منهما بدون الآخر لكن بعض القائمين لايهمهم الاصلاح بقدر مايهمهم فصل سورية عن الاتراك وهذا هو غرضهم الاصلى وآخرون ظنوا الاصلاح لايتم الا اذا صارت الادارة منفصلة عن الباب العالى وكل من الفريقين اتفقوا على انه لا امل اصلاً فى الشرقيين اتراكاً كانوا اوعرباً فلابد من تسليم هذه الاصلاحات الى مفتشين اجانب يتولون انفاذها وانعقدت الخناصر على ان سيطرة الاجنبي هى السعادة بعينها والحياة الطيبة بحذافيرها واننا نحن قوم اشبه بالقاصرين ينبغى لنا اوصياء من الاجانب يتولون تربيتنا الى ان نكون بلغنا رشدنا فنتسلم حينئذٍ اموالنا

فاما العصابة التى فى القاهره فليس لها من الامر شئ بسورية وجل مافى يدها النشر فى الجرائد والمكاتبة الى الجهات فاخذت تراسل اهل بيروت وغيرهم فلم يخرج الى العمل سوى هؤلاء لأن كثرة الاجانب فى بيروت ومجاورتها جبل لبنان جعلت لاهل بيروت على الحكومة دالة مخصوصة وصارت المراسلة بين الفريقين واتفقا على ان هذه هى الفرصة الوحيدة للطلب والثلمة الفردة لرجاء النفوذ وانه اذا انعقد الصلح ذهبت الفرصة فيجب القيام بالمطالبة فى اثناء الحرب والمصائب والنوائب وترك سياسة العواطف والحياء وعدم الذهاب مع عامل الحنو الذى يقضى بامهال الدولة ريثما تنفض عن نفسها غبرة الموت ولما رأى الذين فى القاهرة ان فى بيروت من يخرج من النظر الى العمل وانه ربما اقتفى بيروت مدن اخرى اسرعوا بتأليف لجنة سموها « اللجنة العليا لحزب اللامركزية » وجعلوها مركبة من بعض ادباء السوريين وفضلائهم وكتابهم من مسلمين ومسيحين وافهموا اهالى بيروت القائمين بالحركة ان ماهم فيه اسمه اللامركزية الادارية وحاولوا ان يلقوا عليهم دروساً الا ان البيروتيين لم يتقيدوا بآرائهم من حيث التفاصيل وان وافقوهم فى الجملة ومضوا فى عملهم وهيأوا لجنة للنظر فى وجوه الاصلاح المطلوبة وبعد مناقشات طويلة قدموها الى الوالى يومئذ ادهم بك والوالى كان يساعدهم اويوهم انه يساعدهم حذراً من ان يشاغبوا الدولة فى اثناء الحرب فلما رفع الوالى مطالبهم الى الباب العالى اجاب كامل باشا الصدر الاعظم ان فى نية الدولة انفاذ الاصلاحات فى جميع الولايات لا فى بيروت فقط ولكن لابد لمباشرة العمل من تصديق مجلس الامة وهذا يكون بعد عقد الصلح وقابل كامل باشا يومئذ بعض السوريين فى الاستانة فالتمسوا منه تلبية ما يمكن من المطالب الاصلاحية وكنا نحن

ايضاً ممن طالبوه بابناء العرب مطالبهم فاجاب بان الدولة تريد ادخال
اصلاحات عديدة لكن هذا التهور الذى فيه بعض اهل بيروت هو مما
لاترضاه الدولة هذا كلام كامل باشا الذى يتخذه اللامركزيون الآن
اماماً ويستشهدون بكلامه وحقاً قدكان التهور بحيث ارادوا اشتراط
وضع الاصلاحات تحت مراقبة السفراء ولم يبالوا بكون ذلك يفضى الى
فقد الاستقلال الذى هواساس كل شئ لاجل حياة امة واغرب من هذا
انهم لم ينظروا الى جيرانهم اهل جبل لبنان وماهم عليه من العبودية
للقنصليات فى بيروت مماقد اثر فى اخلاقهم واوضاعهم وجعل جميع
العقلاء وذوى الشهامة فى لبنان يتألمون من هذا الحال بل انهم مالوا
باجمعهم الى تسليم ازمة امورهم الى مراقبين اجانب وبعد ان كانوا
صمموا على تفويض مسئلة الاصلاحات الى سفراء الدول بالاستانة وجد
من نصح لهم بالعدول عن هذه الجناية وذكرهم مايترتب عليها من
الفجائع فى المستقبل وان الباب العالى مهما بلغ من الضعف واكتنفته
المشاكل فلا يمكن ان يقبل هذا الاقتراح بوجه من الوجوه فوقفوا
عن هذا الطلب ولكنهم أشربوا الاجانب فى قلوبهم فاقترحوا جعل
مسيطرين على الولاية ممن خصهم الله تعالى بنعمة لبس القبعة جزماً بان
لااصلاح بدون ذلك وحيث ان بعضهم فكر فى استحالة قبول الدولة
سيطرة الاجانب الرسمية وكان لايرى مندوحة من اطلاق ايديهم فى
الاعمال ويزعم ان استخدامهم بصفة اجراء خاضعين لارادة الحكومة لا
يأتى بنتيجة وانه لن تكون ثمرة للادارة المرؤوسة بالاجنبى الا اذا كان
فيها حراً مطلق التصرف لجأوا الى طريقة اخرى جمعوا فيها بين الامرين
وهى اطلاق يد المستشار الاجنبى فى العمل وعدم وضع البلاد تحت سيطرة
اوربية رسمية وذلك بعقد مقاولة مع المستشارين الاجانب بتولى هذا

الامر الى مدة خمس عشرة سنة لا ينازعهم فى اثنائها منازع ولا يعارضهم معارض وجعلوا للمستشارين الاجانب الحق فى عزل اعضاء المجلس العمومى اى انهم سلطوهم ايضاً على انفسهم ولم يبالوا بما يمكن ان يقع مع المستشار الاجنبى من المداخلات من بعض ابناء الوطن وما يحدث ذلك من الاضطراب فى حبل الادارة وما يجوز ان يكون ذلك الاجنبي بعيداً عن العصمة التى توهموها فيه ويبقى التخلص منه صعباً ولم ينظروا الى من حواليهم من الاجانب ومن يليهم من التراجمة وماذاهناك من الامور المفتتة للاكباد التى لايدريها الا من بلاها واصطلى لظاها بل وضعوا نصب اعينهم قضية واحدة وهى ان الشرقيين عرباً او تركاً اوعجماً لايصلحون للادارة ولاصلاح للادارة الا بالمصلح الاجنبى على شرط ان يكون حراً مطلق اليد فى التصرف ولما كان يتعذر فى الوقت الحاضر اعطاء هذا المصلح سلطة رسمية من قبل اوربا لعدم اتفاق دول اوربا على هذا الامر الذى لابدله من تقسيم المملكة العثمانية وكان الباب العالى يرفض ولايزال يرفض هذه السيطرة الرسمية مادامت هذه الدولة قائمة فان الجمعية الاصلاحية فى بيروت قررت الاكتفاء الآن بمصلحين اوربيين تنعقد معهم مقاولات الى بضع عشرة سنة لايزعجون اثناءها فى شئ ونظموا لائحة قدموها الى الباب العالى بمطالب وانظمة عديدة وانذروا الباب العالى بان يجيبهم اليها حالاً وبدون تردد وكان كلامهم الدائر فيما بينهم وفى جرائدهم انهم هم يطلبون الاصلاح على اى شكل كان وباية واسطة كانت فان لم يأتهم الاصلاح من طريق الباب العالى اضطروا ان يطرقوه من جهة الاجانب وتكلموا كثيراً فى هذا المعنى وليس من غرضنا هنا ان نذكر كل ما قالوه ولا أن نسرد اللائحة التى قدموها ولكن كما كانت فيها اشياء كثيرة لاخلاف فيما بين العثمانيين

ولاخوف منها على مستقبل فان فيها اشياء بعيدة جداً عن الصواب مجحفة بحقوق العثمانيين عامة والمسلمين منهم خاصة نظير جعل نصف اعضاء المجلس العمومى مسلمين والنصف الآخر مسيحيين وجعل عضو اسرائيلى اذا انضم الى المسيحيين زاد فريقهم على النصف ولم نعلم بناءً على اى قاعدة ارتضت هذه الجمعية ان تجعل كل خمسة مسلمين بمسيحى واحد ولا بناءً على اى تفويض من المسلمين جازلها ان تبيع حقوقهم فانه مامن مسلم يحب الحق ويسعى لمصلحة بلاده يجادل فى وجوب اعطاء النصفة التامة للمسيحيين والاقساط التام بينهم وبين المسلمين وتمكين عرى الاخاء بين الفريقين وتحرى العدل الذى هو اساس العمران وتوخى المساواة المطلقة بين جميع الطوائف فاما اشتراط مشاطرة المسيحيين للمسلمين بالنصف فى المجلس العمومى مع كون المسيحيين هم اقل من الربع فى مجموع سكان ولاية بيروت بل هم نحو ١٨ من المائة فذلك لا ينطبق على عدل ولا على مساواة وليس من شأنه ان يزيد الالفة ولا أن يزيل الوحشة التى لا تزول الا بالانصاف ولا نظن عقلاء المسيحيين يرون ذلك الاجحاف بابناء وطنهم ضربة لازب لاتمام الاصلاح وعلى فرض ان مسلمى الجمعية الاصلاحية ارادوا ان ينزلوا عن حقوقهم وحقوق من يلف لفهم من الاهالى فبأى سلطان وهبوا حقوق غيرهم ممن ليس تابعاً لهم ولا قائلاً بقولهم فان مسلمى بيروت انفسهم لا يقبلون جميعاً هذا الحكم وما يرضاه الا النزر اليسير من عامتهم واما مسلمو الالوية التابعة لبيروت كعكا ونابلس واللاذقية وطرابلس فانهم فضلاً عن كونهم لاينزلون عن حقوقهم فانهم لا يعلمون اهالى بيروت اوصياء عليهم يتصرفون بشؤونهم العامة كيف يشاءون وهناك طوائف اسلامية ثانية تعتدها الدولة دائماً من جملة الفرق

الاسلامية المندمجة فى مجموع الامة كالمسلمين الشيعة وكالدروز وكالاسماعيلية وكالنصيرية وكل من هذه الفرق موجود منه قسم كبير فى ولاية بيروت بل الشيعة هم العنصر الغالب فى ملحقات مركز الولاية وعليهم المعول فى انتخاب مبعوثى بيروت والنصيرية هم العنصر الغالب فى لواء اللاذقية فهؤلاء لايتركون ايضاً الحقوق الثابتة لهم على نسبة عددهم ولايفوضون امورهم الى فرقة من مسلمى بيروت ولا الى غيرهم وقد كان جواب من قرروا هذا القرار بانهم اعطوا المسيحيين النصف نفياً للتعصب الذميم الذى يريدون ازالته من بين الطوائف مع انهم بهذا لم يزيلوا شيئاً من التعصب بل خلقوا له بعدم الانصاف اسباباً جديدة وفتحوا ابواباً كانت مسدودة وكان عليهم لوشاءوا ترك الكلام فى الطوائف والمذاهب ان لا يشترطوا انتخاب عدد معين من هذه الطائفة او من تلك الطائفة بل وجب ان يتركوا الانتخاب شائعاً بين الجميع موقوفاً على الكفاية والاستعداد بحيث لو انتخب الاهالى ثلثى المجلس من المسيحيين بدون ان يكون ذلك عليهم حقاً واجباً لما اعترض احد وحينئذ كان يمكن ان يقال حقاً قد ارتفع التعصب وصار النظر الى من فيه الاهلية والمصلحة الوطنية ويا ترى لو كان المسيحيون هم العنصر الاغلب فى الولاية فهل كانوا يرضون بالنزول عن حقوق الاكثرية وهل هم راضون الآن فى جبل لبنان الذى هو بجوار بيروت وامام اعين اهل بيروت بأن يكون للطوائف الاسلامية التى فيه نصف اعضاء مجلس الادارة كما هو للمسيحيين وهل هم ناظرون فى انتخاب الاعضاء الى الاهلية والكفاية ام الى ميل الطوائف فى لبنان فان كان الجواب على كل هذا سلباً فلماذا يرضخ بعض مسلمى بيروت من حقوق الاسلام بدون ادنى مسوغ ولماذا يجدحون من سويق غيرهم ولقد سمعنا لهم جواباً آخر وهو

انهم اقتفوا فى ذلك أثر الدولة نفسها التى ساوت بين المسلمين وبين المسيحيين وانها فى المحاكم تأمر دائماً بأن يكون (نصفى مسلم ونصفى غير مسلم) الى غير ذلك وهى فى الحقيقة مأثرة من مآثر حلم الدولة العثمانية ورفقها بالطوائف الضعيفة فى بلادها مع عدم رفق الدول الاوربية بالمسلمين الذين يقعون تحت سلطتهم وهى مع ذلك لا تمل الرفق ولا تسأم من النصفة فى بلادها مع مشاهدتها الظلم والهضم لابناء دينها فى غير بلادها وليس منا من يزهد الدولة فى هذا المنزع العالى من كرم الاخلاق ولا من يرغب بها عن اعطاء الضعيف اكثر من ماله من الحق تقويةً له وتمكينا وانك لترى لواء نابلس فيه ١٦٠ الف مسلم و ٢٥٠٠ مسيحى وتجد الاعضاء المنتخبة فى مجلس الادارة هناك ثلاثة من المسلمين واثنين من النصارى اى بزيادة واحد فقط للاسلام مع انه لوروعى العدد لما امكن ان يخرج للنصارى عضو فى مثل هذا اللواء واغرب من ذلك ان قضاء طبرية مثلاً فيه بضعة عشر الفاً من المسلمين وكذلك من اليهود ونحو ١٠٠ مسيحى منهم ١٠ روم ارثوذكس والباقون كاثوليك وللمسيحيين عضوان احدهما بمجلس الادارة والآخر فى المحكمة وقد تكون النوبة للارثوذكس فيكون لهم عضو نائب عن اولئك العشرة الاشخاص لا غير واذا استقرأت ولايات الدولة شرقها وغربها وجدت من هذه النظائر مالا يدخل تحت حصر فلا نتعرض اله هذا الموضوع الامن قبيل الايماء ولكن الدولة فى هذا لم تقصد الا تأمين حق الضعيف مع كونها هى المهيمنة على حقوق المسلمين اذا خيف عليها الاهتضام فعلاً ومع كون امر الادارة المركزية منوطاً بالباب العالى وحده الذى هو ديوان الخلافة فاما اذا صارت فى الولايات الادارة اللامركزية فقد انتقلت الادارة من المركز الاعلى الى مركز الولاية

ومن الحكومة الى اعيان الولاية وصار المجلس العمومى هو الآمر الناهى وقام هو مقام الحكومة فاصبح اعطاء حق النصف لمن ليس نصفاً ليس فيه شئ من النصفة فالمسئلة لا تقبل القياس ومن الغريب ان هؤلاء الجماعة لم يكن يعجبهم شئ من مناحى الدولة فلما وصلوا الى هذه القضية زعموا انهم انما يقتفون اثرها ولا يحيدون عن طريقها ولكنهم اخطأوا القياس فالمجلس العمومى هو لا ينظر بغيره لاسيما بعد تصورهم وضعه تحت مراقبة المفتشين الاجانب ومما كانوا يطالبون به عدم استخدام العسكر فى غير اوطانهم الا فى زمن الحرب وقد قيل لهم فى ذلك فاصروا على طلبهم فقيل لهم ان ولاية الحجاز لا تعطى الدولة عسكراً فبأى عسكر تحافظ الدولة على الحرمين الشريفين وتؤمن طرق الحجاج ان لم يكن بالعسكر الآتى من الولايات الاخرى. فلم يحك هذا الكلام فيهم ولم ينظروا فى صيانة الحوزة وبلغ من بعض العامة التهور ان ظنوا ان اللامركزية تكون سبباً للاعفاء من الخدمة العسكرية بتاتاً فقال لهم بعض اعيانهم فمن يدافع اذاً عن هذا الملك ومن يصون ذماركم ان انتبذت كل ولاية ناحية وقالت لا نعرف الا الوطن الخاص لا جرم ان الوطن الخاص ايضاً يذهب فى ضمن الوطن العام اذا بقى هذا بدون حامية فكان ذلك لا يهمهم واذا عاتبتهم من هذه الوجهة قالوا لم نقل فليكن لنا جيش قائم بذاته منفصل عن سائر الجيش العثمانى وانما قلنا لا يحمل العسكر على الخدمة فى غير ولايتهم الا فى وقت الحرب ولقد رضيت الدولة اخيراً باستخدام العسكرى فى منطقة وطنه لكن بعد اجراء قانون اخذ العسكر الجديد الذى ليس فيه استثناء احد ولعمرى لو كانت التربية الوطنية والمعرفة بالواجب هما كما هما فى النمسا والمجر اوفى ممالك المانيا مثلاً لما كان ثمة محل للاعتراض اذ ينهض الاهالى من تلقاء

انفسهم ويطيرون الى الثغور زرافات ووحداناً للدفاع عن الوطن لا فرق عندهم بين ان يكون ذلك فرضاً عليهم او تنفلاً فاما والمعارف عندنا لا تزال قاصرة والوطنية اسم بلا مسمى والقلوب شتى والافكار متسممة واليأس مستحكم الحلقات والعناصر لا يهادن بعضها بعضاً فلا يرجى اذا امتازت الولايات العربية بالخدمة العسكرية كما تريد ان تنهض لاداء واجبها العسكري في ايام الحرب ايضاً وكيف ترى اذا كانت الدولة تستنفر احدى هذه الولايات للحرب مع أجنبي رواده مالئة الولاية واموالة متسربة الى الجيوب من الشمائل والجنوب وانصاره في نفس الولاية يحصون بالالوف لا مرية في ان الدولة تصير يومئذٍ بازاء حربين لا حربٍ واحدة احداها مع ذلك الاجنبي والاخرى مع الاهالي انفسهم او مع قسم منهم ممن تشبعوا بافكار الانفصال عن الدولة وقرأ عليهم اولئك السماسرة تلك الرقى والشعوذات وحكوا لهم قصة ان الوطن اليوم قائم بالنزعة الجنسية فلا مجانسة بيننا وبين الاتراك تحدونا على القتال معهم صفاً ولا يزالون بهم حتى اذا هوى هذا الوطن التاعس الجد في هاوية السلطة الاجنبية وقالوا لهم اين نعراتكم للجنس العربي ونبراتكم في وحدة كلمة ابناء يعرب على من قصد بلادهم بسوء او طمع في الاستيلاء عليهم قالوا قضي الامر ليأخذ بعضكم بيد بعض الى قبول هذه السلطة ولا تطمعوا مع ابناء اوربا بما كنتم تطمعون فيه مع الترك فليس الامر متشابهاً وربما هزأ بهم من هزأ قائلاً نحن خدعناهم سعياً الى غاية هي غايتنا من قبل فكان عليهم ان لا يخدعوا وربما كان بعض النافخين في بوق الانفصال غير منافقين بل معتقدين في الوطن الكفاية للاستقلال فاذا ادت هذه القلاقل والهزاهز الى سقوطه واستيلاء دولة اوربية عليه لا يكون مغتبطاً بها ولا سعيداً ولكن ماذا يفيد الندم اذا زلت القدم

وماذا يغنينا يومئذ صدق قائم فى قيامه بعد نفوذ سهامه ونحن نعلم ماعندنا من افتراق كلمة المسلمين من جانب وافتراق المسيحيين انفسهم من جانب آخر ومن تشتت القلوب وتضارب النيات ومن قوة الافرنجة فى بلادنا وضعفنا معهم وكونهم يقدرون ان يستظهروا علينا بانفسنا وباخواننا وباعز الناس لدينا ولا يفوتهم منا مطلب وليس عندنا سنوسى تجتمع عليه كلمتنا وتخلص له طاعتنا بل كلنا سنوسى وكلنا قائد وكلنا رئيس وليس منا رئيس يقر لآخر بامامة ولا زعامة وماضم شملنا الى يومنا هذا الا الحكومة العثمانية معما هى فيه فاذا تركتنا وشأننا تفرقنا طرائق بدداً وصرنا حزائق قدداً

واما تخويل المجلس العمومى فى الولاية تلك الحقوق والاختصاصات التى تكاد تكون هى الحكومة باسرها فكل عاقل يقر بأنه على الحالة الحاضرة امر هو فوق الطاقة ودون المصلحة ولذلك وضع مصلحو بيروت المجلس العمومى تحت سيطرة المستشارين الاجانب اقراراً صريحاً بكون البلاد لم تستعد الى الآن لمثل هذه الدرجة ولم تتوفر فيها الكفاية لادارة الامور العامة فاما اللجنة اللامركزية العليا فى مصر فاذا كانت هى العليا وكل اللجان من دونها وكان فيها اساطين الحكمة وفحول الادارة وقروم المعرفة فقد انتقدت تسليط اهل بيروت المفتشين الاجانب على انفسهم وصرح الشيخ رشيد رضا فى مقالة مشبعة بكون اهالى بيروت حسبوا ان المفتشين الاجانب هم الخلفاء الراشدون مع انه ينبغى ان يعلموا علم اليقين انه لم يوجد سياسى واحد فى اوربا رضى بأن تجرى المساواة بين الاوربيين والشرقيين بل عندهم ان جميع الشرقيين لا يساوون صعلوكاً اوربياً هذا هو اقرار الشيخ رشيد رضا بعينه ومينه

ومن هنا يظهر ان برنامج اللجنة « العليا » زادالله علوها فى مصر لم يكن برنامج الجمعية الاصلاحية فى بيروت وان كلاً منهما انفردت

بخواطر و افكار عن الاخرى ولكنهما كانتا متفقتين فى وجه الحكومة المركزية وكانت لجنة « السبلاندبار » هذه التى بمصر تحكك بلجنة بيروت لتعظيم شأن حركتها و اكتساب الاسم والسمعة بها لكون هذه الحركة لم تخرج من الكلام الى الفعل الا فى بيروت وفى مدينة بيروت ومن الغريب ان الباب العالى نفسه ندب اهالى سائر البلاد العربية لبيان مطالبهم وكان ذلك فى اواخر وزارة كامل باشا فبعض الولايات اجاب انهم لا يفتحون هذا الباب فى اثناء الحرب ولا يقدرون ان يفتكروا فى شئ قبل عقد الصلح الذى هو الشرط الاول لامكان الاصلاح وان بعض الولايات نظير الشام اجتمع اعيانها و قرروا مطالب متباعدة جداً عن مطالب بيروت وقد بذل دعاة اللامركزية اقصى جهدهم فى تحريك اهالى دمشق للمطالبة بمثل اقتراحات هذا الفريق من اهل بيروت فكان ذلك سهما فى الهواء وكتابة على صفحات الماء ولم يتبع وساوسهم الا افراد قلائل من دمشق وحمص لا يرجح بهم ميزان الولاية ولا يقدرون على الاستقلال بعمل عمومى و كذلك مدوا الصريخ الى حلب الشهباء فلم يسمعوا لهم نداء ولا انتطح فيها عنزان وقد حاولوا ان يثيروا ثائر فلسطين وكتبوا من يعلمونه نافقاً من اهلها فلباهم شذاذ مثل حافظ بك السعيد فى يافا وغيره لكنهم فى قلة بالقياس الى انصار الحكومة فلهذا لم يمكنهم ايضاً احداث حدث فى القدس الشريف ولا عقد لجان خاصة فعادوا يبثون الدسائس فى جزيرة العرب مشاغلة للدولة وزيادة فى خطوبها غير ناظرين الى خناق الدولة بالحرب الطاحنة التى استهدفت لها لاجل الاسلام والاوطان وغير عاطفين ان لم يكن على عساكر الترك فعلى عشرات الوف من عساكر سورية يتساقون كؤوس المنايا بين شتطالجه وبولايير وغير متذكرين ان الشغب والتحريك فى البلاد العربية

هما مما يزيد قوة الاعداء المعنوية ويجرئهم على مهاجمتنا ويجعل لاوربا
سبيلاً علينا فى ايجاب الرضى باى صلح تيسر وانا بهذه الدسائس نكون
كمن ذبح ولده بيده وغير راقبين فى دولتهم ولا فى وطنهم الاً ولا ذمةً
فتراهم ابداً يدسون الى الادريسى فى عسير ان لا يرضى ولا يصالح
ولا يأمن غدر الترك وكلما نامت الفتنة ايقظوها وتهللت وجوههم باخبار
تجددها مع انه سفك دماء الاخوان المذخورة لفداء الاوطان وتراهم
ناقمين على الامام يحيي أئتلافه مع الدولة ووضعه حداً لهاتيك الفتنة
الصماء فى اليمن ولا يبعد ان يكونوا هم الذين زينوا لابن سعود ان
ينتهز فرصة الحرب البلقانية وخطب ادرنه ويهجم على الاحساء ويأخذ
لواء نجد ولا يبعد ان يكونوا الآن ناقمين عليه اتفاقه مع الدولة وتسميته
والياً وقائداً على ولاية نجد من قبل السلطان ولا شبهة فى كونهم هم
الذين يغرون السيد طالب الرفاعى ابن نقيب اشراف البصرة بالخروج
على الحكومة ورفع لواء الثورة فان لم يكن فعل الى الآن فيكون اتئاداً
منه وحساباً للعواقب او وقوفاً عند خاطر ابيه وما فئ اولئك القساة
الذين لايخافون الله ولا يشفقون على عباد الله ولا يهمهم خراب بيوت
الخلق اذا ادى ذلك الى ادراك غايتهم يدسون دسائسهم فى البلاد
العربية من اقصاها الى اقصاها وينضم اليهم كل ناقم بسبب شخصى او
نزعة حزبية او نزعة شيطانية حتى تمكنوا من ايجاد مسئلة يقال لها
المسئلة العربية مع ان العرب لا يعرفونها ولو عرفوها للزم ان يقتفى
اثر اهل بيروت سائر مدن سورية بالفعل او على الاقل اهل دمشق
وحلب والقدس والحال انه لم يكن شئ من ذلك وان الجعجعة عظيمة
والطحن اقل من القليل واذا خرجت الحركة من الجرائد لم تكد
تحس لها ركزاً فلهذا اعتنى اولئك النفر ان يهولوا فى الصحف العربية

ماشآءوا يصوروا بلاد العرب بصورة أطمة منفتحة او حرجة مشتعلة واشاروا الى ارباب الصحف العربية فى سورية والصحف السورية فى مصر والصحف العربية باميركا ان يشعلوا النار من كل مكان واجازوا لهم الافتراء والاختراع فى سبيل الوصول الى الغاية فاندفعت هذه الجرائد اندفاعاً يعلمه كل من اطلع عليها او على بعضها وارسل بعضها عنان الاختلاق بقدر ما سمح له وجدانه وصارت الدولة العثمانية هى المقصودة بالعداوة لا البلغار ولا اليونان ولا الصرب ولم يبق لنا شغل فى ابان هذه الازمة الا تهيج العرب على الترك مع ان الازمة لم تخص الترك دون العرب بل هى مأتم الفريقين ونعش الجنازتين لا سمح الله واذا اصاب الترك شيء فلن نبيت نحن على فراش من حرير وقدكانت طلائع هذه الحركات بدت كما اسبقنا فى وزارة كامل باشا وهو نفسه افهم اهل بيروت استحالة اجراء مطالبهم قبل التئام مجلس الامة ففى تلك الاثناء صارت مسئلة ادرنه وهجم الاتحاديون على الباب العالى فحاول حجاب الصدر معارضتهم بالقوة فتبادلوا الرمى بالرصاص وقتل من الفريقين اناس ووقع فى هيعة ذلك ناظم باشا صريعاً واستقالت وزارة كامل وجاءت وزارة محمود شوكت باشا فهناك قامت القيامة وانضاف الى بغضاء الترك بغضاء الاتحاديين ترك الترك والسد الحائل دون تفكيك اوصال الملك وكأنك ذررت على الجرح ملحاً وكأنك صببت على النار زيتاً وصار ناظم باشا مع كونه باتفاق الآراء مسؤولاً عن اكثر مصائب الروملى هو الفقيد الاعز والبطل الاكبر الذى انهد به ركن الدولة وهوى نجم سعدها وامسى عفا الله عنه قد ناحت عليه نوادب اللامركزيين والائتلافيين بدموع غزار ولطموا خدودهم من اجل مصرعه حتى اذا جاء غريب وشاهد حال

هذه الفئة بعد تلك الواقعة ولم يكن عنده تفصيل اخبار الحرب البلقانية ذهب به الظن الى اعتقاد الدولة بحسن تدبير ذلك القائد الاعظم قد طحنت جيوش الدول الاربع المحاربات ودخل الجيش العثماني عواصمهن وان الاتحاديين حسداً له و بغضاً جاءوا فقتلوا به عمداً مع ان قتله وقع بدون عمد بل في اثناء الترامي. وقد ساء كل انسان مع كل ما سبق من خطيئاته لأن سفك الدماء مذموم بكل الاحوال ولكن هؤلاء الجماعة من شدة تغلب هواهم على عقولهم جعلوا مصرع ناظم كمقتل الحسين بن علي رضي الله عنه او كمقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو الذي اتخذه بنو امية وسيلة للمنازعة على الخلافة وسلماً للارتقاء ومن العجيب انهم كانوا يتميزون غيظاً من تصدر محمود شوكت باشا في الباب العالي ومازالوا ناقمين على الدولة وزارته حتى مضى لسبيله رحمه الله شهيد حميته على وطنه وضحية صفاء سريرته فكان قتله عندهم عيداً مع كونه معدوداً من العرب ومولده ومنشأوه بغداد وسلفه في مدينة السلام منذ ١٥٠ سنة على حشمة وسراوة كما يشهد بذلك كل العراق فلا يعرف الناس محمود شوكت الاعربياً وهم يدعون الحمية على العرب والعربية وعلى فرض ان اصله تركي اوكرجي فالمرء من حيث يثبت لامن حيث ينبت ولعله عربي اكثر من كثيرين من القائمين بدعوة اللامركزية والعربية ممن لايعرف لهم الناس في العرب قديماً ثابتاً ولاجديداً نابتاً وقداصموا الآذان بصراخهم في شأن العرب ولو كان ناظم باشا عربياً او فيه اقل عرق من العربية لقالوا ان الاتراك قتلوه بغضاً بالعرب ولم يطيقوا ان يروا منا ناظراً للحربية وكانوا اشعلوا نار الثورة واغرب من شدة غضبهم لقتل ناظم باشا الذي ليس فيه مسوغ للغضب واعجب من شدة حزنهم على المصاب به (ولو كان رصيفه جمال الدين افندي شيخ الاسلام السابق

يقول انه مسؤول امام الله عن اكثر المصائب التى وقعت على الجيش العثمانى وانه مستحق للقتل) ما كان يظهر منهم من الغيظ والتحرق على انور بك الذى يندر ان يوجد مثله فى شبان الدنيا باسرها فى عقله وحزمه وذكائه ومضائه وشرف نفسه فاذا سألتهم عن سبب هذا المقت لبطل نظير انور قدرت قدره اوربا بجميع اصنافها اجابوك افلم يكن هو السبب فى سقوط كامل باشا ذلك الشيخ المحنك وفى ذهاب ادرنه وفى قتل ناظم باشا الى غير ذلك وحقيقة الحال انه لايوجد ادنى سبب للاسف على فراق وزارة ذلك الشيخ المحنك قطب السياسة لأنه مع مزيد حنكته ودوران السياسة على ارائه لم تجد الدولة فى اثناء وزاراته الا افظع الفظائع وافجع الفجائع ولم تكن ادرنه لتبقى لنا بواسطته ولا قال ذلك احد من رجال السياسة واما قتل ناظم باشا فقد وقع فى معمعة الهجوم بعد سقوط مصطفى نجيب قتيلاً واثناء فورة الدم وكان انور ساعتئذ داخلاً يفاوض الصدر الاعظم كما شهد بذلك نورادونكيان افندى ناظر الخارجية وبعد فهل نسى العثمانيون خدمة انور العظيمة فى اعلان الدستور وهل نسيت الامة العربية خاصة اعمال انور والفرى الذى فراه فى الجبل الاخضر والتدابير الرشيدة والوقائع الشديدة التى عقدت له من محاب قلوب العرب مالم ينعقد لاحد قبله او هل انحصرت الامة العربية فى اشخاص معدودين من متعنتى سورية ومفسديها ولم يبق لعرب افريقية ولا لعرب الجزيرة ولا لسائر عرب الشام حق فى الكلام باسم العرب وهل اصبحت الحمية العربية مقصورة على مشاقة الترك ومخاصمة الدولة حتى اذا وجد العرب بازاء دولة اجنبية كان قصارى سعى اللامركزيين ان ينصحوا لهم بالاستسلام لها وترك المقاومة كما فعل اعضاء اللجنة العليا فمن لم ينصح لهم بالخضوع منهم لم يأت باقل حركة لمعاونة مجاهديهم الذين

بنوا من الشرف للعرب مالم يبنه قبيل عربي سواهم لانهم كافحوا دولةً عظيمة كايطاليا و استظهروا عليها فى وقائع لاتكاد تحصي وغنموا من عساكرها المدافع والبنادق والملابس والذخائر وحفظوا اكثر مراكزهم امامها ولم تتقدم خطوةً عن البحر الابدينار تعطيه اوشقاق تلقيه وهم قوم مجردون من اسباب الدفاع محصورون من البر والبحر فبمثالهم فليفخر العرب وباعمالهم فليعتبر الذين لا يبرحون نادبين نائحين وصاخبين صائحين يقولون لاهل الشرق انقطع الامل وانقد فى البطن السلى فليس امامكم الا الرمى بقيادكم الى امة اوربية

ولما تصدر محمود شوكت وجاء الاتحاديون امتدت الشحناء واشتعلت فى القلوب اشتعال النار فى يابس العرفج وبلغ من حقد بعض تلك الفرقة ان صاروا يعترضون على جميع اعمال وزارة محمود شوكت حتى على استلاف بعض اموال من مصارف اوربا لميرة الجيش العثمانى المرابط على ابواب دار الخلافة والذى فيه نحو ٦٠ الفاً من العرب فكانت حميتهم على ابناء جلدتهم ان يسعوا فى منع الرزق والذخيرة عنهم وفى اماتتهم جوعاً وقد انكروا هذه الافعال خوف ان يفتضح امرهم ويهتك سترهم ولكن لايفيدهم الانكار وفى الصحف المنشورة مقالات تحت توقيع بعض اعضاء لجنتهم العليا ملائى بالاعتراض على استلاف الوزارة المال لمتابعة الحرب وبعضهم وضع مسئلة القرض موضع البحث القانونى هل يجوز لوزارة متغلبة بالسيف ان تعقد باسم الدولة قروضاً ام لا واعرق فى الغرابة من ذلك ان بعضهم سأل نفس كامل باشا بعد انقلابه من الوزارة ومجيئه الى مصر هل تعتد وزارة محمود شوكت الجديدة وزارة مشروعة وهل عقودها ماضية واعمالها نافذة فكان جواب كامل باشا بالايجاب قائلاً لا محل للاحتجاج على مشروعية الوزارة الجديدة مادام السلطان قد امر بذلك

فبلغ بعضهم من الشحناء ما لم يبلغه كامل باشا نفسه وهو لما ينفض بعد غبرة الموت من وقعة الباب العالى

على ان محمود شوكت باشا بمجرد وصوله اعلن انه لا يريد مخالفة الوزارة السابقة فيما كانت شرعت به من تبديل شكل الادارة الداخلية بل ينوى توسيع دائرة الاصلاحات عما كان قرر سلفه وتقسم المملكة الى مناطق تدار كل منطقة على اصول مختصة بها فلم يرق ذلك فى اعين دعاة اللامركزية ومن هناك من الاثنى عشر نقيباً والمائة والاربعة والاربعين نجيباً وابثوا يحذرون الامة من الاتحاديين ويدمرون عليهم ويرجفون باحوال الدولة ويقطعون آمال الناس ويوغرون على الدولة صدور اهل الشام واهل العراق كان يكتب رفيق بك العظم فى جريدة المؤيد مثلاً ان الباب العالى يساوم بعض الشركات الاجنبية على بيع بعض مرافق سورية وان الدولة باعت الكويت من الانكليز والحال ان هذه الفئة عينها هى التى طالما انتقدت الدولة فى جمودها وتمصها وتجافيها عن معاملة الاجانب الذين لا يرجى اصلاح البلاد الا بهم وبما لهم ورؤوس هذه العصابة هم الذين كانوا اول من تواطأ مع نجيب الاصفر فى مقاولة سرية على اخذ جفتلك غوريسان لحساب شركة باريزية وليس ذلك مما يطابق خطة الانتقاد الذى عاد ينتقده رفيق بك فى شئ واما الكويت وما ادراك ماهو فان الدولة لم تحكم فى الكويت فى وقت من الاوقات الاعلى الشكل الذى تحكمه الآن ولكن سوء تصرف بعض الولاة والشقاق الذى لا يزال مصدر مصائب العثمانيين وكل امة حلت بها المصائب حملا امير الكويت على مصافحة انكلتره التى عقدت معه مقاولات تتعهد بها ان تحميه من الدولة فيما لو ارادت عزله من هناك وكانت الدولة الى هذه السنة لا تريد ان تعرف هذه المقاولات ولما بلغ منها الجهد

واحاط بها الخطر من كل مكان واحتاجت الى المال واضطرت الى تقوية الاسطول وادركت الضرر البليغ الذى اصابها من ضعفه ونزول درجته عن درجة الاسطول اليونانى مدت يدها الى مصافحة انكلتره ومالت الى تصفية كثير من المسائل المعلقة بينهما فى العراق كمسئلة سكة حديد بغداد ومسئلة الكويت فقر القرار على اقرار انكلتره بسيادة الباب العالى على الكويت وباقرار الباب العالى بمقاولات انكلتره مع مبارك بن صباح امير الكويت وبان لا يمدد خط الحديد من البصرة الى الكويت الا برضى انكلترة واستعهد الباب العالى الحكومة البريطانية بمصالح جسيمة سياسية وقروض مالية فى مقابلة هذ العهد وانى لاضحك من هؤلاء القوم واحياناً ابكى من حركاتهم فى مشاكستهم الدولة كيفما فعلت وكيفما تفعل فانا اناشدهم الله مادامت اوربا لا تعرف عرباً ولا تركاً ولا تعرف الا اسم عثمانى والبلاد هذه من اولها الى آخرها لابن عثمان الملك الشرعى لها وبمجرد وضع توقيعه على ورقة ينتهى الامر فلما ذا نقوم لمشاكسة الدولة فى ابان ضيقها واخذ العدو بمخنقها ونجتهد ان نفهم اخوتنا الاتراك ان مصيبتهم بعيدة عنا وان بثقتهم غير مفض الينا واننا لسنا شركاءهم فى السراء والضراء افلانخاف ان يحمل الدولة ماتراه من اصرارنا هذا على الرضيخة بحقوقنا والتساهل بمرافق بلادنا افلم يكن الاولى ان نسلك الى صيانة حقوق بلادنا غير طريق المشاكسة مع الدولة التى بيدها الزمام افترى انكلترة سألت اللجنة العليا لحزب اللامركزية عما اذا كانت تجيزلها مقاولة الكويت مع الباب العالى ام سألت احداً من عظماء العرب وهل سألت فرنسا مؤخراً احداً من اهل سورية عندما اتفقت مع جاويد بك على الامتيازات التى اخذتها فى سورية فان كان الجواب على كل ذلك سلباً فما معنى هذا الصخب

وهذه الصيحة فى الجرائد سوى مقصد القاء الوحشة وتمكين النفرة سواءً استفاد بذلك العرب ام لحقهم الضرر

قلنا ان مجئ الاتحاديين الى الوزارة زاد الطين بلة ولوكانوا اسرعوا بالمواعيد فى اتمام الاصلاحات وذلك لأن تلك الفئة لاترضى عن الاتحاديين مهما فعلوا ومهما احسنوا وانها تقلب حسناتهم سيآت فلما لحظ الباب العالى ان الحركة ازدادت عن ذى قبل وكانت الحركة الفعلية هى فى بيروت صرف الوالى ادهم بك من هناك واعاد حازم بك الوالى السابق فحضر ظاناً انه يسلك مع العصبة طريق الملاينة والمسالمة وانهم بذلك ينتهون عماهم فيه ويعتدلون فى مطالبهم ويمهلون الدولة حتى تكون نشقت نفس الفرج فوجدهم كلما ازداد لينا ازدادوا شدة واعصوصبوا على الحكومة ورأى الامر سينتشر وانه لايبعد ان تتألف لجان اخرى يعصوصب حولها الناس فى سائر مدن سورية فيتسع الخرق على الراقع ولا ينفع الندم فيما بعد فامر حينئذ باقفال النادى الذى سموه بنادى الاصلاح فاقفلته الضابطة ولم يكن من الاصلاحيين الا ان البوا بعض التجار واصحاب المخازن واتفقوا معهم على اغلاق دكاكينهم وحوانيتهم ظانين ان ذلك فى هذه الاوقات الحرجة يوقع الرعب فى قلوب رجال الدولة فيسرعون باعطائهم اللامركزية حالاً بل ابعدوا فى التفكر اكثر من ذلك وهو ان اغلاق الحوانيت يضر بالمصارف الاجنبية فتضطر الدول الى التعرض وتحمى جانبهم والحاصل اقدموا على هذه الحركة على امل توسيع الخرق فلم تنتظم معهم لأن قسماً كبيراً من اصحاب الدكاكين والحوانيت ابوا التعطيل والحكومة لم تتزعزع فى عزمها وشددت فى حفظ الامن بحيث لم تكن بيروت فى يوم من الايام اسكن مما كانت اثناء حركة اللامركزية فاضطر محمد افندى بيهم ويوسف افندى سرسق

كبيرا المسلمين والنصارى الى الاعلان على الملأ بوجوب فتح الحوانيت على انه لولم يعلنا ذلك لما امكن استمرار التعطيل لأن التجارة تتوقف والضرر يفدح فعادالناس سريعاً الىفتح مخازنهم وفشل مشروع الاغلاق والاقلاق وانتهت المسئلة بتلغرافات الى الجهات بتجسيم الحركة وتعظيم الخطب وبرسائل الى المقطم والى الاهرام يتخيل من مطالعتها الانسان ان سورية قائمة قاعده وان البركان على وشك الانفجار ولوتأمل اصحاب تلك الجرائد قليلاً لكانوا مع خدمتهم الغرض المعلوم الذى يخدمونه يأنفون من نشر رسائل تتوالى فى وصف القلق والاضطراب واستمرار الحوادث والاحتفاز للثورة وغير ذلك مما لا ينقطع الكلام عنه وليس هناك اثر فعل يؤيده بل لم يخيم السكون على افاق بالشام تخييمه عليها فى هذه السنة مع اجتهاد كثير من ذوى الضمائر الخبيثه بان يحدثوا احداثاً ويضرموا فتناً وكان يلزم اصحاب تلك الجرائد ان يفكروا فى ان الطريق غير مقطوع بين سواحل الشام والاسكندرية وبورسعيد ففى كل يوم تخرج البواخر مئات من المسافرين قد غادروا بالشام وليس فيه قليل ولا كثير مما يصفه مراسلو هاتيك الصحف وان عنداولئك النفر مبدأ لايزالون يتعقبونه وهوان الحرب اولها الكلام وان التهييج لابدان ينبت زرعه فتخرج الامور من طور القول الى طور الفعل ويقع الهرج المرج اللذان هماوسيلتا الخلاص من الحكومة العثمانية هذا وبعد اقفال نادى الاصلاح البيروتى بقليل اعتدى سفيه منشبان بيروت على المرحوم زكريا طبارة فقتله لاسباب غرامية تحققت من اقرار القاتل والمقتول من اجلها فى قصة ليس هنا موضعها فوصل الخبر الى مصر بان زكريا طباره قتل فى بيروت فرقص بعض اللامركزيين طرباً وقالوا خرجت الحركة الى حيز الافعال وصارت تتعاظم من الآن

فصاعداً وارسل كاتب اللجنة العمومى تلغرافاً الى بيروت يقول فيه :
نعزى اهل بيروت افيدونا تفاصيل الجناية . الا انه لسوء حظ اللجنة
العليا ورد الجواب من بيروت يكون الجناية غير سياسية فعادت دلوهم
بغيرماء واسودت وجوههم خيبة ولقد كان لهذه اللجنة العليا القدح
المعلى فى تهييج اهل بيروت والتغرير بهم فى ميدان مخاصمة الدولة
واقناعهم بان امهال الباب العالى الى مابعد الحرب رأى فائل و ذهاب
باطل لان الباب العالى اذاتنسم اريج الفرج نقض ماكان وعدبه قبل
الصلح فلاينبغى ان يؤخذ باقوال الاتراك فانه لايوثق بسيل تلعتهم وكان
اذا اعترض معترض بان المروءة والفتوة والاسلام والانسانية والشرف
والوطنية وكل ذلك يمنع من وضع اليد فى مخنق الدولة ومطالبتها
ومشاغبتها وهى لا تكاد تعى من دهشة الحرب اجابوك ان الوقت اضيق
من ان نستمهل يوماً واحداً وزعموا للمسلمين ان فرنسا هى على وشك
احتلال سورية وانه لايقيها الغارة الفرنسوية الاحرز اللامركزية ولما
اكبر الناس حركتهم هذه وقالوا ياللخجل من اخواننا الترك بل ياللخجل
من اخواننا العرب بل ياللخجل من انفسنا لاختيار هذه الازمة ظرفاً
للطلب وعدم مبالاتنا بما الخلافة فيه من الخطر واظهارنا من العمل
مالايصدر عن الاعداء فضلاً عن الاولياء عادوا يموهون على الخلق
بانهم انما تكلموا فى تلك المطالب على ان تكون بعد وضع الحرب اوزارها
مع انهم قد كتبوا كتابات تحت تواقيعهم بانه لايجوز الامهال ولا يوماً
واحداً ولما الزمتهم الحجة بأنهم لم يقبلوا الامهال ولا الفسحة الى مابعد
وضع اوزار الحرب وعلموا ان التمويه غير مجديهم رجعوا يقولون نعم نعم
اصررنا على اعطاء الاصلاحات فى وقت الشدة لأن المريض اذا اشتدبه
الداء كان ذلك ادعى الى سرعة العلاج وهى سفسطة لاتنطبق على مانحن

فيه اصلا وانما ينطبق على حالة المملكة مثل آخر وهى ان مريضاً
اشتدت به العلة واصبح جسمه مضطرباً لاقل سبب فجاءوا يعطونه الدواء
دفعةً واحدة غير ناظرين الى درجة تحمل جسمه ولا مدققين فى فحص اعضائه
ومما لايختلف فيه اثنان من الاطباء ان الجسم الضعيف لايتحمل الدواء
ولوكان ترياق الحياة الاجرعات متقطعة فى اوقات معينة وانه اذا اعطى
الدواء وهو على تلك الحالة بالمقدار الفاضل عن درجة التحمل اشرف به
على الهلكة ونحن لانتازع فى كون المريض مريضاً وفى كون العلاج
متحتماً وانما نخالف فى جواز المعالجة بطريقة اللامركزية راساً بلاداً
كان يكفيها الآن توسيع اختصاص الولايات واطلاق حرية التعليم
والتدريس باللسان العربى وانشاء الطرق وتعيين صغار المأمورين فى مركز
الولاية وهى درجة اعلى جداً مما كنا فيه فكان ينبغى ان نرقاها اولاً
ثم نعرج منها الى ماهو اعلى منها فاما رقى الدرج دفعةً واحدة فيوشك
ان يكون سبب الدهورة لأن كل عاقل خبير مطلع على احوال
البلاد يعلم ان مجالسنا العمومية ليست فيها الكفاية لحمل العبء الذى
يراد تحميلها اياه وان اعطاءها كل هذا الاختصاص يكون عبارةً عن
فتح ابواب النزاع الذى لاينتهى الا بالفوضى ولا تنتهى الفوضى الا
بالغارة الاجنبية فاللامركزية مقدمة للشجار ومشحذة لضروب الضغائن
والشجار والضغائن مقدمة للفتنة والفوضى وهاتان مقدمتان الاختلال
الاجنبى سلسلة بعضها آخذ ببعض لايمارى فيها الا من رانت الضلالة
على عقله ولم يعتبر بغيره من امثاله ولينظروا يمنةً وليعطفوا يسرةً فهل
يجدون ادارةً داخليةً مستقلة نالها اهلها دفعةً واحدة وطفروا اليها
طفرةً افلا ينظرون الى ارلندة وكيف كان معها سير بريطانيا العظمى
افلا يعلمون كيف ان البلاد الشرقية اليوم لاتقاس باوربا وان الشرق

هو لايزال غير الاوربي فحسب البقعة من بقاع الشرق ان تحدث فيها
حركة واحدة حتى تأتي دولة فتدعي الخسارة في مرافقها وتأخذها
اخذ عزيز مقتدر افلم يروا الى مصر كيف كان احتلالها وباية وسيلة
دخلها الانكليز مع ان مصر كانت تعد دولة من الدول العظيمة ذات
جيش يبلغ مائة وعشرين الف مقاتل وكانت قادرة ان تستقل
باسطول وكان عدد اهلها مع توابعها يناهز ٢٤ مليوناً ولها حكومة
مستقلة غنية كما يعلم كل احد فلم تنبض فيها عروق الفتنة عشرة ايام حتى
اصبحت تحت استيلاء الاجنبي فقول اللامركزيين ان استقلال البلاد
بادارتها الداخلية يقي من خطر الاحتلال الاجنبي كلام في كلام ولا يقي
البلاد من الاحتلال الاجنبي سوى انضمام الرعية حول الدولة وتفدية الوطن
بالنفس والنفيس ونشر العلم وتوفير اسباب الثروة مما ليست اللامركزية
شرطاً لحصوله واما جلب مفتشين من الاجانب وتسليمهم ازمة الاحكام
وقصر كل شيء على ارادتهم ظناً بأن ذلك يكفي الاجانب ويغنيهم عن
الاحتلال ونكون نحن تدرعنا دون المرض بنوع من التلقيح الذي هو
جزء من المرض فهو ايضاً خيال باطل لأن دولةً من دول اوربا اذا
مكنتها الفرصة لم تقنع بما دون الاستيلاء ولم يكفها وجود المسيوجول
والمسترجون مفتشين في ادارتنا واما قول اللامركزيين ان المقصد من
اللامركزية هو رفع سلطة الاتراك من البلاد العربية كما قالوه في
اجتماع عقدوه مع بعض السوريين في اسكندرية فلم يكن عليه غبار لولا
خوف حلول سلطة الافرنج محل سلطة الاتراك فان سلطة الاتراك حفرة
محدودة واما سلطة اولئك فهي هاوية ابدية واذا استعملنا الحكمة
ونصبنا ميزان النصفة امكننا ان نصعد الى مستوى الاتراك في الحكم
تدرجاً بدون اضطرار الى شغب وبدون خطر على الاستقلال ولكن

الغرض مرض ومحبة الشهرة ولذة الانتقام قد تمكنان من المرء الى ان يغرر بقومه ويلعب باغبيائهم ويجرهم الى هلاكهم وكان يلزم ان نكتفى بالدرس المؤلم الذى القته علينا مسئلة الارناؤوط التى لا تزال اعقابها تجرجر الى الان فقد كان الارناؤوط قبل الدستور يفعلون ما يشاؤون والسلطان السابق عبد الحميد يحمل دلالهم ويغضى على سيآتهم ويداوى جرح انتقاضهم بالعطاء ويجبروهن اخلاصهم بالتعهد والالتفات ويسنى لرؤسائهم الرتب ويجزل الرواتب لا جهلاً باحوال كثير منهم بل استصلاحاً لقلوبهم وكان مع ذلك منهم اناس مثل اسماعيل كمال بك وغيره لا يفتأون يداخلون اليونان والصرب والجبل الاسود ويطمعونهم فى ملك آل عثمان بالروملى على شرط ان يعرفوا لالبانيا استقلالها فلما أعلن الدستور انقطعت تلك الجعائل التى كان رؤساء الارناؤوط يتمتعون بها واراد فتيان الاتراك اقامة الحكم المشروط فى كل اقسام السلطنة على وتيرة واحدة فكان رؤساء الارناؤوط نافقين تغير نسق الحكم عليهم وصاروا يخدعون عامتهم بمكان هؤلاء من الجهل ويزرعون فى قلوبهم بغضاء الدولة ويشيعون عنها الاراجيف التى ما انزل الله بها من سلطان وتارة يقولون لهم ان الدولة باعت بلادكم الى الصرب « كما يقول المفسدون عندنا اليوم بأنها تبيع بلاد العرب » وطوراً يقولون لهم انها اتفقت عليكم مع اليونان واحياناً يقولون لعامتهم ان الدولة تفكر فى وضع ضريبة على اللحى فيصدقون وهلم جراً من الاقاويل التى غيرت قلوبهم واوغرت صدورهم فثاروا على الدولة وعصوا الاوامر وخلعوا الطاعة وكان ذلك فى مبدأ الدستور فاضطرت الدولة ان تسوق عليهم العساكر وجرت بينهم وبين العساكر الوقائع وسالت الدماء واسف كل عثمانى محب لوطنه من هذه الحال وسر زعماء الثورة ومحركوا الفتنة

منهم بوقوع العداوة بين الارناؤوط وبين دولتهم المتبوعة ثم قاموا ينفخون فى بوق الجنسية شأن مفسدى العرب اليوم وزعموا انهم هم مسلمين كانوا اونصارى لا يعلمون سرى جنسهم وعرقهم ولسانهم ولما كان الاتراك يريدون ان يحملوهم على الكتابة بالحروف العربية حروف املاء القرآن العظيم وكان قسم كبير منهم يكتب بهذه الاحرف جعلوا هذه من جملة المناقم واصروا على الحروف اللاتينيه وعضوا عليها بالنواجذ وطلبوا ادارة مستقلة وبعبارة اخرى لامركزية ونادوا بالاصلاح وزعموا انهم اكفاء لادارة بلادهم بانفسهم (كما يزعم الآن اصحابنا) ولعب الدينار الصربى واليونانى لعبه فى اثناء الثورات المتتابعة (كما هو لاعب دينار اوربا ببعض القوم عندنا) وتواطأ اسماعيل كمال وجماعته مع اليونان والصرب على حدود معلومة بينهما وبين البانيا الجديدة الا ان الدولة قهرت ثوار الارناؤوط واخمدت الفتنة اولاً وثانياً وبقيت الحرب ناشبة مع الماليسور وهم نصارى الارناؤط الذين فى جوار الجبل الاسود فبينما الدولة تدخلهم فى الطاعة اذ شنت ايطاليا الغارة على طرابلس بغتة واشتغلت الدولة بحرب ايطاليا وطالت المقاومة واضطرت ايطاليا لاعمال اسطولها ايضاً فاشتد بالدولة الضيق وارتج مركز الوزارة وتقوى الحزب المعارض للاتحاديين فانتهزوا فرصة الحرب مع الطليان لالقاء الفتنة فى بلاد الارناؤوط ولقسمة الجيش العثمانى على ذاته ولم يبالوا بما هى فيه طرابلس من الضنك ولا بما عليه الدولة كلها من الضيق ولا بما تجره قسمة الجيش من الوبال ولا نظروا الى عواقب عملهم من تعريض وجود السلطنة كله الى الضياع بل جعلوا هدف رمايتهم امراً واحداً وهو اسقاط وزارة الاتحاديين والركوب محلها باى وجه كان وبئس ركوب البعض اذا سقط الكل فلما استفحلت ثورة الارناؤوط ولحق

بعض ضباط الجيش المجرد لادخالهم فى الطاعة بالعصاة انفسهم وبدت امائر المصائب استولى القنوط على محمود شوكت باشا لكنه صبر على البلاء لعله ينقذ المملكة من التهلكة ووقعت المراسلة بين الحكومة وبين الارناؤوط فاشترطوا للطاعة تنحى محمود شوكت رحمة الله عن نظارة الحربية فاسرع بالاستعفاء فلم يزدادوا الا عتوا وانتشر الامر واستفحل الخطب واستولى ٣٠ الفاً من الارناؤوط على اسكوب وتهددوا مناستر ولما رأت وزارة سعيد باشا هذه الفتنة الصماء فى وجهها مع وجود حرب طرابلس وان اصابع الحزب المعارض فى الاستانة تشتغل بها تنحت ايضاً مقتفية اثر محمود شوكت فقلد مولانا السلطان مختار باشا رئاسة الوكلاء وجعل معه كامل باشا وحسين حلمى باشا وناظم باشا فى رئاسة الشورى والعدلية والحربية وجعل جمال الدين افندى شيخاً للاسلام وتعين محمود مختار باشا للبحرية وتعين محمد فوزى باشا العظم من اعيون اعيان سورية ناظراً للاوقاف وارسلت الوزارة الجديدة المشير كاظم باشا لاستصلاح الماليسور من جهة اشقودره والمشير ابراهيم باشا الى اسكوب لاجل تأليف الارناؤوط مع الحكومة فاما كاظم باشا فلم يجتمع مع الماليسور الذين كانوا انضموا الى الجبليين واصلوا الحرب جميعاً على الدولة واما ابراهيم باشا فاجاب الارناؤوط الى جميع مطالبهم التى منها تبديد مجلس المبعوثان واقفل المجلس بطلبهم وصاروا من دلال الى دلال حتى لم يبق للحكومة العثمانية فى ولايات الارناؤوط ظل ولا للنظام رائحة و رأت دول البلقان الاربع هذه الحالة وخروج الارناؤوط على دولتهم وانقسام الجيش الى حزبين فمع كل ما بين البلغار والصرب من تباعد الانظار وما بين هذين العنصرين والعنصر اليونانى من تباين الافكار جمعتهم المصلحة العامة واطمعهم فى الوفاق سهولة المغنم

وقرب ادراك الغاية بما رأوه من عمايات العثمانيين واسترسالهم فى اهوائهم وتناحرهم بازاء اعدائهم وبما علموا من كون كثير من اركان الوزارة الجديدة هم الذين كانوا المحركين على انتقاض الارناؤوط وعلى قسمة الجيش فى اثناء الحرب مع ايطاليا بينما الاسطول الايطالى ساد على العثمانيين طرق البحر وفعلاً لو احجم البلغار واليونان والصربيون عن الاتحاد على الدولة وهذه هى احوالها وهذا هو ما يسدى عليها وزارؤها ورجالها لكانوا اولى بالاقامة بالبيمارستانات من الاقامة بالدواوين فلما لم يكونوا مجانين بل كانوا عقلاء متيقظين ساهرين على مصالح بلادهم تواثقوا بمعرفة قيصر الروسية على مهاجمة الدولة وكان اساس هذا التواثق بينهم فتنة الارناؤوط التى اثارها بعض كبار العثمانيين بايديهم ونفخوا نارها بافواههم فيكون الاتحاد البلقانى الذى دى الى ما ادى اليه من خرق ستار الاسلام واسقاط مهابة الدولة وخسارة ثمانى ولايات نكب المسلمون فيها بما لم ينكبه بنو اسرائيل فى سبى بابل ولا فى اخذ تيطش لاورشليم هو من جملة ما اسداه الحزب المعارض لاجل اسقاط الاتحاديين والتربع فى الدست محلهم وتكون هذه النكبة العظمى للدولة العثمانية قد تأسست فى نفس الاستانة بايدى رجال العثمانية المعول عليهم فى الشدائد ومما لا مشاحة فيه ولا خلاف بين جميع رجال السياسة عليه انه ماعجل هذا الاتحاد بين البلقانيين وجعلهم يوفضون الى الحرب فى اول فصل الشتاء وبدون انتظار فصل الربيع كما كان القرار بينهم الا استمرار الحرب مع ايطاليا وانسداد مسالك البحر على العثمانية وخوف البلقانيين من عقد الدولة الصلح مع ايطاليا بما يفتح للدولة طريق البحر ويساعدها على حمل جيوش سورية الى الروملى وفى الواقع لو كانت الدولة قد صالحت ايطاليا وانفتح امامها البحر لنقلت من ولايات اطنه وحلب وسورية

عساكر اوقفت زحف البلقانيين الذين نالوا مانالوه من الفوز بكثرة العدد وسرعة الحركة وعلى كل حال كانت عساكر الشام وجنوبي الاناضول حفظت ولاياتي سلانيك ويانيا من غارة اليونان لأن هاتين الولايتين لم يكن فيهما ازيد من ٢٥ ، الف جندي عثماني في مقابلة ١٨٠ الى ٢٠٠ الف جندي يوناني ولكن الدولة التي يتهمها مفسدو بلادنا وسماسرة الاجانب باهمال حقوق العرب بقيت اكثر من سنة تناضل عن طرابلس الغرب وتحملت كل ماتحملته تمسكاً بتلك الولاية العربية ولم تسمع في هذا الدفاع لومة لائم فبدلاً من ان يقدروا قدر مفاداتها في الدفاع عن بيضة الاسلام و تعريضها الروملي والجزر للذهاب والاستانة نفسها لاشد خطر السقوط من اجل الامة العربية الكريمة التي فت في عضدها خطب طرابلس قاموا يشغبون عليها ويرمونها ببغض العرب وانها تبذل بلادهم فداءً لبلاد الترك مع ان الدولة معذورة بعدم الاصرار على حرب الطليان مع هجوم اربع دول عليها وكونها تعلم ان حفظ طرابلس مع انقطاعها عنها من وراء البحر امر مستحيل فصار الاولى ان تدع مالا تستطيع وما لابد منه لحماية قلب المملكة الى ماتستطيع والى ماهو اشد ضرورة ولولا ثورة الارناؤوط التي جرت حرب البلقان واتحاد الدول الاربع لما خطر في بال الدولة قط مصالحة ايطاليا بل كانت الدولة مصممة على المقاومة والمدافعة عن طرابلس مهما بلغ منها الجهد وكانت ايطاليا قد داخلت الدولة في عقد الصلح على شروط اشرف جدا مما عقد الصلح عليه كامل باشا فيما بعد ولكن انفجار بركان البلقان هو الذي اطمع ايطاليا الى حد انها عادت لا ترضى ببقاء اية سلطة سياسية للسلطان في تلك الديار وانها ارسلت اسطولها وجيوش البلقانيين زاحفة نحونا واخذت تنذرنا بانزال العساكر في سواحل الروملي والانضمام الى البلقانيين اونوافقها على مرادها حالاً بدون

مطال والمراد من هذا الشرح كله ان فتنة الارناؤوط لم تكن فقط مبدأ ضياع الست الولايات التي كانت لنا في الروملي وولايتي جزر البحر الابيض وولاية جزيرة كريد بل سبب ضياع ولايتي طرابلس الغرب وبني غازي وهما في درجة الحجاز واليمن ونجد من جهة العربية والعروبية والركن الاخير الذي كان للعرب وللاسلام في افريقية فكان ينبغي لكل عثماني بل لكل عربي بل لكل مسلم بل لكل شرقي ان يلعن الروساء الخائنين المارقين الذين قاموا بتلك الفتنة والذين منهم من كان متواطئاً مع الصرب واليونان على حدود معينة بينهم وبين الالبان وان يلعن ايضاً اولئك الوزراء الذين كانوا يراسلون الارناؤوط بالاصرار على مطالبهم ويشددونهم من نفس الاستانة ويسولون لهم كل عمل مهما كان هادماً لاركان الدولة على شرط ان يؤول الى سقوط الاتحاديين هذا ما كان يجب على كل من يدعي العثمانيه ويزعم المحافظة على شرف وطنه والحال ان اصحابنا هؤلاء اسماعيل كمالي العرب لا يريدون حتى ساعتنا هذه ان يقبحوا عمل محركي الارناؤوط ولا ان يقروا بخيانة اولئك الرؤساء الذين قضوا على بلادهم وبلاد غيرهم وجلبوا الويلات وهتك الاعراض وسفك الدماء على ابناء جلدتهم وعلى من جاورهم حتى وعلى عرب طرابلس ومهما يكن من حديث في امر ثورات الارناؤوط المدبرات بدسائس اولئك الروساء فان كلام اصحابنا فيها انهم قد سيقوا اليها قسراً بظلم الاتحاديين لهم وانهم معذورون وغير ملومين كما ان الادريسي معذور وغير ملوم في الاتفاق مع ايطاليا على دولته والحاصل ان اصحابنا اللامركزيين كانوا قبل حرب البلقان مداخلين اسماعيل كمال واعوانه ومتواثقين معهم على خطة واحدة بل كانوا متفقين مع مبعوثي الروم والبلغار والصرب ومع بوشو وقوزميدي وكل من يعلمونه نازعاً الى الانشقاق عن الدولة ومع ادعائهم النصرة للعربيه وكونهم يقرأون دروس التعصب للعرب على الشيخ

السنوسى وعلى ابن رشيد وعلى امير مكه وعلى الامام يحيى فانهم لم يأنفوا
من مظاهرة الحزب الالبانى الذى كان يرفض الكتابة بالحروف العربية
وذلك لأن المحور الذى تدور عليه جميع اعمالهم هو محاربة الدولة عامة
والاتحاديين خاصة باية وسيلة كانت ولوكان فى الوسائل التى يلجأون اليها
سقوط العرب جميعاً افلاترى انهم كانوا يثبطون الناس عن معاونة
طرابلس وان رفيق العظم كان يقول علناً اننا لانترك سورية لاجل
صحارى افريقية مع انه لاضرر على مسئلة سورية من افريقية بل كلما
حمى الوغى واستحر القتل وطال والطعن والضرب فى افريقية امتنع
جانب سورية وعز حماها وتاخر الطالب عن احتياجها افلاترى ان بعض
الشيوخ الذين يتصدرون لتعليم الناس الشريعة الاسلامية وتفقيههم فى
الدين فى مجلاتهم كانوا يحذرون الروسية من دسائس الاتحاديين فهل
يجوز هذا فى شرع دين اوفى شرع وطنية افلاترى ان هذه الفئة اللا
مركزية من العرب كانت تصافح الارمن الطالبين الانشقاق عن الدولة
وانهم اتخذوهم بطانةً فهل بعد هذا واشباهه تبقى شبهة فى سوء نية
هذه الشرذمة وعملها على اضمحلال العثمانية والعبث باستقلال الوطن
وهى مع كل ماجرى فى الروملى من نتايج مشاقة الدولة وتفريق الكلمة
تجدها تابعة اثر محركى الارناؤوط حذوك النعل بالنعل لا يكفيها ماصار فى
البلقان حتى تريد نقله الى الشام فياليت شعرى الى متى يجد هؤلاء
المفسدون مستمعين لهم ومصوبين لحركاتهم وحاطبين فى حبالهم بعد ان
ظهرت اعمالهم وتحقق ضررهم وعلم كل منصف انهم مايبتغون الا الشهرة
ولو بخراب اوطانهم حقاً انها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى
فى الصدور

قد يعترض المتعنت المكابر وينكر المغالط المناكر قائلين انه لامشابهة

بين عمل بعض روساء الارناؤوط القائمين بالثورة وبين عمل « المصلحين »
من اللا مركزيين الذين لا يبتغون سوى حمل الدولة على الاصلاحات
التي هي الجنة الواقية من سقوط الوطن والذين لم يأتوا باقل عمل يخل
براحة الدولة وبالامن في داخل سورية فكيف يكونون هم ساعين في
سفك الدماء وجر المصائب على البلاد واين هذا من مسئلة الرومللي
وماوجه المشابهة الى غير ذلك مما لانزال نسمعه و نقرأه والجواب عليه
ما يأتي

ان كل حركة داخلية في اثناء حرب خارجية هي مضعفة للدولة
فحركتهم هذه حركة داخلية في اثناء حروبنا مع البلقانيين فهي مضعفة
للدولة بلا نزاع فهي جناية لا تغتفر كما ان كل حركة قيام ولولم يتخللها
سفك دماء تقع منا في الداخل من شأنها تقوية عزائم الاعداء المتوافقين
مع عساكرنا في ميدان الحرب فعمل اللا مركزيين هو قوة اعطوها
لاعدائنا على ابنائنا و اسلحة سلموها لاضدادنا على اولادنا فليخترلنا
اللا مركزيون لفظة تليق بهذا العمل ...

ان رؤساء الارناؤوط في اول ثوراتهم لم يكونوا يقولون سوى
ما يقول اللا مركزيون اليوم وهو طلب الاصلاح والاستقلال بالادارة
الداخلية والمحافظة على الجنس الارناؤوطي وقد ادت هذه الحركة
الاصلاحية الى ما ادت اليه ولا تزال مصائب الارناؤوط متوالية فكان
من هذا ان مطالبهم الحفظ كانت عين الضياع ورجع الارناووط الآن
نادمين يرفعون العلم العثماني ويقتلون ويقتلون من اجله فمع وجود البلاد الآن
بحالة الانشقاق والعداوات في كل محل ومع ضعف التعليم وقصور التربية
الوطنية عما يجب ان تكون هي فاللا مركزية مبدأ الفوضى ومن ثمة فمبدأ الخراب

ان مجيء صرخة اللا مركزية مصحوبة بنعرة الجنسية والنداء بتفريق

العرب عن الترك علناً هو عين ما كان ينادى به رؤوس فتنة الارناؤوط لا يختلف عنه بشئ فقد آن للعثمانيين ان يعتبروا ويرعووا افلم يروا انهم يفتنون فى كل عام مرة اومرتين ثم لا يتوبون ولاهم يذكرون انه على فرض وافقهم بعض العرب على طلب اللامركزية فالفريق الآخر لا يوافقهم الا على الاصلاح بدون تفريق وعلى ترقية المعارف والامور النافعة على قاعدة توسيع اختصاص الولايات فقط فالنزاع الذى ينشأ بين الاحزاب من اجل المركزية يخشى منه كثيراً على الامن والسكون فى البلاد ويجوز ان يفضى الى اختراط الحسام لأن الحرب كما يقال اولها الكلام

انه لا يرجى ان الباب العالى يرضى باعطاء استقلالات ادارية لبعض ولاياته قبل ان يجدها كفؤاً لحمل تلك الاعباء وقبل ان تعم فيها المعارف فلا يرجى ان يعطي سورية هذا النظام الخطير الذى لم يطلبه الا بعض افراد من اهلها ويخشى اذا استمرت هذه الحركات ان تضطر الدولة الى ارهاف الحسام فتسيل الدماء ويقتل ابناؤنا بعضها بعضاً فكيف هؤلاء النفر لعباً بالنار

بناءً على ذلك حذرنا ولانزال نحذر ابناء وطننا من السماع لوساوس هؤلاء الذين يتاجرون بالوطن من بعيد وهم بنجوة عن كل مايقع فيه من خطب وما يبتغون الا الشهرة وكسب الاسم والصيت مع الانتقام من الاتحاديين الذين لم يوفروا لهم حق التعظيم اللائق بمقاماتهم السنية بزعمهم فليقاوموا الاتحاديين بماشاءوا ولينتقموا كما ارادوا بشرط ان لا يجعلوا سورية آلةً لانتقامهم وغرضاً لسهامهم فان فى سورية احناً كثيرة يعلمها من يعملها فهى لاتحمل زرع دسائس ولا تطيق مكائد ولا تصلح للهزاهز واذا وضعت سورية حملها اهتزت له الدنيا باسرها فليتق الله اولئك النفر الجالسون فى « السبلانددبار » من القاهرة فى ابناء وطنهم

واخوانهم وليدعونا وشأننا فاننا نكاد نرى الفتنة باعيننا ونلمسها بايدينا اذا استمروا ماضين فى دسائسهم هذه واذا لم تضع لها الدولة حداً جازماً وتدع الحلم جانباً فان وقاية الوطن من الخطر مقدمة على كل شئ

ولعلهم يقولون اننا لوشئنا لما اعيتنا الفتنة ولكان من ايسر الامور علينا ان نغرى بعض العامة الجهلاء بالاجانب او بالمسيحيين فتكون من وراء ذلك فتنة ومشكلة اجنبية وتتم ماتريدوا الجواب ان بعضهم لم يأل جهداً فى الحب والايضاع فى الحركات ابتغاء افتتنه والتعرض الاجنبى ولكن قصرت ايديهم عن بلوغ المآرب ووقف العامة عن قبول وساوسهم حفاظاً لحوزة الاسلام ورعياً لذمام الدولة ولما كان شيوخ الشباب فى بيروت قدلبثوا معتصمين بحبال الدولة وكان المحركون عاجزين عن ايقاع الحوادث بدون هؤلاء فقد حاولوا استمالتهم اليهم وضمهم الى حزبهم وجاءوهم من طريق العصبية العربية واستعملوا معهم تارةً الوعد وطوراً الوعيد فلم يفوزوا منهم بطائل وبقى هؤلاء العامة على صدقهم لدولتهم وخوفهم على وطنهم على انه لواراد محرك ان يقدم على الاعمال التى تخل براحة الوطن لم يكن ليسهل عليه الامر مع وجود الادارة العرفية ومع انتباه الحكومة لاقل نبأة وتحفزها للبطش باى مفسد ينتقل من طور القول الى طور الفعل كما ان الاعتداء على الاجانب او على المسيحيين عمداً لم يكن ليخفى على اوربا فلو صدر ذلك من اضداد الحكومة املاً باحراج مركزها لم تحصل الغاية المقصودة بل انعكس الامر عليهم وهناك جم غفير من الحزب المعارض للحكومة نفسه كانوا يقفون سداً منيعاً فى وجه مريدى الفتنة اشفاقاً على الوطن وتخلصاً من التبعة ولقد سرت هذه الافكار المتعلقة باشعال فتنة لدخول الاجنبى الى بعض جهلاء المسيحيين فاخذو يتحرشون قصداً وعمداً تارةً بمسلمى بيروت وطوراً

بدروز لبنان ويوالون عليهم الاعتداء بدون سبب او بسبب طفيف رجاء ان تتولد من هناك فتنة عامة تنزل من اجلها العساكر الاجنبية فى بيروت الا ان عقلاء المسيحيين ورؤساء الطائفة المارونية فى الجبل كانوا معارضين لهذه الحركات ظاهراً وباطناً ولا سيما البطريرك الياس الحويك المطاع فى قومه فقد خدم استقلال الوطن اجل خدمة وصادف وجود حرب طرابلس ثم حرب البلقان خلو لبنان من متصرف واسناد وكالة المتصرفية الى سعد الله بك الحويك شقيق البطريرك فاحسن الادارة وسهر على راحة الجبل ومنع الحوادث وكيف كان الامر فان عقلاء المسيحيين يخالفون بعض الشبان الذين منهم لا يزالون يرون فى الاحلام اعلام فرنسا او انكلترة خافقة فوق جبال الشام

فانت ترى انه ليس فى هذا السكون الذى امتد رواقه على البلاد ادنى فضل لانقياء اللامركزية وان الفضل كان فيه للحكومة ولعقلاء الملتين ممن لا يستخفون حمل الدماء ولا يستسهلون احتقاب الاوزار واما اللامركزيون فكان قصارى سعيهم ان جعلوا القلق يسود على الافكار وزرعوا بذور النفور بين العرب والترك وفتحوا مجالاً للصحف الاجنبية للخوض فى مسئلة سورية واذا دققت فى جميع حركاتهم وسكناتهم تجدها رامية الى غرض واحد وهو ايجاد مسئلة اوربية فى سورية او مسئلة سورية فى اوربا

ومن انصع الادلة على ذلك انه لما اقفل والى بيروت نادى اللامركزية المسمى بنادى الاصلاح فى بيروت اسرعت اللجنة العليا فى مصر بارسال التلغرافات الى الجرائد الاوربية الخطيرة كالطان وغيرها تطلب فيها تداخل الدول فى القضية بين الباب العالى واهل سورية وهذه التلغرافات غير قابلة الانكار ليباحث اللامركزيون بشأنها فان كانوا

صادقين فى العثمانية الى تلك الدرجة فكيف يخيطون لنا هذه المراجعات لدول اوربا مع الصداقة التى يدعونها لدولتهم المتبوعة

ودليل آخر انهم قرروا عقد مؤتمر نحلوه اسم المؤتمر العربي وعينوا مركزه باريز ولسنا نريد الآن بيان كيفية عقد ذلك المؤتمر الباريزى وما فى احنائه من الاسرار التى لو انكشفت كما هى لم يعد كثير من اعضائه قريرى الاعين ولا فتضحت السريرة عند كل ناطق بالضاد بل نكتفى بان نقول انهم تداعوا الى هذا المؤتمر فى باريز من جهات مختلفة فمنهم طلبة علم فى باريز صادقون فى سعيهم خالون من المآرب السياسية يرون الالحاح على الدولة فى تطبيق الاصلاح حباً بالوطن ومنهم ناقمون على الدولة اقفال نادى الاصلاح فى بيروت ومنهم دعاة افتراق وانفصال لاغير ومنهم من همه دريهمات يأخذها فى هذا السبيل مهما كانت النتيجة ولكنهم جميعاً غير مفوضين عن الامة العربية ولاحق لهم فى الكلام باسم الامة وليس بيدهم تفويض لامن الشام ولا من حلب ولامن القدس ولامن مدينة من مدن سورية باسرها حتى ولامن كل اهل بيروت انفسهم فلم يكتفوا بالكلام باسم عموم بيروت حتى تكلموا بلسان عموم سوريه وبر الشام بل تكلموا بلسان كل ناطق بالضاد من شرق الارض الى غربها هذا وجزيرة العرب والشام والعراق فيها الامراء والاشراف والسادات والرؤساء والعرفاء لايعلم منهم احد بخطب المؤتمر الباريزى الذى اقام نفسه وصياً على هذه الامة العظيمة بدون صك وصاية ولا يزال الى يومنا هذا اعضاؤه واصحاب الجرائد التى لهم يتكلمون بالنيابة عن العرب اجمع بدون ادنى تحرج

ولما وقع ذلك منهم واوشكوا ان يفتتحوا اول جلسة فى باريز اجتمع اعيان دمشق فى منزل عبدالرحمن بك اليوسف وتذاكروا فى امر اولئك

المتآمرين عن العرب بدون تفويض منهم فاتفقوا جميعاً على انكار ذلك المؤتمر باسم الامة العربية وباسم الوطن الا انهم اختلفوا على صورة الاحتجاج فبعض الحاضرين من الحزب المعارض مثل احمد بك الشمعه وعبد القادر بك المؤيد وغيرهما رأوا الاكتفاء بانكار خطة المؤتمر مع المطالبة بالاصلاحات التى كان قدمها اهالى دمشق بها لائحة الى الباب العالى مباينة للائحة بيروت واما الآخرون ممن هواهم مع الاتحاديين فلم يقفوا عند حد الانكار والاكبار بل تجاوزوه الى جرح المتآمرين الذين اقدموا على هذا العمل فى اثناء الحرب فلذلك كتب الى الباب العالى صورتان للاحتجاج ختم على كل منهما فريق واتفق الفريقان على مآل واحد فى الغاية وتدنبع دمشق اكثر المدن كحلب والقدس وبيروت ونابلس وغزة ويافا وعكا وصيدا ولم يخالف فى هذا الاحتجاج الافئة ضعيفة فى كل محل وعرف الناس حتى فى اوربا ان هذا المؤتمر لم ينعقد باسم الامة العربية وان هذه الامة لا تعرفه واماهم فملأوا الدنيا كلاماً بكون كل من وقع على هذه البرقيات انما يقصد التزلف والتملق الى الحكومة وانهم هم احرار لايتوخون غير المصلحة العامة وهذه عادتهم مع كل معارض يعارضهم او مقاوم يقف فى وجههم فانهم هيأوا لكل واحد من معارضيهم والمحذرين منهم تهمة يتهمونه بها فهذا يقولون انه خائف من الدولة على مصالحه وذاك طامع فى منصب يناله منها وزيد عبد لسادات الاتحاديين وعمرو تنقده الجمعية راتباً شهرياً وبكر ظالم مستبد لايريد الاصلاح خشية حصول المساواة ومن لم يمكنهم ان يرموه بنقيصة اويلصقوا به تهمة قالوا انه ابله أوغبى تغفلته الحكومة وهلم جراً والحقيقة ان المعارضين لهم هم فى التفصيل فضلاً عن الجملة اشرف منهم اخلاقاً واعلى نفوساً واطهر سيرةً واشد على اوطانهم حمية وانهم هم اصحاب المصالح المهمة فى البلاد

والذين يهمهم ارتقاؤها وسداد ادارتها وانهم هم حماتها والحاملون حملاتها اذا الاسمح الله ناب البلاد خطب او نزل بساحتها بلاء وان القائمين بحركة اللامركزية حاشا افراداً قلائل ليسوا فى العير ولا النفير ولا ممن يخسر شيئاً اذا وقعت الوقائع لا من مال ولا من رجال وان اكثر رجال اللجنة لا يملكون فى سورية شبر ارض وان اكثر معارضيهم فى حركاتهم لم يستفيدوا من الدولة شيئاً ولا هم ممن يطالبونها برتبة ولا راتب وانما يطالبونها بأن تصلح الادارة فى ولاياتها وتهون امور الفلاح خصوصاً وان تجرى المساواة التامة وتمنع التعصب للجنسيات وتقطع السنة المفسدين وتشتد على اصحاب الدسائس الذين يريدون بالوطن السوء نظير كثير من عصابة اللامركزية الساعين فى دمار الوطن وازلاقه بين يدى السلطة الاجنبية ولما سألهم بعض معارضيهم هل ياترى لو وقع خلاف بين احدى ولايات فرنسا وبين الحكومة الفرنساويه كان يراجع اهالى تلك الولاية دولة انكلتره اوالمانيا او الباب العالى لاجل الدخول بينهم وبين حكومتهم كما اخذوا هم يبرقون من باريز الى وزارات الخارجية فى كل دولة اجاب حضرة رئيس اللجنة العليا بأن الاتراك لهم عادة ان يفعلوا ذلك ويطلبوا تحكيم الاجانب فى امور عثمانية صرفة استشهد على ذلك بطلب مراد بك الداغستانى بان تكون اصلاحات الارمن تحت سيطرة السفراء فانظروا ايها القوم واحكموا وانصفوا هل يكون عمل مراد بك الداغستانى اوغيره ممن هم فى الاتراك كما هم هؤلاء فى العرب حجة يحتج بها ومثلاً يقاس عليه واصلاً يرجع اليه فى ادخال الاجنبى بيننا وبين حكومتنا وهل اقتنعتم ايها العثمانيون وايها العرب خاصة بأن العار ارتفع عنكم بمراجعة الاجانب فيما هو من خصائص دولتكم وحدها بكون مراد بك الداغستانى فعل مثل هذا الفعل وبكون الاتحاديين عقدوا بعض اجتماعاتهم

فی باریز قبل اعلان الدستور فهل راجع قبل ان الاتراك دول اوربا بصورة رسمية ان تدخل بينهم وبين الباب العالى كما فعل اعضاء هذا المؤتمر وهل تحكموا باوربا فيما يعود بمس استقلالهم افلم تكن مراجعة هذا المؤتمر لدول اوربا برهاناً كافياً على ماهنالك من المقاصد الحائدة عن منهج العثمانية التى لايزال يدعيها هؤلاء النفر ويؤكدون دعواهم فيها بكرةً واصيلا وقولهم فى واد وفعلهم فى واد واذا سألتهم ماذا حملكم على عقد هذا المؤتمر فى عاصمة اوربية اجابوك بأن الدولة قد اقفلت نادى الاصلاح فى بيروت واعترضتهم فى حرية الاجتماع فلم يبق امامهم الاباريز فاختاروا الاجتماع والأئتمار فيها والحقيقة انهم لولا نزعة الافتراق التى قاموا بها فى بيروت وطفقوا يبثونها فى سائر الشام وخشية الحكومة ان يستفحل الفساد ويضطرها الامر الى استعمال القوة لما كانت اقفلت لهم ناديهم فى بيروت وهى لم تكن تمنعهم ان يجتمعوا فى دار السلطنة لو جاؤها فعلاً بغاة اصلاح وتراها مع ذلك قد اطلقت الحرية لجرائدهم تكتب ماشاءت فلا تجد منها عدداً واحداً الا وهو من اوله الى آخره اراجيف بالدولة العثمانية وحط من مقامها وازدراء باحكامها ونعى لوجودها ونثر لعقودها ان لم يكن تصريحاً فتلويحاً وما على المكابر او المناكر ان ياخذ اي عدد من تلك الجرائد ليرى ان المكابرة لاتفيده شيئاً فقد بلغ من الامر ان جريدة فى دمشق قالت عن الاتراك انهم شر خلق الله وكانت تلك الجريدة نفسها تحث الناس على موالاة فرنسا وتقول : نحن فى البلاد الفرنساوية وتدعو اهل سورية الى التخاطب والتكاتب بالفرنساوى فى التجارة والسياسة وتعلن ان من ينكر فضل فرنسا فهو لئيم وتردد مثل هذه الاقوال كل صباح وهى تدعى كونها عربية منتصرة للعرب واصحابها مسلمون وحسبك من البغضاء

والشنآن بل من الحطة والتهور ان تلك الجرائد كانت تقبح استرداد الدولة لادرنه وبعضها يدعوا الدول لاسيما انكلترة الى اخراج العثمانيين منها بالقوة وهى جرائداسلاميةعثمانيه بزعمهم وناهيك انها لاتترك خبراً يسوء المسلمين الا نشرته واذا سقطت على خبريسرهم بطريق التصادف نشرته محرفاً ومخففاً ومن اغرب ما وقع من بعض هذهالجرائد ان العالم الاوربى كله اقر اضطراراً بتوحش البلقانيين وما اجروه من الفظائع بمسلمى الروملى ونشر كثير من الكتاب الاحرار حتى من انفس الروس تفاصيل تلك المظالم والنكبات والفجائع بالعرض والدين والدم والمال وبعض هذه الجرائد كانت لاتنشر من ذلك حرفاً واحداً بل اذا عثرت على قول لاحد البلقانيين بنفى هاتيك الافعال ورد تلك التهم اسرعت الى نشره واذا سقطت على كلام لاحد اعدائنا بان اليونان لم يرتكبوا شيئاً مما عزى اليهم فى ولاية سلانيك تهافتت على التنويه بذلك البهتان تهافت الذباب على الحلواء مع ان واقع الحال يكذبه ومع ان قناصل الدول فى نفس سلانيك وجماً لايحصى من افرنجة تشهد بعكسه فانت ترى انهم اصبحوا اعدى على الدولة والامة من الافرنج انفسهم واغرب من هذه المنازع الغريبة التى ظهربها هؤلاء القوم وان هى الا امراض اجتماعية تظهر فى الامم عند حلول الطامات الكبرى وتكون اشد عليها من هجمات الاعداء فرحهم بكل نكبة تصيب العثمانيين بل تصيب المسلمين عامة فقد كان كثير من الناس يقرأون اخبار الحرب على صفحات وجوههم فان وجدوا وجوههم ناضرة مستبشرة كان ذلك اليوم خبر سقوط يانيه أو ادرنه أو اشقودره والا فان كانت وجوههم عابسةً باسرة كان ذلك اليوم ورود خبردحر العدو عن شتالجه او انهزام البلغار امام انور بك فى كاليكاتريا اوعدم تمام نكبة

اوفوز كيد دبر للمسلمين وقدكان بعض هؤلاء يقول لبعض ان فوز الدولة على البلغار هوفوز لها علينا وان هؤلاء الاتراك اذا انتصروا على البلقانيين يرجعون بالضرر الينا ومؤداه انهم يتمنون انكسار العساكر العثمانية هذه الحامية الاخيرة الباقية للاسلام كله والتي منها جيش عظيم من فتيان العرب ومن ابناء الشام عدا من غشى الحرب من متطوعي العرب من الشام والحجاز والعراق ومصر وافريقية من تلك البقاع التي تحقق اهلها بالعربية الصحيحة ولم يتلبسوا بالعربية الكاذبة التي مايقصدون بها الا الفتنة فليعلم الناس مبلغ صحة دعواهم من العربية ولا يخدعوا انفسهم بهم ومما يلحق بهذا الباب مقدار تلك الحمية التي كانت تظهر منهم على السنوسي وعرب طرابلس وبرقة فمنهم فريق بقي يستتر نوعاً وينشر بعض اخبار الوقائع التي كان الفوز فيها للمسلمين كما ينشر دعاوى ايطاليا بالفوز ولكن منهم قسماً سكت سكوتاً تاماً عن هذه الاخبار لايريد ان ينشر منها شيئاً الا اذا كان هناك تلغراف عن رومة بأن الطليان فقدوا في وقعة تاكنست مثلاً ٢٧ قتيلاً فقط والجنرال تورلي مع انه يكون الطليان قدفقدوا ذلك اليوم بضعة الاف وتكون النقالات الايطاليــة قد حملت الوفاً من الجرحى ولا يكون راكباً في العقل ان الجنرال يقع قتيلاً وهو في ساقة الجيش الا اذا اتت الهزيمة على الجيش كله ويكون بعض جرحى الطليان اقروا بالحقيقة سواء عن وقعة تاكنست أو وقعة الصفصاف أو وقعة وادي درنة التي غنم العرب فيها مدافعهم ولكن هذه الجرائد تعلم ان نشرهذه الاخبار ولو عن الصحف الاجنبية فيه تشديد لعزائم المسلمين فهي تجتنب هذا الباب كله كما انها تعلم ان تصديق الفظائع البلقانية مع وجود الدول العظام مهيمنة اليوم على العالم وكافلة لدول البلقان يؤدي الى نتيجة ان الحرب صليبية وان اوربا بعيدة عن ان تكون متحرية العدل والمساواة متحلية بحلية التمدن التي تحلها اياها هذه الجرائد وتدعو من ذلك اهالي الشرق الى اتباع نورها

ويا ليتهم اقتصروا فقط فى مسئلة السنوسى على هذا فلو كان ذلك لكان المرض اخف سلطاناً ولكنهم كانوا لا يرتاحون ايضاً الى ان تصل الى السنوسية الامدادات من اخوانهم المسلمين ولما حضر سيدى عبدالعزيز العيساوى وكيل الشيخ السنوسى الى الاستانة من قبل سيده وتشرف بمقابلة الحضرة السلطانية ثم جاء الى سورية قاصداً زيارة المدينة المنورة قابلت قدومه تلك الجرائد الاسلامية بكل فتور وكادت تتهكم به وتغمز فيه وبعضها تجاهل انه وكيل الشيخ السنوسى وزعم انه لم يتحقق صحة هذه الدعوى حال كونه محققاً عندها انه جاء من قبل سيدى احمد الشريف السنوسى وانه لا يقابل الخليفة الاعظم رجل مجهول غيرمحقق اصله وفصله ولما نزل سيدى العيساوى فى بيروت شاع انه قبض الفى ليرة احساناً من الحضرة السلطانية فاسرع بعض اولئك الصادقين باخبار بعض هذه الجرائد بذلك فكتبت الخبر من باب الاعتراض والانتقاد وعقبته بان الدولة تدفع مثل هذا المبلغ السنوسى مع ان المأمورين منذ بضعة اشهر لم يقبضوا رواتبهم فاخذ قنصل ايطاليا تلك الجريدة وارسل بها الى سفارته للاحتجاج على الدولة فانظروا الى مابلغ هؤلاء القوم من كراهية الدولة فقد اوصلتهم الى بغض كل من يلتف حول الخلافة من مسلمى الدنيا والى اشاعة الاخبار المضرة بالمجاهدين السنوسيين الذين لو فرض ان السلطان بصفة الخلافة احسن الى شيخهم بالفى ليرة لا تسمن ولا تغنى من جوع فليس فى ذلك محل للكلام وحتى لا لايطاليا التى تعلم ان الحرب لا تكفيها الفاليرة وهذا مما جعلنا نقول ان هذه الدعوى التى قاموا بها هى دعوة مضرة بالاسلام كله عرباً وعجماً ومن دواعى الاسف ان الجريدة التى اقدمت على هذه الكتابة هى اكثر جرائدهم اعتدالاً واحسنها مسلكاً ولكنها انقادت فى ذلك

لوسـواس رجل من نفس رجال الحكومة جاء عمداً الى ادارة الجريدة فاخبرها بالخبر واستكتبها اياه فبدلاً من ان يقال انه كان يجب اجزال صـلة هؤلاء الاخوان المجاهدين الابطال من الملة باضـعاف هذا المبلغ مراراً جزاء باهر ثباتهم الذى حير عقول الاوربيين وان لم تقدرالدولة على وفدهم فكان ذلك حقاً على الامة ذاتها حصل الاعتراض على صلة وكيل الشيخ السنوسى بالفى ليرة هذا المبلغ الزهيد بالنسبة الىعظيم اعماله فالى هنا وصلت الحالة الروحية بهؤلاء القوم وان كان هذا فعل خيارهم فما قولك بسفلتهم واشرارهم ومن افظع ما سـمعنا فى هذا الباب انه لما خرجت البارجة « حميديه » من الدردنيل وفعلت الافعال المدهشة التى عرفها القاصى والدانى واغرقت نحو اثنتى عشرة سـفينة للعدو وتأثرها الاسطول اليونانى مدة ثلاثة اشهر وزيادة فلم يفز منها بطائل حتى ورد فى تاريخ الحرب البلقانية لاحد الفرنسيس انه اذا كان هذا فعل طراد عثمانى واحد فكيف لو كان لدى تركيا اسـطول تام وما ذا كان يعمل ذلك الاسـطول وشاع يومئذٍ ان اليونان ظفروا بحميـدية واغرقوها وهلك قائدها رؤوف البطل الذى استحق هذااللقب بالفعل فكان لهذا الخبرونة فرح عند بعض هذه الفرقة لا يمكن ان توجد الا عند اخوانهم اليونان وعزى الى بعض مأمورى الحكومة فى بيروت من عبـارات التشفى بحميدية ما يدل على الدرك الاسـفل الذى وصـلت اليه اخلاق بعض العثمانيين فى هذه الايام السوداء ووالله قد عهدنا بعضهم يكرهون الدولة من قبل ولا يبالون باى مصـيبة انتهى بها الامر ولكن لم نعهد فيهم هذا التوهج كله فى البغض وهذا المروق الفظيع الشائن الذى هو عبارة عن خلع الرسن بالكلية الا من بعد ادبار الطالع العثمانى فى حرب البلقـان فاذا كانت الدولة قد حقت عليها الغلبـة باحتوائها على الامة

المزقة والتى فيها امثالهم فكان يجب ان نزداد عليها حنواً وبها استمساكاً اذ كان هذا الوقت اشد ماتنتبه اعصاب الولاء وتشتد اوتار العصبية ولعمرى فما هى اول هزيمة وقعت ولا هى باول قارورة كسرت ومازالت الدول تقبل وتدبر وتسعد وتشقى والايام هى كما قال الشاعر :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

ولقد قهرت المانيا فرنسا واخذت سلطانها اسيراً مع مئة الف عسكرى دفعةً واحدة وتوجت عاهلها فى بهو ملوك الفرنسيس بفرساى ودخلت عاصمة الفرنسيس وهم من اعظم امم الارض فى كل معنى فلم يوجب ذلك بغضاء الفرنسيس لوطنهم ولا يأسهم منه ولا تقصيرهم فى الدفاع والمراماة من دونه بل بذلوا النفوس والنفائس ذياداً عن حوزتهم وحفظاً للشرف الفرنساوى ودفعوا الغرامة الحربية فى اقصر مدة ممكنة مع ان انكسارهم كان اشبه بانكسارنا نتيجة غرورهم بانفسهم واتكالهم على عظمة اسمهم ونومهم عن الحيطة اللازمة والاعداء قد سهروا ولهوهم بالمشاغبات الداخلية والآخرون قد اتحدوا وكذلك دولة وثنية من اقصى المشرق اهلها من اصغر البشر جسوماً واضعفهم عضلاً وانباهم عن القسام وجوهاً قهروا اعظم دولة نصرانية فى العالم قهراً لم يحدث عن مثله التاريخ لانهم بطشوا بالروس فى جميع الوقائع براً وبحراً وسهلاً وجبلاً وكان الروس الذين يصدونهم احصى منهم عدداً وعليهم كوروباتكين افضل قائد روسى ومن اشهر قواد اوربا وهو الذى كان يبشر الروس بانه لابد ان يعقد الصلح فى طوكيو عاصمة اليابان فاكذبه الله وخيب آمال اوربا باجمعها فى هذه الحرب ومع هذا فلم يكره الروس دولتهم ولا مقتوا حوزتهم ولا ضنوا على حكومتهم بشئ

ولا يمنوا لها الكسر والخذلان الا اذا كان ثمة بعض العدميين الذين
لا يهمهم دين ولا وطن ولا دولة ولا عزة قوميـة ولا غير ذلك فهل
يريد ان يكون هؤلاء الجماعة عندنا بمثابة اولئك فى روسية ليقولوا لنا
ذلك ولعلهم يقولون ان الروس بعد هزيمتهم امام اليابان نهضوا لاصلاح
امورهم المختلة ومعالجة اداراتهم المعتلة ونحن انما نطالب بالاصلاح وننادى
بالاصلاح لاجل هذه الغاية والجواب لو كان ذلك كذلك لكانت المسئلة
مقصورة على طلب اصلاح ومناقشة حساب بدون شنآن وبغضاء وشماتة
بانتصار الاعداء على الاولياء لا بل على الابناء وكان الاخلاص للدولة
لا يخفى ولو تحت جعجعـة الانتقاد ثم ان الفرنسـيس والروس جادوا
بالاموال والمهج وانفقوا مما يحبـون حتى انقـذوا دولتهم من الورطة
ونفسوا عنهما مما كانتا فيه من الضـغطة فليخبرنا اصحابنا ماذا فعلوا هم
غير الطعن والتنفير والتهكم والازدراء وهل كان الاصـلاح عبارة عن
هذا فقط ام كان على الامة للاصلاح واجبات اخرى من بذل الاموال
والجود بانفس الاعلاق والذخائر لاجل وقاية الوطن من الخطر وتخليص
الامة من ربقة الذل التى تتهددها فمن منهم يقدر ان يقول انه قام باقل
جزء من هذا الواجب بعد تأخر الدولة فى هذه الحرب ولقـد عهدنا
وزارة محمود شوكت اصدرت سـندات بقرض داخلى لميرة العسـاكر
الذائدة عن حيـاض الوطن بعد ان حبس الاوربيون عنهـا الاموال
وتواطأوا على منعنا القروض اجباراً لنا للرضيخة بكل شئ وعقد الصلح
مع البلقانيين باى وجه كان فهل اشترى احد منهم شيئاً من سـندات
ذلك القرض الداخلى اوحث احد عليه مع علمهم بانه هو الوسيلة الاخيرة
لحفظ الشرف العثمانى وعقد الصلح على وجوه اقل بشاعة من ذى قبل
فلو كانت انتقاداتهم تلك وسخرياتهم واراجيفهم بالدولة مقرونة بالاعانة

للجيش والمساهمة فى القرض عن ايدٍ سخية وايدٍ مؤزر لصدقت
دعواهم بانهم انما يكرهون شكل الحكومة ولا يكرهون الدولة نفسها
ولكننا نراهم راجلين فى الاعانات فارسين فى الاهانات مقصرين فى الذب
عن الوطن بالفعل ومناصرة الدولة بالعمل مبرزين فى انتقادها بالاراجيف
ونشد الاصلاح من طريق الطعن والقذف ولم نجدلهم راس مال لهذه
الاصلاحات التى يبتغونها بدعواهم لاجل حفظ الوطن سوى تنفير العرب
من الترك وحط مقام الدولة فى اعين الامة والمداخلة مع الاجانب لزيادة
علو كلمتهم فى بلادنا كما انه لاشك يكون عقد ذلك المؤتمر المعهود بباريز
نفع فرنسا كثيراً فى مصالحها الاقتصادية والسياسية فى سورية وحمل الدولة
لاجل فض ذلك المؤتمر المنعقد باسم العرب على التساهل معها فى مطالب
كثيرة لم تكن لتتساهل بها لولا استظهار فرنسا عليها بالمؤتمر فى عاصمتها
وبرجاله يطالعونها باسرار بلادهم ويجعلونها مرجعاً بينهم وبين حكومتهم
هذا مارأيناه منهم الى الآن ومما يلجأ اليه بعض اولئك
المسفسطين فى الاعتذار عن عدم حميتهم على الوطن وتخلفهم عن رفد
الدولة باموالهم ان امثال الروس والفرنسيس يجودون على حكوماتهم
لكونهم موقنين بان اموالهم ستستعمل فيما دفعت لاجله وانه لايذهب منها
شئ سدى ولا تدخل بطون القائمين عليها من اولياء الامور وانه ما
ثبطهم عن الرفد والبذل سوى معرفة ابتلاع رجال الاستانة لتلك
الاموال وهذا عذر المتخلف الذى لايريد ان يقرض ولا ان يتبرع ولا
يهمه الشرف العثمانى ولا غيره ولكنه يخجل من الناس لكزازة نفسه
وقلة حميته فيظن انه اتى بشئ فى تشبثه بذيل ذلك العذر الذى هو
اوهى من بيت العنكبوت وادق من خيط باطل فانه لوشاء بعض ابناء
العثمانية التبرع على الدولة بمبالغ تبتاع بها بارجة حربية لما تعذر عليهم

ابتياعها رأساً وتقديمها للاسطول العثمانى الذى فيه ابطال كرؤوف ودارعة تفعل افعال حميدية ولو اراد احد اعانة الجيش بمال اوبزاد او بلباس لما تكاءده ايصال ماتسخوبه نفسه الى افراد الجند بدون اطالة الاخذ والرد فى المعاملات الرسمية وهذا لا يصعب على من اراد العمل وصحت نيته ولكننا لم نعلم من ابواب اصلاح الوطن الاباب التهكم بحكومتنا والازدراء بشأن دولتنا والتدمير على اخواننا والتفريق بين عناصرنا وادعاء ماليس فينا فاذاجئنا الى العمل تسللنا لواذاً وتفرقنا افلاذاً وظهرت هجنة اقوالنا بجانب قلة افعالنا وعلم ان انتقادنا حكومتنا ليس انتقاد نصح وان مخالفتنا ليست اجتهاداً فى المصلحة كما نقول بل ان انتقادنا انما كان طعن عدو فى عدوه وارجاف شامت بضده وان مخالفتنا انما كانت شقاً للعصا وتفريقاً للجماعة واننا نحن فى الحقيقة غير ما ندعيه واننا فى الرقتين وان غيرنا فى وادى الفضا بين الفريقين بون بعيد ولو كانت مسألتنا مسألة انتقاد للنصح ومعارضة من باب الاجتهاد لما خفيت علامات النصح ولوضحت غرر الصدق وحجوله ولتفجرت ينابيع الاخلاص من خلال الحركات والسكنات فقد عهدنا كثيرين من الفرقة الائتلافية اعداء الاتحاديين عندما احسوا باحداق الخطر بالدولة والوطن وضعوا ايديهم فى ايدى الاتحاديين ودخلوا فى جمعية « المدافعة الملية » وقالوا لا يصل بيننا وبينكم الخلاف الى مايمس وجود الدولة نفسها وهؤلاء مثل المشير فؤاد باشا المعروف بالمصرى وامثاله من اسود الاسلام كما انناوجدنامنهم من صار يراجع قيصر الروسية وفرنسا وانكلترة لمضافرته على الدولة ولو بمس استقلاله وهذه الطبقة تقرب جداً من بعض افراد اللامركزيين الذين عندنا وهم يظنون انهم يكنون سرائرهم ويخفون ضمائرهم ولكن عند الاحتكاك تلمع الحقائق

اذا اشتبكت دموع فى خدود ... تبين من بكى ممن تباكى

ولا يخفى انه كما كان فى الشام فرقة تدين بالفرقة والانفصال ورفض الوحدة العثمانية والاسلامية فان فى مصر ايضاً نفراً ينطوون على هذه المبادئ ويدعون الى الامتزاج بالاوربيين تحت ستار الدعوة الى المدينة ويثبطون عن مشاركة بقية المسلمين الخارجين عن مصر فى شئ بحجة التمحض فى الجنسية المصرية . وهؤلاء هم فى المصرية اشبه باصحابنا فى العربية لا تدعو كل فرقة الى ما تدعو اليه الا تفكيكاً لاوصال الاسلام ونثراً لهذا النظام البديع الذى هو عليه ولا يخشى الاجانب شيئاً خشيتهم من اجراء احكامه فلما وقعت غارة ايطاليا على طرابلس ظلماً وعدواناً وهاجمتها بغتةً وقام اهلها ينضحون عن استقلالهم توجع لهم العالم الاسلامى باسره ورفدهم اناس بالاموال واناس بالابدان واناس بالمعارف واناس بالمساعى وكان لمصر من ذلك النصيب الاكبر لتقدمها على غيرها مادةً ومعنىً ولكونها ام افريقية ومن مصر امتدت فتوحات الاسلام فى افريقية جميعها ولكون عرب مصر خاصة هم ابناء عمومات عرب برقة والجبل الاخضر والتكلالات بينهم شابكة والارحام متصلة فقامت مصر وقعدت لهذا الامر وجمع ارباب الحمية فيها الاموال الطائلة وعاونوا بها اخوانهم الطرابلسيين فى مصيبتهم هذه فلم يوجد معترض على هذه الهزة الكريمة سوى بعض تلك الفئة المصرية فى كتابات نشروها فى الصحف ساءت الناس عامتهم وخاصتهم وعادت على اصحابنا بالندم الا ان بعض هذه الفئة التى منها نجم اللامركزيون فيما بعد تلقوا ذلك الاعتراض المصرى بالقبول وحاولوا بثه بالشام فصادفه من التقبيح والتشنيع ما صادف فى مصر اخاه من قبل

ولقد نزل التهور باولئك الاغرار الى رقاعات هى مع تفاهتها تدل

على روح لا يرضاها كريم ولا عاقل لهذه الامة فكان حازم بك والى بيروت يضع امضاءه « ابوبكر حازم » فلبثت تلك الجرائد تقول ابوبكر ورأينا ابابكر وهذه أفعال ابى بكر مما يشم منه رائحة التهكم بكنيته بكثرة ما كرروا ذلك صباح مساء الى ان اضطرت احدى الجرائد الاسلامية ان تقول لاولئك مابا لكم تجاوزتم حدود الدولة والآن تجاوزتم حدود العقيدة فان الكنية التى جعلتموها هدفاً لسخرياتكم هى كنية رأس الخلفاء الراشدين ابى بكر الصديق قامع المرتدين رضى الله عنه فحسبكم من التهكم الهزؤ بحازم بك نفسه فاما بكنية ابى بكر فلا فان القليل من الازدراء فى هذا المقام كثير واغرب من هذا ان الجمعية الخيرية الاسلامية فى دار الخلافة انتدبت بعض المتقنين من حفاظ كتاب الله فى مصر لعلم التجويد فى جامع الفاتح وفى بعض مساجد اسكدار ولتصحيح قراءة حفاظ الاتراك وتعليمهم اللفظ العربى بالنغمة العربية فكان من بعض جرائد تلك الطبقة ايضاً ان نشرت شيئاً يشعر بالاستهزاء بعمل الجمعية الخيرية هذا وقالت انهم طلبوا من يقرأ القرآن على اللحن المصرى وكأن الاعتناء بحفظ القرآن وتجويده وتعليمه الاتراك سفساف امر يوجب تهكم تلك الطبقة العالية التى تدعى المدارك البعيدة والمعارف الزاهرة وكأن اصحاب هذه الصحف هم اعرق فى العربية نسباً واوفر فى اللغة ادباً من اعضاء الجمعية المشار اليها التى فيها من امراء العرب وغطاريفهم وفضلائهم واساطينهم مالا يوجد فى جمعية سواها

يدعون العثمانية ويتنصلون من تهمة النزوع الى الانفصال من الدولة واحد كبار المشتركين معهم المعارضين للحكومة صرح لاحد اقاربه من وزراء الدولة فى الوزارة السابقة انه كان مصطافاً فى قرية عاليه فجاءه فلان وفلان الخ من الوفد الذى ذهب الى باريز ودعوه الى الذهاب

معهم فقال لهم لماذا يجب السفر الى باريز فنحن نقدر ان نذهب الى الاستانة نفسها ونطالب بالاصلاحات هناك فلم يوافقوه على رأيه وبعد الاخذ والرد قالوا له نحن فى الحقيقة انما نريد الانفصال عن الاتراك هذه شهادة رجل منهم عليهم لايقدرون ان يطعنوا فيه وهو الى الآن معهم

ولقد شاع نقلاً عن اناس منهم انهم كانوا تحككوا بالانكليز وعرضوا عليهم اضافة سورية الى مصر فاجابوهم بان ذلك بعيد من فكر انكلترة فقالوا لهم ان سورية ذاهبة على كل حال فاولى بهم لن يقبلوا الحاقها بمصر من ان تأخذها فرنسا او المانيا فاجابوهم بانه ان حدث لسورية حدث فيبقى لها شأن خاص بها ولا يمكن الحاقها بمصر والخليق بهم ان يتفقوا مع دولتهم العثمانية فلذلك بعد ان كانت دعوتهم انكليزية عادوا فولوا وجوههم شطر باريز واخذوا يترددون على خارجية فرنسا ففرنسا قبلتهم نظراً لمرافقها فى سورية ولكن فرنسا اتفقت ايضاً مع الباب العالى ونالت امتيازات عديدة فى سورية لم تتوقف فى نيلها عند رضاهم ولا تفاوضت مع احد فيها سوى الحكومة الشرعية وهذا مالانزال نكرره على هذه الامة من انه لايجوز ان ندخل احداً بيننا وبين دولتنا فان اوربا لا تعرف سواها ولايضرنا ولاينفعنا غيرها

ومن جملة اسدائهم الحسن على الدولة انهم بعد ان برزوا الى هذا الميدان وجعلوا ديدنهم الطعن والقذف كانت هناك بعض جرائد مسيحية تجانف عن الازراء بالدولة علناً والحط من مقامها جهاراً رعاية لعواطف المسلمين فلما رأت هذا النفر من المسلمين خرجوا هذا الخروج على دولتهم الوحيدة تمهد عذرها فى اظهار ماعندها الان المسلم لايقدر ان يقول للمسيحى انه يجب ان يكون عثمانياً اكثر منه فبرز من اصحاب هذه

الجرائد ما لم يكن يظهر قبلاً من الشماتة والغمز والارجاف والازدراء وهي مع ذلك انما اقتفت اثارهم في هذه الخطة فاصبح شأن الدولة مضغةً في افواه الجميع من تأثير كتابات هؤلاء وهؤلاء الى ان قرأنا مرةً في احدى هذه الجرائد المطبوعة في لبنان ما معناه ان الدولة العثمانية ليست بشيء فمن جهة المال افلاسها معلوم ومن جهة السيف قد ظهرت قوتها امام اصغر الدول . . . . وانه لابدلها من قبول السيطرة الاجنبية شاءت ام ابت وغير ذلك من المقالات التي لاتحملها الطباع لصدورها في وسط بلادنا وتحت ظل هلالنا

ولقد اضطررنا ان نجاوب اولئك المغرورين المسلم منهم والمسيحي معاً اننا لاندعي كون الدولة انتصرت في هذه الحرب ولكن يلزم قبل هذا التشدق ان يعلموا مقدمات الحرب وكيفية مهاجمة البلقانيين للروملي والعساكر والتي زحفت دفعةً واحدة اليها واننا قبل اعلان الحرب كانت اوربا اشارت علينا بصرف عساكرنا من الحدود فصرفنا منها ١٢٠ الف عسكري مدرب وانهم ماكادوا يصلون الى بيوتهم حتى زحفت الدول البلقانيات الاربع فاستنفدنا جهدنا في الحشد فلم نقدران نحشد اكثر من ٣٠٠ الف عسكري اكثرهم من نفس الروملي اي انه فيهم البلغار واليونان والصربيون والارناووط الذين كان معظمهم يأبى القتال فاصبحت الدولة بجيشها هذا على مافيه تقابل ٩٠٠ الف عسكري عدا الاهالي الذين ثاروا من كل ناحية وانضاف الى ذلك سوءادارة الرجال الذين كانت في يدهم ازمة الحرب حتى تركوا العساكر اياماً بدون طعام والمدافع بدون قذائف وكذلك الخطأ في الخطة الحربية فانهم فرقوا الجنود لمقابلة الدول الاربع فلم يقدروا ان يقابلوا جيشاً من جيوشها الا بنحو ثلث عدده ومع هذا فلم يعهد ان دولة اتسق لها السعد في جميع ايامها

وانها لم تنهزم لهارابة قط حتى تغض هذه الجرائد من مقام الدولة لادبار طالعها فى هذه الحرب وكان عليهم ان ينظروا الى انه مع كل هذا التفاوت فى العدد ومع سوء الخطة الحربية التى سرنا عليها ومع خلل الادارة وفقد الميرة كافحنا الاعداء مكافحة تعلم نتيجتها من عدد قتلاهم الذى اربى على ٦٠ الف قتيل دون الجرحى وانه فى آخر الحرب ومع انكسار قوتنا المعنوية دحرنا الاعداء فى شتالجه اولاً وثانياً وحشدنا ٤٠٠ الف عسكرى وزحفنا بها الى ادرنه فى يومين واسترجعناها عنوة وتألبت علينا الدول الكبيرة والصغيرة لاخراجنا منها فابينا الخروج الا بالقوة واخيراً جاء البلغار الى الاستانة ورضوا بجميع شروطنا ولو علموا انهم يقدرون على مهاجمة الجيش الجديد الذى جهزناه لما وقفوا طرفة عين ولما سلموا لنا بادرنة التى فقدوا فى حصارها وحده نحو ٤٠ الف قتيل وجريح

ومن قرأ الجرائد العربية التى تصدر فى اميركا رأى فى بعضها من هذا المعنى الغرائب والعجائب وياليتها وقفت عند حد الاستهزاء بالدولة بل ظنت ان هذا هو الوقت لادخال سورية تحت الحكم الاوربى وكان هذا الباب مما فتحه اللامركزيون بايديهم فاذا طالعت تلك الصحف تجد هذا الطلب فيها صريحاً لا مخاتلة ولا مواربة وقد انتهت الى الشام ومصر نشرة مطبوعة فى نيويورك بامضاء «الجمعية الفينيقية» مآلها مطالبة الدول العظام بتخليص نصارى سورية من الحكم الاسلامى لأنه كما كان المسلم التركى وحشاً ضارياً فان المسلم العربى جاهل متعصب والنشرة مختومة بالرجاء من الدول ان تخلص نصارى سورية من الظلم الذى هم فيه كما انقذت نصارى البلقان ولعمرى ان اصحاب هذه النشرة كانوا اشرف نفوساً واصدق لهجةً من اولئك الذين ينطوون على سريرة

ويوردون بغيرها كأن يكون مقصدهم الفرقة تدريجاً بين العرب والترك فيوطئون لها بطلب الاصلاحات ويدعون انهم انما يبتغونها تقوية لظهر العثمانية وهم يسعون فى قصم ظهرها وكأن يكونون نابذين الاسلام ظهرياً ويقول احدهم امام شهود من حزبه ان كتاب فلان الانكليزى هو ابلغ من القرآن ويرفض الرابطة الدينية بين المسلمين فى خطابه ثم يأتى الى رجال الدولة فيطعن فى عقيدة رجل من مناهضى فسادهم المعبر عنه عندهم بالاصلاح ويجعل نفسه من علماء الاسلام

ان اصحاب النشرة الفينيقية لم يدعوا بما ليس فيهم فلا قالوا انهم عرب ولا بجحوا بغسان وقحطان ولا جددوا انساباً ولا اخترعوا تواريخ بل علموا ان ادعاء العربية والقحطانية لايقترن مع مطالبة تدخل اوربا ومع القول بأن المسلم العربى هو جاهل متعصب وانه هو والتركى سواء فى خبط النصارى بعسفه فرفعوا لواء الفينيقية التى ربما كانت اقرب الى الحقيقة فضلاً عن كونه نسباً لايستحي به بل محتداً يليق به الفخر وقاموا يطالبون بما يطالبون به بكل صراحة لايمشون اليه الضراء ولا يسرون حسواً فى ارتغاء على ان الذى جرأهم على بث هذه الفكرة ان هو الا قيام حركة اللامركزية فهذه ايضاً من فضائل اللامركزيين على سورية

واذا سألتهم هل يجوز عندكم هذا الكلام الذى صدر من بعض السوريين فى اميركا قالوا لك مامدخلنا بخطة غيرنا فنحن لنا خطة مرسومة ولم نقل اننا نريد احتلالاً اجنبياً لسورية واما غيرنا فهو مسؤول عن رأيه ولسنا بمسؤولين عنه فنقول لهم اذا كان ذلك كذلك فلماذا لاتبرأون من هذه الاقوال وتنشرون الكتابات المتضمنة الرد عليها فقد ملأتم الآفاق بالطعن فى الدولة فهلا دار فى خلدكم ان تطعنوا

فيمن يريد تسليم بلادنا لحكومة اجنبية فعند هذا يجاوبونك لاشغل لنا بهذا الامر وانما نحن مسؤولون عن بروغرامنا فقط

والصحيح انهم يخاطبون كل قائم ويراجعون كل ناعق وقد نقروا تلغرافات الى نيويورك يستعدون فيها هؤلاء القوم على الدولة باسم الوطن السورى وربما اذا قال لهم هؤلاء نحن لاندعوالى عربية بل الى فينيقية لاننا نعتقد كونها هى اصلنا الحقيقى اجابوهم نحن موافقون لكم ولسنا بمعارضيكم فى خطتكم الا اننا مضطرون لرفع لواء العربية استظهاراً بقوة الامة العربية التى لانقدر على الترك بدون تحريك عصبتها فقد ثبت ان بعض هؤلاء المصلحين يستبيحون كل وسيلة مهما باينت الحق فى سبيل الوصول الى غايتهم وقد عهدنا دعاتهم يتقدمون الى كل واحد من سراة البلاد أومن تجارها اومن علمائها اومن اكرتها ويخاطبونه فى عداوة الدولة باللسان الذى يعلمونه اقرب الى فهمه فان علموه ديناً متمسكاً بالشريعة اظهروا له الاتراك بمظهر الاستخفاف بالدين والاهمال للشرع الشريف وبكوا على الشرع وعقدوا مناحة الدين فان خالفهم فيما قالوه واظهر لهم مايعلم من تمسك الاتراك بالدين مما هو معلوم ومشهور قالوا له نحن لانعنى اتراك الاناضول ولا الاتراك القدماء فاولئك هم كما قلت ولكننا نعنى فرقة (جون ترك) التى هزأ منها فلان بالدين وقال فلان ماهو كذا وكذا الى آخر ماهناك فيقول لهم لو افتؤاخذ الدولة كلها والاتراك باسرهم بالحاد افراد قلائل عندنا فى العرب من هم اشد الحاداً منهم فيقولون له الا ان هؤلاء الملحدين من الترك هم الذين فى ايديهم زمام الامور اما الملحدون من العرب فلا بال لهم

واما اذا علموا مخاطبهم لايهمه الدين وكان ممن ينزع الى الجامعة الوطنية فانهم يحملون الترك وحزب الترك من العرب هم النافخين فى

بوق التعصب الديني والمفرقين بين الطوائف التي كانت تعيش اخواناً لولا فساد الترك ولذلك نهضوا هم واخذوا الطرق على هذا الفساد واقاموا الجامعة الوطنية مقام الجامعة الدينية التي كانت ولم تزل اصل بلاء الاسلام والتي اصبحت في عصر النور والحرية والمساواة من الامور التي يجب طرحها وهلم جراً من هذا البحر واذا كان المخاطب تاجراً لايكرثه شيء سوى شغله وتوفر ربحه قالوا له ان التجارة تعطلت بسوء ادارة الاتراك وضربوا له مثلاً برواج التجارة في البلدان التي احتلها الاجانب وابانوا له ما هناك من الفرق واذا كان من اصحاب الاراضي قالوا له كم عندك من الاراضي فيقول ٢٠ الف دونم مثلاً فيسألونه كم يأخذ منها سنوياً من الريع فيقول لهم الف ليرة مثلاً فيقولون له اراضيك هذه في سورية او في العراق توازي اربعة آلاف فدان في مصر والاربعة الالاف فدان في مصر تعطي صاحبها ٣٠ الف ليرة ريعاً سنوياً وهذا كله بالفرق بين ادارة الانكليز وادارة الترك واذا سمع الرجل ذلك ولم يكن يعلم اسبابه ولا مرجع الضرر فيه قال والله انهم لمصيبون وانقلب ناقماً حاقداً وخال انه بمجرد وضع سورية تحت سيطرة الاجنبي تصير غلة الفدان فيها ١٥ ليرة وانه مادامت الادارة في يد الدولة العثمانية فالتقدم مستحيل ومن غريب ما زينوا انهم دسوا الى السيد طالب الرفاعي في البصرة وعصابته هناك ان الدولة تواطئ الاجانب على بلاد الاسلام وتخلع الدين وما اشبه ذلك من الاقاويل التي يعلمون انها اعلق بقلوبهم من سواها فخرجت جرائد كثيرة في العراق ملأى بالتدمير على الدولة وعلى اهل الصليب معاً بحجة ان الاتحاديين يبيعون البلاد من الافرنج وتبارى الشعراء في نظم القصائد حثاً للامة على الدفاع عن الحوزة المحمدية فكان حركة هذه اللامركزية تتلون في كل صقع

باللون الذى يلائمه وتلبس لكل حالة لبوسها والمرمى واحد واهم باب من الابواب التى فتحوها على الدولة فى الواقع هو باب المقايسة بين بلادها وبلاد غيرها واظهار ما بينهما من الفرق فى العمارة وهو بحث دقيق ومزلقة مدحاض لا تثبت فيها الاقدم من كان راسخ الاطلاع عليماً بالتاريخ شادياً شيئاً من علم الاجتماع والسياسة فلذلك تجد اكثر مايدخل هؤلاء النفر على قلوب الناس من هذه الثلمة ولذلك نقف عند هذا الموضوع قليلا ونكرر ماقلناه قبلا وهو ان المسئلة الشرقية ليست الا عبارة عن مصارعة الصليب للهلال منذ ١٣ قرنا ومازال الاسلام يتقدم حتى فتح اكثر المملكة الرومانية الشرقية وقسماً كبيراً من المملكة الغربية وقبع اهل الصليب فى قطعة اوربا ثم طرأ على دول الاسلام العربية من الضعف والانحلال ما اوقف سيره فعادت الحرب بين الهلال والصليب سجالاً واخذ الصليب يسترجع من اصل ما كان فقده من املاكه كاسترجاعه بعض سواحل فرنسا وايطاليا وجزيرة سردانية وصقلية ثم الاندلس بتمامها ثم نظير استيلائه على قسم من افريقية نفسها وكغارة الصليبين على بر الشام ومصر والاناضول فكانت الدائرة او شكت ان تدور على الاسلام ويخسر اكثر فتوحاته ويعود الهلال كالعرجون القديم الا ان الله قيض له من دول الاكراد الايوبية ودول الاتراك السلجوقية ودول المماليك الجراكسة من اقاموا أوده ورأبوا صدعه وجاءت على اثر هذه الدول دولة ابن عثمان فى قلب الاناضول فاستصفت ملك الامبراطورية البزنطية فى آسية واجازت الى اوربا واوغلت فى الفتوحات الى بولونيا وحاصرت عاصمة النمسا مرتين وطردت الافرنج من جميع افريقية وكاد البحر المتوسط يعود بحيرة عثمانية وهى ان لم تقدر ان تسترد رأس اوربا الغربى من ناحية الاندلس فقد عاضها الله منه برأسها الشرقى

فى جزيرة البلقـان فهذا ماوصلت اليه دولة ابن عثمان من الضرب فى طول البلاد وعرضها وانتظام البرور والبحور بلبتهاوتزاحم ملوك الارض على بابها وبقاء جميع اوربا ترعد من خشيتها مماجعل دول اوربا تحاربها محاربات عامة وتصارعها مصارعات صليبية وتزحف عليها بقضها وقضيضها وتهاجمها فى برها وبحرها وتدس عليها الدسائس فى وسط بلادها وتغرى العجم المتمصرين للشيعة بالهجوم عليها من ورائها فكان تألب اوربا على هذه الدولة نحواً من خمسين مرة وهى قائمة بامر الهلال وحدها وهم امم لاتحصى ودول ضخمة وكل يوم قوتهم فى ازدياد وجدهم فى صعود وفى اوائل القرون الاخيرة تألقت فى آفاقهم انوار المعارف وتدرجوا فى المدنية وسددهم الله الى الاختراعات العظيمة التى كانت سلم ارتقائهم وينبوع ثروتهم هذا والحرب قداخلت ديارنا من العامر واعادت المدن الزاهية بلاقع وغلت ايدى الدولة عن الاشتغال بشئ سوى الدفاع عن حوضها ورد عواديهم عليها وصـار الضعف يجر ضعفه بعضه بعضـاً فى الشرق وصارت القوة تزيد بعضها بعضاً فى الغرب وكان من جملة منازع الدولة فى الحلم ومذاهبها فى العـدل عدم التعرض للطوائف الاجنبيـة الداخلة فى طاعتها بشئ من الاشياء لاسيما فى حالة العز والمنعة فبقيت من هذه الطوائف ملايين كثيرة فى الروملى والاناضول متحفزة كلهـا للانتقاض عند اول فرصة وكان وجود هذه الامم حرباً دائمة فى باطن الدولة فلم تأت الدولة بلية الا وهؤلاء مصدرها فلم تقدر الدولة ان تتوفر وهى منفردة وحدها بهذه المصارعة على توفية المعارف حقهـا ومباراة الامم الغربية فى مراقيها العلمية والصـناعية ولو تركت الدولة وشـأنها بضع سنين بدون حروب من الخارج وبدون فتن فى الداخل لسـارت فى طريق التقدم كما سار غيرها ولكن قياسها بغيرها فاسـد من وجوه

ومايتهيأ لدولة اوربية أتمامه وهي في ظل امانها وكهف سكونها وكنف دعتها لايتهيأ نظيره للدولة العثمانيـة التي لاتقدران تأمن الغـدر لحظة واحدة ناهيك تفرق بلادها وكثرة سواحلها وتعدد عناصرها واديانها والسـنتها وهذا قدكورناه لانلتمس لرجال الدولة عذراً على جمود لايفيقون من مرضه واهمال لايخلصون من تبعته بل لنقنع بعض الاغرار بأن لهـذه الحالة التي عليها الشرق كله اسباباً طبيعية اجتماعيـة وعللاً متسلسلة تاريخية وان ادوار الاقبـال والادبار التي تتعاقب على الامم لا تكون الانتايج مثل هاتيك المقدمات وانه لوقامت دولة اوربية عظيمة بالغة اعلى درجات التمدن مقام الدولة العثمانيـة بماهي فيه من المشـاكل والمعاضل وما عليها من العداوات المنصوبة والاطماع الهـافية من كل صوب لماتسنى الاصلاح الذي تبتغيه امتها ولسقط في يدها من اول يوم ولصاحت المدد المدد

واما التنظير بمصر وما ادراك مامصر فقد كان السـبب الاكبر في دخول هذا الوهم على الافكار واعتقاد بعضهم ان مجرد وجود الاجانب محتلين اومسيطرين يكون سبباً لفيض معين الثروة وامتداد رواق الامن والراحة وبلوغ معالي درجات العز والبسـطة ويذهب الواحد منهم الى مصر فيرى شوارع القاهرة ومبانيها الفخمة وساحاتها الرحبة وارصفتها الممدودة ويشاهد السيارات الكهربائية ذاهبـة جائية والقطر الحديدية متواصلة والعربات والحوافل تعد بالالوف والخلق مزدحمين في الاسواق والشـوارع كانهم يحشرون ضحى فيظن ان هذا العمران كله لم يكن الاصل الاصيل فيه سـوى وجود الانكليز وانه لولا الانكليز لم تكن مصر شيئاً مذكوراً

ولسناهنا نحاول غمط احسان الانكليز ولانتقص ادارتهم ولا الغمز

فى اقتدارهم وانكار ما اتوه من الاصلاحات اثناء وجودهم بمصر ولكننا نحب تنبيه المغرورين من الامة بظواهر الامور المنخدعين بحيل السماسرة المعهودين الى النقط الآتية

اولاً اجمع علماء الاجتماع ان اسعد سعادة تطمع بها امة وتبذل النفوس والنفائس من دونها بذل رخيص المتاع هى سعادة الاستقلال وهى التى بدونها لا يلذ الامة مال ولا ثروة بل كلما عظمت الثروة ازداد الحنين الى الجاه واشتدت الحسرة على الاستقلال فاذا فرضنا ان بلاداً شرقية ازدادت ثروتها وبهر انتظامها وكانت قد فقدت بمقابلة ذلك استقلالها فلا تكون قد اشترت هذه النعم بثمن بخس بل تكون قد اشترتها بضعف بل باضعاف قيمتها

ثانياً ان الزمان زمان تقدم فى كل بقاع الارض حتى ان البلاد العثمانية كان لها نصيب من التقدم رغم المشاكل والحروب التى لم تفارقها طرفة عين ولو كانت مصر بقيت بدون احتلال اجنبى لما كان يمكن القول بأنها تبقى على حالتها التى وجدت فيها منذ ثلاثين عاماً بل لاشك انها كانت سارت فى طريق التقدم من نفسها شوطاً بعيداً ولقد ترقت مصر فى ايام اسماعيل باشا ترقياً باهراً فى العلم والصناعة ولم يكن فيها سيطرة اجنبية

ثالثاً ان الشام ليست فيها ثروة مصر ولا يسار مصر ولكن ارضها لاهلها وجميع ما يملكه الاجانب من حدود العريش الى حدود مرعش لا يساوى فى الاراضى ملك فرد واحد من ذوى الاراضى فى سورية كعبد الرحمن باشا اليوسف فى الشام او اولاد محمد باشا المحمد في طرابلس الشام او الجابرى فى حلب مثلاً وكذلك لا ديون على سورية للاجانب باعتبار المجموع بل ديون سورية هى لاهل سورية والمال ينتقل من يد

الى يد وكلتاهما يد سورية عثمانية حتى التجارة فى مدن كثيرة كحلب وحمص ونابلس لاتدور باموال المصارف العمومية كالبنك العثمانى وغيره بل تجد الصيارف من اهل البلاد يدفعون جميع رؤوس الاموال من صناديقهم رأساً باستغنائهم عن البنوك الكبيرة تماماً فهل يمكننا ان نقول ان اراضى مصر باقية كلها لاهل مصر وهل يمكننا ان ندعى كون الديون التى على مصر البالغة ٢٤٠ مليون ليرة انكليزية لاتساوى نصف اطيان مصر بل تزيد على هذا المقدار اذا اعتبرنا انه لايوجد اكثر من ستة ملايين فدان من الطين وهل يمكننا ان نزعم كون الاهالى الوطنيين فى مصر لا يخسرون من مجموع اطيانهم سنةً عن سنة وانه اذا استمر الحال هذا طويلاً ربما خرجوا منها كلها واصبحوا اكرة عند الاجانب التى يكونون ملكوها وهل يمكننا ان نحكم بان الفوائض التى تدفعها حكومة مصر واهالى مصر للاجنبى كل سنة وهى معدلة باربعة وخمسين مليون ليرة لاتساوى مجموع محصول القطن المصرى بل تزيد عليه كثيراً اذاً لم يفدنا سير الفرارات الكهربائية فى شوارع القاهرة والاسكندرية ولا الانتظام الذى نشاهده فى ذلك القطر اذا كان هذا الانتظام وقع بهذا الثمن الهائل

رابعاً لا يمكن ان تقاس الشام بمصر لا فى قديم ولا فى حديث فى باب الثروة فلا يكفى الشام ان يأتيها اللورد فلان او المستر فلان ليبلغ بها تلك الدرجة العليا بمجرد سداد رأيه وسعة علمه فان دخل حكومة مصر هو نحو ١٥ مليون ليرة انكليزية وهى باستغنائها عن جيش مهم وعن استخدام اسطول تقدران تصرفها كلها فى ادارة داخليتها ثم انها كانت قد وفرت من المال المسمى بالاحتياطى نحو ٣٠ مليون ليرة انكليزية فصرفتها ايضاً فى الاصلاحات فلذلك لم يكن يكفى لمصر اللورد كرومر

لولا وجود اللورد « نيل » بجانبه ولو كان كل بلد يحتله الاجنبي يصير عامراً وينقلب حدائق واعناباً للزم ان تكون قبرص مثل مصر والحال انها ادنى درجة في العمران من سورية بل من ادنى بقاع سورية

خامساً اذا لحظنا تقدم المحاصيل في بر الشام في هذه السنين الاخيرة والارتقاء المدهش الذي حصل في اثمان الاراضي بحيث ان المكان الذي كان يساوي منذ ٢٠ سنة نحو ٢٠ ليرة صار يساوي اليوم ٥٠٠ ليرة احياناً ١٠٠٠ ليرة و ٢٠٠٠ او ٣٠٠٠ الاف ليرة في بعض الاصقاع المجاورة للابنية واذا نظرنا الى كون هذا الارتقاء عاماً لم ينفرد به بلد عن بلد بل هو من حدود مصر الى حدود اطنه ومن البحر الملح الى حدود تدمر على وتيرة واحدة علمنا الظلم الفاحش الذي يقع فيه القائلون بأن البلاد تسير الى الوراء اوانها لم تتقدم الا تقدماً بطيئاً ومما لاجدال فيه ان سكة حديد الحجاز وحدها زادت في اثمان الاراضي بما قيمته نحو ١٢ مليون ليرة سواء في سورية وفلسطين اوفي الحجاز

سادساً نعود فنقول اننا بدون انكار شيء من حسن ادارة الانكليز الذين هم ارقى امة مستعمرة لا نسلم بكون مصر لم تكن حافلة بالعمران الا في اثناء الاحتلال فقد كان العمران زاخراً في مصر منذ الآف من السنين ولما دخل عمرو بن العاص مصر كان خراجها اثنى عشر الف الف دينار ومما ورد في التواريخ والاثار الباقية تؤيد صحته ان بعض فراعنة مصر جبى خراج مصر اثنين وسبعين الف الف دينار (أي نحو ٣٠ مليون ليره) و ان من عمارته انه الرسل ويبة (الويبة ستة امداد) قمح الى اسفل الارض الى الصعيد في وقت تنظيف الارض والترع من العمارة فلم يوجد لها ارض فارغة تزرع فيها وذكر انه كان عند تناهي العمارة يرسل باربع ويبات برسيم الى الصعيد والى

اسفل الارض والى اى كورة فان وجدلها موضعاً خالياً فزرعت ضرب
عنق صاحب الكورة وقال عمرو بن العاص للمقوقس انت وليت مصرفبم
تكون عمارتها فقال بخصال ان تحفر خلجانها وتسد جسورها وترعها
ولا يؤخذ خراجها الامن غلتها ولا يقبل مطل اهله ويوفى لهم بالشروط
ويدر الارزاق على العمال لئلا يرتشوا ويرتفع عن اهله المعاون والهدايا
ليكون قوة لهم فبذلك تعمر خراجها انتهى قال ابن وصيف شاه وكان
منقاوس قسم خراج البلاد ارباعاً فربع للملك خاصة يعمل فيه ما يريد
وربع ينفق فى مصالح الارض وما تحتاج اليه من عمل الجسور وحفر
الخلج وتقوية اهلها على العمارة وربع يدفن لحادثة تحدث ونازلة تنزل
وربع للجند وكان خراج البلد ذلك الوقت مائة الف الف وثلاثة آلاف
الف دينار ويقال ان كل دينار عشرة مثاقيل من مثاقيلنا الاسلامية
قالوا وارتفع مال البلد على يدندارس مائة الف الف دينار وفى ايام كلكن
بن خربتا بن ماليق بن ندارس مائة الف الف دينار وبضعة عشر
الف الف دينار وكان فرعون الاول يجبيها تسعين الف الف دينار
يخرج من ذلك عشرة آلاف الف دينار لمصالح البلد وعشرة آلاف الف
دينار لمصالح الناس من اولاد الملوك واهل التعفف وعشرة آلاف الف
دينار لاولياء الامر والجند والكتاب وعشرة آلاف الف دينار لمصالح
فرعون ويكنزون لفرعون خمسين الف الف دينار وبلغ خراج مصر
فى ايام الريان بن الوليد وهو فرعون يوسف عليه السلام سبعة وتسعين
الف الف دينار فاحب ان يتمه مائة الف الف دينار فامر بوجوه
العمارات واصلاح جسور البلد والزيادة فى استنباط الارض حتى بلغ ذلك
وزاد عليه ووجد فى كتاب قبطى باللغة الصعيدية ونقل الى العربية ان مبلغ
ما كان يستخرج لفرعون مصر بحق الخراج الذى يوجد وسائر وجوه

الجبايات لسنة كاملة على العدل والانصاف والرسوم الجارية من غير اضطهاد ولا مناقشة على عظيم فضل كان فى يد المؤدى لرسمه وبعد وضع مايجب وضعه لحوادث الزمان (المعبر عنه فى ايامنا هذه بالاحتياطى) رفقا بالمعاملين وتقوية لهم من العين اربعة وعشرين الف الف دينار واربعمائة الف دينار ومن جهات مصر وذلك مايصرف فى عمارة البلاد لحفر الخلج واتقان الجسور وسد الترع واصلاح السبل ثم فى تقوية من يحتاج التقوية من غير رجوع عليه بها لاقامة العوامل والتوسعة فى البذار وغير ذلك وثمن الآلات واجرت من يستعان به من الاجراء لحمل الاصناف وسائر نفقات تطريق اراضيهم من العين ثمانمائة الف دينار ولما يصرف فى ارزاق الاولياء الموسومين بالسلاح وحملته والغلمان واشياعهم مع الف كاتب موسومين بالدواوين سوى اتباعهم من الخزان ومن يجرى مجراهم وعدتهم مائة الف واحد عشر الف رجل من العين ثمانية الاف الف دينا ولما يصرف فى الارامل والايتام فرضاً لهم من بيت المال وان كانوا غير محتاجين اليه حتى لاتخلو آمالهم من بر يصل اليهم اربعمائة الف دينار ولما يصرف فى كهنة برابيهم وائمتهم وسائر بيوت صلواتهم من العين مائة الف دينار ولما يصرف فى الصدقات مائة الف دينار ويحصل بعد ذلك مايتسلمه فرعون فى بيوت امواله عدة لنوائب الدهر وحادثات الزمان من العين اربعة عشر الف الف دينار وستمائة الف دينار

وكان عمرو بن العاص يبعث الى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج اليه وكانت فريضة مصر لحفر خلجها واقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة الف وعشرين

الف رجل معهم الطور والمساحى والاداة يعتقبون ذلك لايدعون ذلك صيفاً ولا شتاءً ومما يروى من النكات عن ثروة مصر

انه لماذهب المأمون العباسى الى مصر سار فى قراها وكان يبنى له فى كل قرية دكة يضرب عليه سرادقه والعساكر من حوله وكان يقيم بالقرية يوماً وليلةً فمر بقرية يقال لها طاء النمل فلم يدخلها لحقارتها فلما تجاوزها خرجت اليه عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية وهى تصيح فظنها المأمون مستغيثةً متظلمة فوقف لها وكان لايمشى ابداً الا والتراجمة بين يديه فذكروا له ان القبطية قالت ياامير المؤمنين نزلت فى كل ضيعة وتجاوزت ضيعتى والقبط يعيرونى بذلك وانا اسأل امير المؤمنين ان يشرفنى بحلوله فى ضيعتى ليكون لى الشرف ولعقبى ولا تشمت بى الاعداء وبكت بكاءً كثيراً فرق لها المأمون وثنى عنان فرسه اليها ونزل فجاء ولدها الى صاحب المطبخ وساله عمايحتاج اليه من كل الاصناف فاحضر ذلك اليه بزيادة وكان مع المامون اخوه المعتصم وابنه العباس واولاد اخيه الواثق والمتوكل ويحيي بن اكثم والقاضى احمد بن داود فاحضرت لكل واحد منهم مايخصه على انفراده ولم تكل احداً منهم ولا من القواد الى غيره ولما عزم المأمون على الرحيل حضرت اليه ومعها عشر وصائف مع كل وصيفة طبق فلما عاينها المأمون من بعد قال قدجاءتكم القبطية بهدية الريف الكامخ والصحناه والصبر فلما وضعت ذلك بين يديه اذا فى كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وامرها باعادته فقالت لاوالله لاافعل فتأمل الذهب فاذا به ضرب عام واحد كله فقال هذا والله اعجب ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك فقالت ياامير المؤمنين لاتكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا فقال ان فى بعض ماصنعت لكفاية ومانحب التثقيل عليك فردى مالك بارك الله فيك فاخذت قطعة من

الارض وقالت ياامير المؤمنين هذا واشارت الى الذهب من هذا واشارت الى الطينة التى تناولتها من الارض ثم من عدلك وعندى من هذا شئ كثير فأمر به فاخذ منها واقطعها عدة ضياع واعطاها من قريتها طاء النمل مائتى فدان بغير خراج

وبلغت مصر فى الدولة الفاطمية مبلغاً من العز والقوة يحار له العقل حتى قيل انه لم يطأ الارض بعد جيش الاسكندر المقدونى اكثر عدداً من جيوش المعز الفاطمى وذكر بعض المؤرخين انه لما خرج العزيز بن المعز الى الشام كان حمل خزانة الخاص عشرين الف جمل خارجاً عن خزائن القواد واكابر الدولة ولا ينكر ان الجباية فى مصر لم تبلغ فى الاسلام مابلغته فى ايام الفراعنة بل كانت الف الف دينار و ١٤ الف الف دينار ثم انحطت الى ٤ و ٥ الاف الف دينار وذلك بتقلص العمران وتوالى الحروب والنوائب وهى عين الحروب التى كانت سبب محنة الدولة العثمانيه وغلت يدها عن اصلاح بلادها وقال المقريزى ان سبب اتضاع خراج مصر بعدما بلغ مع الروم فى آخر سنة ملكوا قبل فتح مصر ٢٠ الف الف دينار ان الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان ينفق فى كلف عمارة الارض فانها تحتاج ان ينفق عليها مابين ربع متحصلها الى ثلثه وانه لايتم خراجها حتى يكون فيها اربعمائة الف وثمانون الف حراث يلزمون العمل فيها دائما

وجبى عمرو بن العاص من الاسكندرية وحدها ستمائة الف دينار لانه كان بها ٣٠٠ الف من اهل الذمة فجعل على كل منهم دينارين دينارين وقد اتفق المؤرخون على ان مصر هى كنانة الله فى ارضه وكرر ابن خلدون مراراً ان العمران تناقص من كل المشرق الامن مصر وعليه يمكننا ان نقول ان الانكليز وان كانوا مبرزين فى حلبة

الادارة فربما لم يكونوا بلغوا بمصر الغاية التى بلغتها مصر فى القرون الاولى وان ليس لاحد فضل على مصر بعد الله تعالى سوى هذا النيل المبارك وان مصراً معروفة بخاصة الثروة والغنى وطاعة اهلها للملوك منذ دحى الله هذه الارض كما ان الشام معروفة بالنجدة والعقل مع حب الفتنة حتى بالغ بعضهم فقالوا سئل كعب الاحبار عن طبائع البلدان واخلاق سكانها فقال ان الله لما خلق الاشياء جعل كل شئ لشئ فقال العقل انا لاحق بالشام فقالت الفتنة وانا معك وقال الخصب انا لاحق بمصر فقال الذل وانا معك وقال الشقاء انا لاحق بالبادية فقالت الصحة وانا معك ومراده بالذل فى مصر ما ركب فى طباع اهلها من الدعة وطاعة الامراء

فاما المفسدون فيخيلون لاهل الشام انه لوصارت بلادهم الى ادارة اوربية لم تكن تدر فقط لبناً وعسلاً بل كانت تدر فضة وذهباً والحقيقة انها لو تسلمتها ادارة اوربية لما درت على اهلها من الفضة سوى فض قوتهم ومن الذهب سوى ذهاب عزهم وانها كانت تصير لقحة در للاجانب يحلبونها لانفسهم ويردون اهلها غرباء فى نفس ارضهم ويزاحمونهم فى كل مرفق جل اودق وانهم ليزاحمونهم الآن وهم ليس لهم من الامر شئ فكيف ان صاروا اصحاب الشأن لا سمح الله ثم ان من مزايا مصاحبة الاتراك انهم لم يكونوا امة متجرة مولعة بالاخذ والعطاء فكان لاهل سورية معهم الحرية التامة وخلو الميدان لاجل الكسب والربح بدون مراقب ولا مزاحم ولم يكن للاتراك فيها سوى الولاية والقضاء فى المراكز الكبرى وانتدح لهذه الامة السورية سلالة العرب النجباء والفينيقيين العظماء ان تنمو وتزداد وتكون سيدةً فى بلادها فاما لو دخلت سورية تحت حكم اجنبى فانه لا يكون فقط للاجانب الولاية والقضاء والجيش

والسيف والقلم بل تكون لهم التجارة والصناعة والزراعة ولايمضى وقت طويل حتى يصير اهل سورية خولاً لهم وهم فى وسط بلادهم وحتى يندموا على فارط تهورهم وسابق غرورهم ويبكوا على حكم الاتراك الحالى ويلعنوا اولئك الدعاة الذين كانوا السبب فى سقوطهم

وسيقول المغالطون ومن قال لك اننا نحن نبغى الاجانب فى بلادنا افلم تران المؤتمر العربى فى باريز قرر مناهضة الاحتلال واننا نحن اهل سورية لا نريد الاوربيين ولا الاتراك وانما نريد ان نكون حاكمين على بلادنا بانفسنا

قلنا وهكذا كان يقول عرابى وجماعته فى مصر نحن نريد تحرير مصر من حكم الترك والجركس وان تكون مصر لاهلها وكذلك نقاوم كل سلطة اجنبية وكان عند عرابى لما قام يقول هذا القول ملك مصر وخزائنها وملايينها وجيشها وكان اعز قبيلاً من اللجنة « العليا » وكان مركزه دواوين مصر وقصورها لا قهوة « السبلاندبار » فهل تم له مامنى به نفسه هو وحزبه ام كانت النتيجة ان مصر خرجت من حكم الترك والجركس ومن حكم العرب والقبط معاً

ان قول بعض الطلبة فى باريز اننا قررنا مناهضة الاحتلال وان كان جميلاً فى ذاته وكان بعضهم صادقاً فى دعواه فلا يمنع اساطيل الاجانب ان تنزل العساكر فى سواحل الشام عندما ترى الفتنة فى البلد والاهالى على دواتهم ولو احتج عليها المؤتمر العربى نفسه واكدت احتجاجه اللجنة العليا بعينها ونخشى ان نرى انفس الذين قرروا المناهضة المذكورة مهطعين يومئذ الى البحر يرحبون بالعساكر المحتلة الآتية بزعمهم بالحضارة والمدنية وبالعدل والانسانية وتنسخ يومئذ مدافع الاسطول المادة المذكورة من بروغرام المؤتمر العربى (لا ارانا الله

ذلك اليوم) ويدافع عن البلاد الاتراك والذين قالوا عنهم انهم حزب الاتراك من العرب ورموهم بالخيانة اولئك الذين عرفوا مذاق علو الهمة وفهموا معنى الوطنية والاستقلال ولم يسلوا انفسهم بالاقاويل الفارغة وبالاصلاحات التى ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب

ومن المبادئ المؤلمة التى زرعوها فى هذه الملة وهذا الوطن مسئلة المهاجرين التى كانت من جملة اعراض المرض الاجتماعى الذى ظهر فى جسم هذه الامة فقد ذكروا فى نشرتهم البارزية ان من مواضيع المؤتمر العربى مسئلة المهاجرين من سورية والى سورية فاما من سورية فانه من الزم الامور حقاً تفكر المفكرين بوضع حد لهذه المهاجرة التى كادت تخلى البلاد من السكان والتى تكاد تحرمها الطبقة العاملة من اهلها وتحرم الدولة الاموال والرجال وكان على محبى الوطن ان يطالبوا الدولة بماشاء وامن الاعمال التى يرجى بها وقف هذا السيل فاما المهاجرة الى سورية فكنا نظن انهم نظراً لخلو البلاد واتساع الارض وقلة النفوس يطالبون الحكومة بارسال قسم كبير من مهاجرى الروملى اليها حباً بعمارة الخالى منها ونظراً لما يقال دائما من ان سورية كانت قائمة ببضعة عشر مليوناً من الخلق فلما اديل للاتراك خربوها وصار اكثرها قفاراً وصحارى فما كان اجدرنا نحن اليوم وقد نهضنا لاجل اصلاح بلادنا بان نسعى فى زيادة عدد الساكن والاستظهار على الارض بوفرة الحارث والعامل لاسيما وان الدولة قد نقلت الى سورية طوائف من الجركس والشاشان والبوشناق واهل كريد ومن المغاربة فلم يكن من وجودهم فى بلادنا سوى زيادة الخير والبر واحياء الاراضى الموات وايناس القفار الموحشة وقد نزلت دمشق اصناف عديدة من المهاجرين وعمرت بهم حارة كبيرة فى الصالحية فهل ترتب على مجيئهم شئ من الضرر فى دين اوفى دنيا

ام كان ذلك من جملة اسباب العمارة وعمر الجراكسة قسماً من قضاء القنيطرة وزاد بهم ارتفاعه وتوفرت غلته وكذلك كانت عمان قدخربت من قرون عديدة وصار واديها مفترساً وعشاً لاهل الدعارة فلما نزلها الجركس صيروها قصبة كبيرة وعمروا قرى عديدة فى جوارها فامنت السوابل وازداد عمران البلقاء الخصيبة ورغبت البوادى فى الحضارة والزراعة وحذا الاهالى حذو المهاجرين فى الشغل وتركوا البطالة فطبقوا جانباً كبيراً من الارض بالعمل وانتشر المهاجرون فى جوار دمشق واطراف الغوطة وعمروا قرى من حمص وحلب وحماه وفلسطين ونزل طائفة من الجركس فى ضواحى طبريه من عمل الاردن واما المغاربة فعمروا قرىً من الغوطة ومن طبرية ومن غور الحولة ومن حوران ومن ساحل عكا وازداد بهم عدد اهل دمشق وكثير من مدن سورية وبالاجمال فان مجئ المهاجرين الى بلادنا هو من اوثق اسباب عمرانها وانجع وسائل ايطانها وان قيل انهم يأخذون جانباً من الاراضى التى كان يمكن ان يحرثها الاهالى الاصليون فلعمرى مهما اخذوا من الاراضى الخالية فلن تضيق الارض على الاهالى الاصليين بما رحبت بل هى بقدر كثرة الساكن تزداد ريعاً وتغلو ثمناً وبجيرانها تغلو الديار وترخص ولكن من جملة عوارض المرض الذى طرأ على ارواحنا هذا العام المشؤوم ونوبات هذه الحمى التى وفدت على اخلاقنا على اثر انكسارنا فى الحرب البلقانية الاخيرة ان كان اول شئ فكروا فيه عندما بلغتهم المصائب المحرقة للاكباد التى حلت باخواننا مسلمى الروملى ان الدولة لابدوان تضطر الى نقل جانب منهم الى اطراف الشام فتحفزوا سلفاً للاعتراض على ذلك ولردهم منها ودار الكلام فيما بينهم فى هذا الامر وشرعوا يدوكون فيه كأنه من المسائل المجحفة بحقوق الوطن خاصة

والعرب عامة ولما اجتمع مؤتمرهم هذا فى باريز طرحوا هذه المسئلة فى المذاكرة وانكروا قبول المهاجرين فى سورية انكاراً مطلقاً وقام احد عقلاء المسيحيين فابدى مخالفته لرأيهم هذا بحجة ان البلاد محتاجة الى السكان فلم يستمعواله ونضح اناؤهم بمافيه من الرأفة والرحمة ومن الاعتدال والحكمة . . . . . . وغلب رأى اكثرهم على رأى اقلهم وهو منع من يقصد اكناف سورية من مهاجرى الروملى وكل مهاجر غريب عنها ولو كان فى ذلك مافيه من مخالفة الشرع الاسلامى بل ومخالفة الشرع الانسانى بل مدابرة مبادئ الاقتصاد السياسى التى يكادون يجعلونها لانفسهم شرعاً ويتخذونها صلاةً وصياماً ونسكاً ومحيى ومماتاً ولو فقهوا لعلموا انهم لو عملوا بمبادئ القرآن وحدها لكانوا اول الاقتصاديين السياسيين واغنى الاغنياء ولرأوا ان الامة التى لاتجمعها مثل تلك الرابطة القوية ولاتنظمها هاتيك الاخوة التى لاانفصام لعروتها توشك ان تتخاذل اعضاؤها وتتفكك اجزاؤها وتتبع خسارة دينها بخسارة دنياها وتعيش فى افقر الفقر واذل الذل (خسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) وانه لم يكن القرآن سببا لشقاء هذه الامة بل انما كان السبب فى شقائها هو الصدود عنه والاكتفاء منه بمجرد الحفظ دون العمل الا وانه لم يقع فى خاطر الدولة ان تأتى بمهاجرى الروملى الى برالشام لان عندها من الاراضى الخالية والسهول التى اكملت تجفيفها فى الاناضول مايقوم باضعاف اضعاف اولئك المهاجرين وهى الآن تفكر فى وضع طائفة كبيرة منهم فى ضواحى الاستانه نفسها وفى ولاية ادرنه بعينها فاما لو خطر فى بال الدولة ان تنقل الى سورية بعض اولئك المساكين الذين ساقهم نحس الطالع ان يكونوا من هذه الامة الغافلة الجاهلة بحقيقة مصالحها الى اطراف الشام وان

تستحي بقية سيوف البلغار والصرب واليونان باقطاعهم بعض مهـامه الشامات التى ليس فيها ساكن ولا أنيس الا اليعافير والا العيس فاى ضرر فى ذلك على اهالى سورية واية غضاضة تلحقهم من هذا الامر حتى يقوم بعض اولئـك الذين انقلبت قلوبهم كالحجارة اواشد قسـوة فيقولوا غداً يندفق على الدولة سيل مهاجرى الروملى فتسوق الينا منهم الوفاً يأتوننا بشقائهم نعم لوكان اولئك المهـاجرون ارمناً كماهاجر منهم الوف الى حلب الشهبا، لم يكونوا ممن يأتون سورية بشقائهم ولا كانت ثقلت وطأتهم على احد من هؤلاء بسبب نعمة كونهم نصارى اولو كان المهاجرون الى بلادنا من السـادة الاوربيين لما توقف احد عن القول بان هذه منة من جلائل المنن التى اسبغها الله على عباده اهل سـورية بان جعل بين ظهرانيهم من يعلمهم الكتـاب والحكمة ويزكيهم ويلقح بلادهم بمصل الرقى الحقيق ولو كانت الحقيقة انه مايجئ الى بلادنا الا ليزاحم اهلها على خيراتها ويضع حجر اساس عبوديتهم بيده وتصـور ايها القارئ رجلاً عثمانياً بل رجلاً يزعم كونه مسلماً بل رجلاً يزعم كونه انساناً يسمع بخبر اناس كانوا وادعين فى اوطانهم ظانين بانهم سواء انتصرت الدولة العثمانية ام انكسرت فلاخوف عليهم لانهم عزل من السلاح قارون فى بيوتهم فلما تقهقر الجيش العثمانى بسوء ادارة الوزارة الائتلافية دخل عليهم اولئك الوحوش البلقانيون الذين لايشبهون بنى آدم الا فى الصورة فقط فذبحوا شبانهم ذبح الشياه وخضبوا شيب الشيوخ بدم افلاذ اكبادهم وفسقوا بعقائل الصون وكرائم الستر اللائى كن لايرين الشمس الا من كوى المقاصير بحضور بعولتهن وآبائهن واخوانهن واردفوا هذه المعرات التى الموت من دونها بقتل رجال اولئك المصونات وسبوا البنات والاطفال وبقروا بطون الحوامل وتقاسموا اعراض مسلمى الروملى كما

تقاسموا اموالهم وعروضهم واحرقوا مساكن المسلمين وربما جمعوهم الى المساجد واحرقوها بهم واحرقوهم بها ولم يدعوا فادحة ولا فظيعة الاوقد ارتكبوها فيهم وقلبوا مساجدهم كنائس وحملوهم على تبديل دينهم بالسيف حتى نصروا منهم بهذه الصورة مئات الالوف وتصور ذلك الرجل الذى يدعى انه مسلم بل لا يكثر عليه ان يمنح الاسلام من يشاء ويمنع الاسلام من يشاء. يقول لو جاءنا نفر من هؤلاء المنكوبين الى سورية لما قبلناهم بين ظهرانينا ولا يعنينا من امرهم شئ وسيان عندنا هتك البلغارى اعراضهم ام احترمها ولا فرق عندنا بين ان يصيروا نصارى قسراً ام يبقوا مسلمين وبالاختصار فاننا لا نريد ان نرى احداً من هؤلاء المهاجرين فى بلادنا مهما بلغ بهم البؤس والشقاء لاننا لا نريد ان نشاركهم بشئ من آلامهم حتى ولا نريد ان نظهر ادنى توجع لاحوالهم لئلا يرمينا بعض متعصبى الافرنج او متعصبى النصارى على الاطلاق بتهمة التعصب الاسلامى الذى اول علاماته عندهم ان يحزن المسلم لمصائب المسلمين اوان يستثقل الذل للاجنبى فكل من كان عنده مثل هذا الشعور من المسلمين دعوه متعصباً وجعلوه عرضة مطاعنهم وشتائمهم واعطوه لقب « مفرق »

والحقيقة انه لا يوجد مسيحى فى الدنيا شرقياً كان اوغربياً الاوهو فى نفسه يعلم ان جميع ماحله النصارى بمسلمى البلقان هومما لا تحتمله النفوس البشرية وان كل مسلم يسايرهم بعدم الانتصار للمنكوبين والتأثر من اخبارهم وبعدم الاحتجاج على ظالميهم بسيف ام بقلم فانه فى نظرهم ساقط المروءة والفتوة معدود من سفلة الهيئة الاجتماعية ولو تخيل نفسه راقياً ولقبوه هم متمدناً

ومما يؤسف نقله ويجرح فى السمعة اثره مابلغنا من كون بعض

المهاجرين الذين القوا بانفسهم فى البواخر لايلوون على شئ طالبين بلاد الاسلام مروا بسواحل الشام وهم يتضورون جوعاً لعدم ملكهم مايمسك رمقهم فلما نزلوا الى البر اعترضوا على نزولهم فانصرفوا وهم فى البواخر عيال على من هو مسافر فيها من الافرنج الذين لم يتركوهم يموتون جوعاً

انظر الى هذا والى مثله من آثار هذه النزعة المؤلمة التى هى من اعظم علامات الانفكاك والسقوط وقابله بما فعله كبار المصريين وصغارهم مع مسامى الروملى الذين ليسوا باقرب الى مصر مماهم الى الشام وماتقلوه من مهاجريهم الوفاً مؤلفة من سلانيك ومن قواله الى ازمير والى مرسين والى الاسكندرية وماامسكوه من ارماقهم وانعشوه من حشاشاتهم وجبروه من خواطرهم وكفكفوه بجميل الصنع من دموعهم ومانالوه بذلك من جمال الاحدوثة فى الشرق والغرب وما كسبوه من عظيم الحرمة عند الوطنى والاجنبى وعند ذلك تعلم ضرر تلك الفلسفة الكاذبة التى يدعيها بعض أدباء السوريين ويحبون ان يعملوا بها وان يحملوا سائر وطنهم عليها كنا مرة نحادث بعض اولئك المرضى فى عقولهم فقلنا له افلا ترون قبول المهاجرين موافقاً لمصلحة البلاد من حيث انه يزيد عدد السكان ويضاعف سواد العامل فأجابنا كلا فاننا لانحب ان يكون بيننا غرباء ونريد ان تبقى البلاد لاهلها فقلنا له فما قولك بمهاجرى المغاربة وهم عرب مثلنا فقال تلك مسئلة فيها نظر ثم خاف ان تقوى حجتى عليه من جهة مناقضة قوله لدعوى العربية والعرب فعاد قائلاً اما هؤلاء فنقبلهم عندنا لدى الضرورة على اننا اضطررنا ان نصرح له حينئذ بان المهاجرين من اى قبيل كانوا اذا وقع عليهم حيف اضطرهم الى الجلاء الى بلاد الاسلام ليكونوا فيها آمنين على دينهم وعرضهم ومالهم فانهم يقدرون ان يقدموا علينا وانهم

يجيئون منا اهلاً ويطأون من بلادنا سهلاً وانهم هم عندنا في بلادهم وليسوا بغرباء والمسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم ادناهم وان البلاد هي للامام امير المومنين وان ذلك سيكون كذلك رغم انف ذلك المخاطب وانوف امثاله ممن هم قائمون بهذه الفلسفات الجديدة التي هي مشتقة كلها من فلسفة ايطاء بلادنا للاجنبي لاغير وان كانت تظهر لنا باعراض مختلفة

على ان هذا وامثاله كاذبون في قوله ان مهاجري المغاربة عندهم مقبولون وانهم لا يثقلون على طباعهم فان كل مغربي يخرج من بلاده ليوطن بلاد الشام ثقيل عليهم اذا اصر ان يكون عثمانياً حتى ان اربعمائة رجل من اهل شنقيط من اطراف السنيقال وهم اشهر من اشتهر بين العرب بالنسب الصريح واللسان الفصيح كانوا قدموا على طرابلس الغرب مجاهدين ثم بعد ان حضروا من حربها عدة مواطن جاءوا لقضاء فريضة الحج وقفلوا من الحجاز الى الشام وعولوا على الاقامة بها فلما رآهم بعض اولئك المتفلسفة انكروا مجيئهم وقبحوا هجرتهم وبلغنا ان رجلاً عالماً منهم يدعى بالسيد الامين كان يعظ في جامع بني امية بدمشق ويحث الناس على نصرة الدولة العثمانية دولة الخلافة الوحيدة فتعرض بذلك الى حنق عدة اشخاص كانوا ينظرون اليه شزراً ثم شرعوا يسمعونه شتماً وهجراً وهو لم يقل شيئاً سوى الحث على طاعة الدولة ذلك هو الحوب الكبير

فانت ترى انهم ليسوا باعداء الاتراك فقط بل اعداء كل من نصر الدولة من مسلمي الآفاق حتى انهم كانوا يردون على مسلمي الهند تمسكهم بالدولة واهتمام المسلمين العثمانيين بامر مسلمي الهند ومن جملة ما كتبت بعض جرائدهم المأجورة للاجانب انه لو كان لمسلمي الهند قوة

لكانوا قادرين على تحرير انفسهم فلا ينبغى ان نقيم لهم وزناً فكان عجز مسلمى الهند عن تحرير انفسهم او بعبارة اخرى عن رفض سلطة الانكليز سبباً عندهم فى سقوط مسلمى الهند الذين هم من اعظم اركان هذه الامة ومن اكبر بناة مجدها بجانب اولئك المخربين من ابنائها وهم الذين وقفوا المواقف الجليلة فى عضدها آسوا الدولة بما يقارب مليون ليرة من الاعانات التى جمعوها ورفعوا اصواتهم بالاحتجاج على خذلان انكلترة للدولة العثمانية اولاً وثانياً حتى اضطروا ساسة انكلترة الى التصريح لاوربا مراراً بأنهم لايقدرون ان يتجاوزوا هذا الحد مع الدولة خشية ان يؤسفوا مسلمى الهند وآخر مرة نطق المستر اسكويت رئيس نظار انكلترة بأن الحكومة الانكليزية لا تقدر ان تمالئ على تركيا مكارمة لامة كبيرة من تبعة انكلترة لا يروق لها ان ترى الحرمين الشريفين فى غير يد الدولة العثمانية

فالمستر اسكويت والسير غراى وغيرهما من اساطين السياسة الانكليزية يعرفون تأثير الميل الاسلامى بهم وترجيحه فى ميزان سياستهم وهناك صبية من المتسلقين على جدران الصحافة فى سورية ينكرون تأثير اسلام الهند ويهزأون بالاعتماد على هذا الامر ويظنون فى انفسهم انهم عالمون بحقائق الامور

وذلك نظير انكار بعض متفلسفة المسلمين للجامعة الاسلامية تزلفاً للاجانب وظناً بأن ذلك يكسبهم سمعة « راق » و « متمدن » و « غير متعصب » عند المسيحيين حال كون اوربا نفسها تعلم الجامعة الاسلامية حق العلم وحال كون انكلترة استنجدت اثناء ثورة الهند الكبرى السلطان عبد المجيد العثمانى رحمه الله لاستعمال نفوذه على مسلمى الهند فى جلبهم الى السكون وتفريقهم عن الجيوش فكان للسلطان عبد المجيد

من اليـد العاملة فى تبريد الهند لانكلترة مالا تقـدر انكلترة يوماً ان تجحده وكذلك فى ثورة البوكسر بالصين لما علمت اوربا ان للاسـلام فيها اليد الطولى هناك رغبت الى السلطان السابق عبد الحميد فى انفاذ وفد خاص يخاطب مسلمى الصين باسم الخلافة الاسلامية ان يخلدوا الى السكون ويكفوا عن الثورة فذهب وفد خاص من دار السعادة الى بكين وطاف فى هاتيك الارجاء وابلغ المسلمين ارادة السـلطان ونجع كلامه فيهم وليس بين العثمانيين وبين اهل الصين ادنى رابطة سوى ان منهم امة عظيمة مسلمة وان السلطان العثمانى هو خليفة الاسلام الحاضر فهم مرتبطون معه من جهة الامامة الدينية فاذا كانت اوربا المسيحية المتمدنة الراقية تعرف حق الجامعة الاسـلامية ولا تنـكر فائدتها عند مسيس الحاجة فما بال بعض الشرقيين كلما تلفظ خاطب او كاتب بالجامعة الاسلامية شددوا عليه النكير ورموه بالتعصب واتهموه بالتفريق وقذفوه بكل شنيعة افذكر ذلك الذاكر الجامعة الاسلامية بمعنى انه تجب ثورة المسـلمين عليهم كلا فلا يوجد عاقل ولا اديب ولا كيس يذهب هـذا المذهب او يرضى بالنفرة بين المسلمين والنصارى فضلاً عن ان يهيج هذا التهييج ولكن اذا وجد المسلم العثمانى دولة مضطرة الى معاونة العالم الاسلامى بعد تكالب الكثير من دول اوربا عليها ونادى المسـلمين بل وسـائر الشرقيين بان ينضموا حول حوض الدولة العثمانية ويذبوا عنها ويتضحوا عن استقلالها لتبقى لهم بقية فاى تعصـب واى تفريق يؤخذ من هذا القول واى منصف يسلم بان من يدعوا اخوانه لمعاضـدته فى مواقف حياته ومواطن المناضلة عن خيط رقبته يعد متعصباً ومفرقاً وان المعترض عليه والطاعن فيه مما يضيق صـدره من دعوته لايكون هو المتعصـب الحقيقى والمفرق والمفسد والذى يريد ان يرى بعينه دعائم الدولة العثمانية

منهارة من كل جهة ولا يجدلها من الانس ولا الجن داعماً ولا ممسكاً
فهو يجود على كل من خذلها من ابنائها بلقب « متنور » و « متمدن »
و « متهذب » وما شبه ذلك ويرمي من قام يناضل عنها المعتدين عليها
ومن يدعون الغافلين الى التماسك ببقية مجدهم والاحتفاظ بثمالة استقلالهم
بكلمات « متعصب » و « مفسد » و « مفرق » وهلم جراً وكنا نحب
من بعض ابناء وطننا من لا يفتأون يعزون الينا والى اخواننا التعصب
والتفريق بين العناصر بمجرد ذكر الاسلام والمسلمين والخلافة والدين
ان يتكلموا مع ابناء دينهم من الافرنج الراقين العالمين المهذبين
المتمدنين غير المفرقين ولا المميزين بين اصناف العالمين فى الغاء الدعوة
الدينية والتجافى عن ادامة تذكار النصرانية وان لا يظهر رجال
انكلترة شدة استمساكهم بالنصرانية ولاتعلن فرنسا حمايتها داعما النصارى
الشرق الذين لاجامعة بينهم وبينها سوى الدين وان لاتعلن دول البلقان
علينا حرب الصليب قولاً وفعلاً وان لايقول ملك رومانيا وهو اكثرهم
اعتدالاً انه لم يقدر ان يقاوم بلغاريا فى اول الحرب مع تركيا اذ كان
ذلك مخالفاً لو اجابته تجاه النصرانية وان تخفف الروسية من غلواتها
شيئاً فى اعلانها علينا الحرب باسم الصليب وفى سفك دماء البشر باسم
من يقول اتباعه انه قد سفك دمه فى خلاص البشر وهو رسول السلام
وداعية الاخاء العام كما لا يخفى بحيث قال شوقى شاعر الوقت

يا حامل الآلام عن هذا الورى

كثرت علينا باسمك الآلام

فتى قاموا بهذا العمل واثبتوا انهم لايفرقون بين المسلم والمسيحى
وان البشر عندهم سواء وانهم مقتدون فعلاً بهدى السيد المسيح
(صلوات الله عليه) الذى لاشك انه غير راض عن شئ مما فعله البلقانيون

باسمه مع مسلمي الروملي ولا يزالون يفعلونه فعند ذلك يتوفر لهم حق التكلم بكوننا متعصبين ومفرقين وداعين الى الشقاق فأما اوربا المتمدنة التي هي قدوتنا الآن في كل عمل لا تزال رافعة لواء الدين ومتسمة بسمة التفريق فكيف يسوغ لنا ان نسبق اوربا في المدنية والمساواة وهي قدوتنا فيهما لاجرم ان كلامنا في امر الاسلام ليس فيه شيء من الغرابة ولا من التهور بل هو من قبيل الاقتداء بالمتمدنين والنسج على منوال الاوربيين ولعمري انهم هم يعلمون ذلك حق العلم ولا يخفى عليهم وجه الحق ولو ثقل عليهم ولهذا نجد الطعن بنا والتحامل علينا وما نراه في بعض الصحف السورية المطبوعة في سوريه ومصر وامركا من الشتائم الموجهة الينا والمغامز والمطاعن بحقنا من اجل هذا الموضوع هو التعصب بعينه والظلم بحذافيره ولا نحمل ذلك من هذه الشرذمة الاعلى امر واحد وهو كأنهم اصبحوا يرجون انهدام بنية الاسلام بتمامها وقد لاحت لهم بوارق هذا الامل من خلال غيوم الحوادث الاخيرة فهم يخشون بالكلام في ذلك ان يثيب المسلمون من غفلتهم هذه قبل القضاء الاخير على ملكهم فتراهم ضائقة صدورهم باى قول رمى الى تنبيه المسلمين من غفلتهم وايقاظهم من رقدتهم متأججة صدورهم تلك حقداً واحنة على كل من جسران يدعو الى هذا الانتباه ولو لم يكن فيه ادنى مس بحقوق النصرانية ولا اقل اشارة الى تنفير المسلمين من المسيحيين فكأنه يجوز عندهم لاعداء الدولة العلية الاسلامية الوحيدة ان يستبيحوا اعراض المسلمين ودماء المسلمين واملاك المسلمين ويتكالبوا على الدولة مثنى وثلاث ورباع شاهرين على الاسلام سيوف الاستئصال وتقف لهم بعض الدول العظام مواقف المضد والمحاماة وتقاتل الاسلام بجنود من الضغط والتضييق لا يقل بأسها عن جنود الحرب والنزال ولا يجوز لمسلم يجول دم الاباء في عروقه

يصرخ لمصائب قومه ولا ان يئن من الالم لنكبات اخوانه واذا تألم بحركة غير اختيارية لمايلقاه قومه من هذه المظالم والفواحش التى يخل بمثلها تاريخ القرون الوسطى قام بعض ابناء وطنه يرمونه بكل عضيهة ويهيجون عليه الاحقاد والضغائن ولقبوله بالمتعصب ونعتوه بالمارق وذهبوا الى الاجانب يقولون لهم انما ترون الخطر الواقع عليكم من مقالات فلان وفلان افلا تقرأون ما يكتب بحقكم افلا تنظرون الى تهييج بعض كتاب المسلمين لحفائظ المسلمين افلا تشعرون بحركة الجامعة الاسلامية الى غير ذلك من الاقوال مع انه ليس ثمة سوى انين من الالم وصراخ من الظلم واستطارة من الذبح واستغاثة برجال الانسانية الصحيحة ودعوة الى التزام جادة العدل والانصاف فان كان اهل المدنية يطمعون ان يمنعوا الاسلام مجرد الانين والحنين ويذكرونا بقول القائل

اغار اذا انست فى الحى انة

حذاراً عليه ان تكون لحبه

فلقد حجروا واسعاً وحاولوا مرتقى صعباً واوجدوا هم الاتحاد الاسلامى من العدم ووضعوا حجر زاويته بايديهم فان الاتحاد الاسلامى الى يومنا هذا لم يقع فى التصور ولاكان الامن قبيل الغول والعنقاء اسماً بلا مسمى يخيله للاوربيين الرعب وتمثله فى اذهانهم شدة الحرص ويلوح بشبحه فرط الغيرة والغلو فى الاثرة اما اذا بقيت اوربا تعامل الاسلام بقاعدة عدم المساواة وبقى بعض النصارى من ابناء وطننا ينفثون من مكنونات الصدور ما ينفثون غير مراعين وجه العدل ولا الانصاف ولا مقدرين قدر آلام ابناء وطنهم من المسلمين ولامتبصرين فى كون امة هى ثلاثمائة مليون لا يمكنها ان تموت فان اتحاد الاسلام

ينتقل حينئذٍ من الخيال الى القول ومن القوة الى الفعل ولا يمكن ان تقوى اوربا على اطفاء نوره وسد فجاجه بل هو يجد كثيراً من عناصر اوربا مؤيداً وناصراً لان فى باطن اوربا فرقاً كثيرة نامية اخصها الاشتراكية قدملت اعتداء الاوربيين على المسلمين وتجاوزها الحقوق العمومية المتفق عليها بين الدول وعلمت ان شدة الضغط تورث الانفجار فهى تحمل على حكومات اوربا حملات شداداً تزداد وطأتها مع الايام كما اننا قد وجدنا فى الايام الاخيرة تضامناً عاماً بدت تباشيره بين جميع الشرقيين فاليابانيون ابعد الامم عنا مكاناً يحنون الى سائر اهل الشرق ويودون لو تفوز الدولة العثمانية على كل من ناواها من الافرنجة والصقالبة والصينيون يصرحون بأنهم من اصل واحد هم والاتراك كما ان المجوس فى الهند قد اصبحوا يميلون كل الميل الى مواطنيهم المسلمين بل الى الدولة العثمانية التى لا يربطها بهم رابط سياسى ولا دينى وكلا الفريقين كانا مبتهجين بانتصار اليابان على الروسية فانت ترى انه لا يمكن ابتلاع اهل آسية واهل افريقية جميعاً مهما بلغ من ضعفهما فى العصر الحاضر وانه ليس امام دول اوربا لاتقاء خطر الاتحاد الاسلامى او الخطر المسمى عندهم بالخطر الاصفر سوى الانصاف فى معاملة المسلمين والتوقف عن قهر الدولة العثمانية واعناتها والغارة على املاكها

واننا لسنا نعجب من كتابات بعض افراد من نصارى المشرق فى نسبة التعصب الى من لا يريد سوى دفع الظلم عن قومه ما نعجبه من بعض افراد من حزب اللامركزية يقولون انهم مسلمون وكلما رأوا احداً من ابناء هذه الملة استصرخ هذه الملة لاغاثة المستضعفين من ابنائها الواقعين فى تلك المصائب المحرقة للاكباد المؤثرة فى الصم الصلاد قاموا عليه يسلقونه بالسنة حداد ويقولون له كفاك ايها المفرق تفريقاً افلا

علمت اننا نحن تركنا العصبة الدينية افلا عرفت اننا لا نريد ان تتخذ غير الجنسية ديناً افلا وقفت عن ذكر الاسلام والمسلمين الخ حتى انه روى لنا شاعر من تونس زار المدينة المنورة فنظم فيها قصيدة فى الحضرة النبوية ومعانى الزيارة واتى بها على ذكر الاسلام والمسلمين بما لا يخرج عن الحث على الانتباه وتذكر الايام السالفة فعرضها على جريدة فى دمشق اصحابها من المسلمين لاجل نشرها فقالوا له اننا ننشرها لك بشرط ان تحذف منها ذكر الاسلام والشاعر الى الآن حي يرزق وهو من افاضل الناس وثقاتهم ومقيم بنفس دمشق

على انهم اذا كانوا حقاً لايقولون الابدعوة جنسية ولاتهمهم الجامعة الاسلامية بل الجامعة العربية فقط فمابالهم يتمنون لودخل جميع العرب تحت سلطة الاجانب مابال آحاد منهم هنأوا مراكش الدولة العربية الوحيدة بدخولها تحت حكم فرنسا مابال بعضهم لايزالون يسفرون بين ايطاليا وبين عرب بنى غازى فى امر اطاعة العرب لايطاليا مابال جريدة الاهرام اللامركزية هى لسان حال ايطاليا حتى ان منهم من لم يكفه مابثه من السموم فى عرب سورية (مايزينه لهم من الحكم الاجنبى حتى صار يقصد ايطاليا من الشام لاجل ان يتبرع بخدمة الطليان فى استمالة عرب طرابلس اليها مابال حمية هؤلاء على الجنسية العربية لاتظهر الاعند مايكون العرب بازاء الترك وحدهم فاذا صاروا بازاء امة اوربية ارتفعت حينئذٍ الفروق وهوت جميع افئدة اللامركزيين الى اعلاقهم حبال تلك الامة الاوربية وادخالهم فى طاعتها وهنأوهم على نعمه استيلائها عليهم وسعادة انقيادهم اليها فان الترك مهما بعدوا عن العرب فليسوا با بعد عنهم من الاوربيين ولا اشد خطراً منهم وهناك عذر جديد من فلسفة اللامركزيين يكاد يقيء الانسان لسماعه ولا يصدق

صدوره عن قوم زعموا انهم مطلعون على احوال عصرهم ومصرهم وهو انهم ابداً يقولون اننا نحن عارفون بكل مايجرى على الاسلام من التحامل غير جاهلين شيئاً مما تحاوله النصرانية فى شأن الاسلام لكننا لوجئنا ندافع عن الاسلام من جهة الرابطة الدينية لهاج ذلك علينا تعصب المسيحيين فاضروا بنا وتألبوا علينا واجلبوا وجلبوا الويل والدمار وجروا الينا الاحتلال الاجنبى وهو مبدأ الهون والصغار فنحن نخاتلهم مخاتلة من يعلم حقيقة مقاصدهم ونتزيا لهم بغير زينا الحقيقى وندعوهم الى الاجتماع معنا بالاجتماع بالجامعة العربية والنسب القحطانى مداهنةً منا ومصانعةً ونجود عليهم بحق المناصفة معنا فى اعضاء عدد المجلس العمومى خداعاً لهم عن جر الاحتلال الاجنبى ومراودةً لهم عن اثارة فتنة فى بر الشام يكون ضررها اعظم من ضرر التساهل ببعض الحقوق فانهم على هذا الشرط يقرون ويستكنون ويتركون النزوع الى اوربا وبدونه لا نأمن من كيدهم وانما نحن رقباء عليهم لئلا ينفردوا بالعمل الى غير ذلك من الاقوال التى طالما كرروها وزادوا عليها مالايحسن ايراده بحق المسيحيين ابناء الوطن الذين يلقونهم بمظاهر الاخاء ويرمونهم فى غيابهم بما لا يرمى به غير الاعداء والجواب على كل ذلك هو هذا

ان هذه الفلسفة اما ان تكون صادقة او كاذبة وان هذه الحركة اما ان تكون منا صحة اومداجاةً فان كانت هذه الحركة صحيحة على ظاهرها فان جمهور المسلمين لايقبلونها اصلاً ولايرضون ان يعطوا النصارى نصف المجلس العمومى عندما لا يكون لهم الا حق الخمس اوالسدس وهم يعلمون ان اول ضمانة لبقاء الامن والنظام وحسن المعاشرة فى البلاد هو المساواة التامة بين الطائفتين فى الحقوق واخراج

الانتخابات على نسبة العدد كما ان العقلاء من النصارى لا يطمعون فى اكثر من حقوقهم الثابتة

وان كانت تلك الحركة رئاءً وخدعةً فان المسيحيين فى بلادناهم اجل واعقل من ان يخدعوا بهذه الخزعبلات وفيهم رجال بلغوا مبالغ الجماعة اللامركزيين فى العلم والسياسة فلن تخفى عليهم هذه الصنعة وان يجرهم هؤلاء الى مايعلمونه مخالفاً لمصالحهم

وان كان يوجد فى ابناء وطننا من المسيحيين من يصبوا فعلاً الى دخول دولة اجنبية فلن يتوقف عن ذلك برشوة المسلم له بحقه فى المجلس العمومى بل هناك من لواعطيته المجلس العمومى كله ماراق له الامشاهدة البرطلة حاكمة فى سورية كما ان منهم من هو خير من كثير من المسلمين فى حب الوطن وكراهية التسلط الاجنبى ومن يرضى من المسلمين بالعدل والمساواة ولا يهمه الاشتراك فى النسب القحطانى حتى يصدق فى وطنيته وحتى يتمنى ان تبقى البلاد لاهلها وسواءكان الشق الاول اوالثانى فالاطفال الصغار يعلمون ان اوربا لايوقفها عن احتلال بلادنا اتفاق النصرانى مع المسلم ولا اعطاء النصرانى ازيد من حقه بل مسئلة احتلال احدى الدول للشام هى غير متعلقة باهل سورية فان قرقرار دولى على ذلك فان تلك الدولة تقدم بدون انتظار اهل سورية وتفعل ولو كان النصارى اسبق من المسلمين الى مقاومتها وحمل السلاح فى وجهها وان لم تكن السياسة الدولية العامة تسمح بالتعرض لسورية فان تلك الدولة تلزم احترام سورية ولو لم يأخذ النصارى نصف المجلس العمومى حتى ولو لم يعتدهم المسلمون من بنى قحطان بل عدوهم من سلائل السريان والفينيقيين افكان فى طرابلس الغرب نصارى عندما هاجمتها ايطاليا ام

كان اعتداؤها على تلك الولاية بعد ان سمحت لها اوربا بهذه الغـارة اتماماً لمعاهدات سابقات بين الدول

كلماذكر لهم ذاكر هذه الحقائق قالواله قد عرفنا من اسرار سياسة اوربا فى امر سورية مالم يعرفه بابك العالى نفسه ويا ليت شعرى ماهى تلك الاسرار وماذا عرف هؤلاء مما يعجز عن معرفتـه امثـال جاويد وطلعت وغيرهما من دهاة الدنيا وممن لا تخفى عليهم خافية من حركات اوربا ومهما كان هنـاك من الاسرار فلاتخرج عن قضـية اتفاق اوربا علينا وعدمه فان فان تيسر بين الدول هذا الاتفاق ولم يخشين من حرب عمومية تشب من وراء تصـفية هذه التركة العظيمـة عاجلاً ام آجلاً فان سورية تصير الى ماصار اليه غيرها ولا يدفع هذا الخطب عناصدق اسـكندر عمون معنا ولا الشـميل مهما كانا صادقين حتى ولا جميع اخواننا نصارى الشام مهما صدقوا معنـا والا وهو الاقرب فان كانت لقمة سورية صعبة المساغ يخشى منها على السلم العام فلاتكون مبدأ لحرب طاحنة فلا خوف على سورية من غارة اجنبية ولاحاجة فى رقينا وصيانة ذمارنا الى غير نشر العلم وافاضة العدل ومعاملة المسلم للنصرانى كما يعامل نفسه وهذا وحده كاف فى النصح وبالغ حد المصلحة فاما ذلك الخداع البارد فلا معنى له

ومن المضحك انه كما ادعى هؤلاء المسلمون خداع النصـارى فقد كان بعض النصارى يصرحون انهم هم ايضـاً انما يخادعون المسـلمين لاجل ان يحدثوا حدثاً بين العرب والترك ويخلصوا من الفريقين معاً ولا نعلم اية هاتين الشرذمتين كانت احكم صنعة من الاخرى لكننا نعلم ان كلاً من الطائفتين الاسلامية والنصرانية هى اجل من ان تختـار هذه السياسة العوجاء وان مسلمى سورية ونصاراهاهم ابناء وطن واحد

هولهم جميعاً فى الواقع لا يعمر الا بالعدل والمساواة ولايوقى خطر الشقاء والهبوط الا بتعزيز الدولة الشرعية دولة آل عثمان وتجنب الحركات المضرة والفرفرات الاليمة والفتن المؤدية الى سفك الدماء وخراب البيوت ومن كان يخاطب ابناء وطنه بغير مافى ضميره فانه جدير بان يسقط من نظرهم ويتهم فى صدق نيته

على انه لاينكر اصلاً ان بعض جرائد اخواننا المسيحيين سواء فى اميركا اوفى مصر اوفى نفس سورية قد صارت تصرح فى كتاباتها بامور لم يتعود الى اليوم مسلمو سورية ان يسمعوها من مسيحى وبعد ان كانت تقتصر فى حملاتها على الدولة وحدها ويشاركها فى ذلك اولئك النفر من المسلمين انفسهم عادت تحمل على الاسلام باجمعه ورأى اولئك الاغرار من المسلمين انهم بما فعلوه بحق دولتهم وخلافتهم لم يجرئوا الناس على الدولة والخلافة فقط بل جرأوهم على الاسلام كله وعلى انفسهم واصبحوا معهم فى موقع ضنك لأنهم ان عادوا عليهم بالمعاتبة اواللوم قائلين لهم حقاً قد تجاوزتم الحد فى اهانة دولتنا واننا لسنا نجاريكم فى ذلك الى تلك الغاية عرف المتهورون من النصارى ان يجاوبوهم اننا لسنا آلة فى ايديكم تصرفونها كيف تشاءون فتى غضبتم على دولتكم دعوتمونا ان نغضب معكم ونحمل عليها واياكم ومتى قضيتم بعض وطركم من الدولة ورأيتم المصلحة فى السكوت جئتم تطالبوننا بما تقضى به مصلحتكم فاننا نحن معاشر النصارى لنا مصالح ايضا لابدلنا من مراعاتها وكذلك الحمل على الاسلام باسره والغمز فى كل مايتعلق بالامة الاسلامية لاحق لهؤلاء النفر من مسلمى المؤتمر البارزى ان يغضبوا منه او يجدوا شيئاً من ورائه ومن خرق ستار حرمته بيده فهو جدير بان لايستر عليه غيره وكذلك متى كان نفر من مسلمى بيروت ومن نصاراها ممن لا يكاد الواحد منهم

يعرف البطن الذى فوق جده ينتحلون النسب القحطانى ويعقدون جمعية عربية بزعمهم مبدأوها تقديم العربية على الاسلام واذا قيل للمسلمين منهم لما ذا اثرتم قحطان على عدنان وكلاهما جد القبيلين الكبيرين من العرب اجابوك اننا لا نريد الانتساب الى عدنان لكونه جد قريش التى منها النبي (صلى الله عليه وسلم) وان قحطان هو الجد الجامع بيننا وبين النصارى اجتهاداً من هؤلاء العلماء بالتاريخ بان النصارى الذين فى بر الشام هم من ذرية قحطان وذلك لكون غسان هم من عرب اليمن وان غساناً كانوا فى حوران ولبثوا نصارى الى مابعد الاسلام ونسلوا كل هذه الامم فلا يبقى بعد هذا حق لاحد من هؤلاء المسلمين ان يطالب احداً من النصارى باحترام الدين الاسلامى لانهم هم الذين فتحوا باب الجراة على ما كان الى اليوم محترماً مهاباً ولا عجب ان صارت ترمى الاوراق المتضمنة الطعن فى الدين الاسلامى فى اسواق بيروت بعد ان كانت من قبل تطرح فى شوارع مصر فقط فان صدور الامور مؤذنات باعجازها ولم يتقدح فى خاطر عاقل عارض من شك بانه منذ جارى هؤلاء النفر المسلمون على دولتهم اثناء الحرب وشرعوا فى عقد الاجتماعات فى باريز واجتهدوا فى ايجاد شئ يسمونه بالمسئلة العربية وحاولوا ان يستعينوا على دولتهم بدول اوربا ويدخلوها بين الدولة واهالى سوريه فى قضية داخلية صرفة انه لابد ان تنتهى المسئلة بتطاول الاجانب ليس على الدولة العثمانية فقط بل على الدين الاسلامى نفسه فان الدولة العثمانيـة والدين الاسلامى هما امران متلازمان لا يمكن احترام الواحد منهما بدون احترام الاخر ولا اهانة الواحد دون اهانة الآخر وما كانت تلك الحركة العربية نزعة قحطانية بل نزعة شيطانية جاءت بجميع ما يتصوره العقل من المبادئ المباينة للدين وللمصلحة

فقد روى اناس ثقات عن بعض اولئك القحطانيين انهم كانوا يعلنون ترجيح العربية على الاسلام ولو خالف ذلك الشرع الامر بنبذ العصبيات وعدم التفضيل الا بالتقوى وقد قيل مرة لمن يلوث العمامة منهم ماذا تقول اذاً فى التركى المسلم والعربى المسيحى فقال انى لا اعتقد باسلام رجل غير عربى وعند ذلك امسك السائل عن محاورته لما وجده عليه من السقوط عن مواقع الحوار بعد هذا الكلام وهذا كله هو من مآثر الحركة اللامركزية التى قام بها اولئك الذين يدعون الاصلاح والذين نصبوا انفسهم لافادة المسلمين فى جرائدهم ومجلاتهم ومن الغريب ان رجلاً يجاهر فى القول بانه لا يعتقد باسلام غير عربى ورجلاً آخر يشهد عليه بعض اصحابه ومن هم الآن من حزبه انه قال ان كتاب بانتام الانكليزى فى اصول الشرائع افضل من القرآن لايكثر عليهما ان يكفرا المسلمين ويخرجا من الاسلام من يريدان ويدخلا فيه من يريدان ومثلهما خلق كثير نجدهم مارقين من الدين مروق السهم من الرمية مجاهرين فى تخطئه المبادئ الاسلامية علناً غير راجعين الى نصاب يدق فى الاسلام لا فى اصل ولا فى فصل ومع ذلك يحكمون بالاسلام لزيد وينفونه عن عمرو ويسيرون فيه مسير من يظن الاسلام ملكاً لهم يملك او حاجة يضعها الانسان فى جيبه فيمنعها من شاء وما يعلمون ان الاسلام لم يكن ملكاً لاحد وان ليس لمسلم ان ينكر اسلام احد يقول الشهادتين ويقيم حدود الله وان البابا نفسه وهو المسلط على النصرانية الكاثوليكيه واصحابه يعتقدون فيه العصمة فى الامور الدينية لم يكن له ان يطرد احداً من الدين الكاثوليكى مادام متمسكاً به فكيف جاز لمن يجاهر بمخالفة احكام دينه من المسلمين ان يتصرف فى الاسلام بالترجيح والتجريح ويتعاور المسلمين هذا بالادخال وذاك بالاخراج وهو اولى بان يكون

الخارج والمارق واجدر بان ينسب اليه الكفر والنفاق وعدم اقامة حدود الله ولولا ميلنا الى طى كثير من الفضائح على غيرها لذكرنا كيف ان كثيرين ممن يدعون القطع والوصل فى الاسلام رضوا ان يجعلوا اولادهم فى مدارس النصارى وان يشهدوهم صلاة المسيحيين ولما وضعت بعض المدارس الاجنبية فى بيروت قاعدة وهى سؤال كل طالب داخل فيها كل صباح هل انت مسيحى والزامه الجواب بنعم بنعمة الله مسيحى وجد من هؤلاء من رضى بان يجاوب ولده هذا الجواب واعتذر بانه لا يقدر ان يخرج ولده من المدرسة لهذا السبب حرصاً على تعليمه مع انه لا يوجد نصرانى واحد حتى من رعاع الناس مهما بلغ به الحرص على تعليم ولده يرضى ان يضعه فى مدرسة اسلامية على شرط ان يصلى صلاة المسلمين ويجاوب عن نفسه انه بنعمة الله مسلم حال كونه مسيحياً فهذه حالة كثير من اتخذوا الاصلاح شعاراً وزعموا انهم رفعوا للعربية مناراً وما رفعوا من العربية سوى منار الاستخفاف بدين من رفع العربية ولا استثمروا من الاصلاح سوى الاعتقاد بكون الدين الاسلامى هو الحائل دون الرقى وان كانوا لا يصرحون بهذا القول خوفاً من التعرض لغضب العامة فانهم يحومون حوله ويشيرون اليه من طرف خفى وتجد الواحد منهم يؤلف كتابا بكون العرب لا ينهضون الا باتخاذ العربية ديناً وديدناً والحال انه عندما لم يكن للعرب دين وديدن سوى العربية لم يكن عندهم من النهوض سوى الذل للاعاجم والخضوع للروم من جهة الشام والفرس من جهة العراق والحبشة من جهة اليمن يسومونهم سوء العذاب ويقتلون ابناءهم ويستحيون نساءهم ولم يعرفوا من المناقب السامية سوى وأد البنات والبغاء والاشتراك فى اتيان المرأة الواحدة الا من رحم بك والصفير حول البيت الحرام بحجة العبادة واتخاذ الاصنام

من العجوة والسجود لها ثم اكلها عند المجاعة هذه كانت حالة العرب قبل الاسلام فلما جاء الاسلام اقطعهم صاحبه (صلى الله عليه وسلم) المشرق والمغرب وصيرهم سادة الارض ونقلهم من الجاهلية الجهلاء الى الحنيفية البيضاء التي دلت على درجة فضائلها اخلاق الخلفاء الراشدين ومناقب الصحابة والتابعين اولئك الذين لو عكف ناشرو الاصلاح مئين من السنين على قراءة اصول الشرائع او روح الشرائع او اصول الثورة او كتب مونتسكوا وروسوا وطالعوا جميع ما وضعه الاوربيون فى علم تهذيب الاخلاق وتزكية الانفس لما تحققوا بعشر معشار الفضل والنشاط اللذين كانوا عليهما على حين لا عمدة لهم سوى القرآن ولكن لسوء حظ الشرق يتعلم الواحد من اهله بعض كليمات يظن انه بلغ بها منتهى العلم حتى اذا سقط على كتاب من الكتب الاجنبية فى موضوع اجتماعى زعم انه مطابق بجملته لحالتنا الحاضرة واخذ ما فى ذلك الكتاب من المبادئ والافكار وطفق يطبقها على ما نحن فيه ويجزم بعقم غيرها اشبه بمن يدعى الاجتهاد وهو يظن فهم الجملة الواحدة كافياً للاجتهاد المطلق ومن جملة ماهم قائمون به الان القول باتحاد امراء العرب واستعدادهم للنهوض لاعادة مجد العرب الى غير ذلك من الامور المتعلقة بالعرب ويا حبذا لو صحت الاحلام وكان هذا القول يتحقق فعلاً فانه لا يوجد بشرى اعذب موقعاً فى اسماع المسلمين واندى على اكبادهم من بشرى اتحاد امراء العرب يداً واحدة ونهوضهم لاعادة مجد العرب فانه مما لا مشاحة فيه انه لو سدد الله امراء جزيرة العرب الى هذا العمل العظيم لوطدوا دعائم الاسلام وزحزحوا عنه هذا العذاب الذى هو فيه مع الامم الاجنبية فان الامة العربية فى الجزيرة وما جاورها لا تقل عن ١٢ مليون نسمة كلهم شعب واحد اذا استنفروا للقتال خرج منهم

ثلاثة ملايين مقاتل يحمي بعضهم ظهور بعض اسرع الامم اجابةً لصريخ
واشدهم اقداماً على خطر واربطهم جأشاً وقد طارت القلوب شعاعاً
واطولهم اناة على البيداء واعظمهم صبراً وجلداً على حر المنايا واكثرهم
استخفافاً بالحياة واحسنهم تحملا لجميع انواع المشاق فامة هذه مناقبها
فى الحرب وذاك ولوعها بالطعن والضرب وتلك درجة احتقارها للحياة
واكثرها ان لم نقل كلها مسلح بالسلاح الجديد بصير بتقليبه قد دلت
حرب طرابلس الاخيرة من عمل ابنائها فى افريقية على ما تقدران
تعمله اذا نفرت الى القتال وهى فى وسط حماها وسرة بطحائها لاشك
انها لا تؤخذ الا من قبيل شقاق واختلاف كلمة وانه لا خوف على
جزيرة العرب ولا على الحرمين الشريفين ما دامت هذه الامة من
حوالهما فلا بشرى تعدل اذا عندالمسلمين بشرى اتحادها واتفاقها ونبذ
ضغائنها واحقادها لا سيما اذا علمنا ان مكالمة بعضهم مع بعض فى امر
الاتفاق انما كان لاجل حوطة الجزيرة وحماية الحرمين وقصر كل
يد تمتد الى داخل البلاد من الخارج ووقف كل طمع يحوم حول
الاستيلاء على مهد الاسلام بحيث يكون العرب يومئذ مع شدة تشعبهم
وتفرقهم عصبة واحدة لاخلل بينها ولا خوف لها على عدو الامة
والدين هذا قرار امراء العرب وعلماء العرب وجميع من اهتم بشأن
العرب وهم مجمعون على عضد الدولة العلية التى هى نظام الفتهم وسلك
وحدتهم وبدونها يخشى من تنافسهم وتحاسدهم وتفرق كلمتهم عن حماية
البيضة فان كل امير من امراء الجزيرة لا يخضع لجاره ولا يقر بالسيادة
لنظيرة مع ان كلهم مقر بخلافة ابن عثمان راض بسيادته مطاطئ الراس
امام بابه العالى عالم بان لاغنى للاسلام عن الدولة العلية وفى هذا العام
عندما كان مولاى عبد الحفيظ سلطان العرب فى الحج ونظمته عرفة

مع امير مكة وكثير من كبار الاسلام ذكر امير مكة مناقب آل عثمان واحرازهم قصب السبق على جميع من تقدمهم من دول الاسلام العربية والعجمية فى خدمة الحرمين الشريفين وتوقير آل البيت المصطفوى والاعتناء بسكان الحجاز وبالعرب وختم كلامه امام سلطان المغرب بقوله فنحن بعد هذا جميعاً لا نأنف ان نكون عبيدا لمولانا السلطان محمد رشان اما تلك الفئة المعدودة فانها لا تزال تذكر اتفاق امر العرب وتنوه بحنينهم الى تأسيس جامعة عربية مشيرة بذلك الى عقدها غيظا بالترك ومناواة للدولة حال كون جل مقصد العرب هو تعزيز الدولة والقيام مقامها فى الذود عن الحرمين فيما لو ناشبها الاعداء حرباً من حروبهم الصليبية هذه فى جوار الاستانة بما يحول دون امدادها الجزيرة كما جرى لها فى مسئلة طرابلس فانها لولا الحرب الصليبية البلقانية وتحفز روسية من وراء البلقانيين لما تركت الدولة طرابلس اصلا ولبقيت تناضل عنها الى ساعتنا هذه فمن الواجب بعد ان علمنا مقدار الحقوق الدولية فى اوربا ان لا نتكل على شئ من عهود الدول وان نرصد فى كل ولاية من ولايات الدولة لا سيما فى الولايات العربية وفى جوار الحرمين الشريفين القوة الكافية من السلاح والذخيرة للدفاع عنها وان نكل الى الاهالى الاشداء والعشائر المخيمة فى هاتيك الفلوات امر المكافحة عن بيضة الاسلام اذا طرق طارق اونعق ناعق وان تكون الدولة هى الرأس فى ذلك العمل والنظام الجامع لما تفرق من ادواته فهذا ماعليه العرب من هذا القبيل لاما يحب ان يخيله بعض تلك الفئة من كون اتحاد العرب هو بغضاً منهم بالترك وقياماً على الترك تجد مضامين ذلك فى جرائدهم ومجلاتهم كأنه لايروق لهم اتحاد العرب الالمناوأة الترك وحدهم فأما مناوأة الافرنج الذين هم اثقل على العرب

من الترك واعظم خطراً الف مرة فانك لاتجد واحداً من الفئه اللامركزية اوعلى رأيهم الاصلاحية (والله يعلم المصلح من المفسد) من يرغب فيها اويصبو اليها لابل هم اضداد كل مقاومة للاوربي وأيما كان اللامركزى فهو حزب اخضاع المسلمين للاوربيين ان لم يكن علناً فقلباً ولا اعلم لعمرى ماهى لذتهم بركوب الاجانب فوق مناكب المسلمين وماذا يأتيهم من الخير فى عبوديتنا لاوربا وقد شاهدنا آلام غيرنا ممن ادركوا فى تلك الهوة باسباب شبيهة جداً بالاسباب التى تخلقها الآن العصابة اللامركزية وقد يكابرون فى صحة هذه النسبة اليهم وينكرون كونهم حزب خضوع الشرق لاوربا ويحاولون التمويه والتغطيه جهدهم ولكن فاتهم ان كل حركة من حركاتهم وكل اشارة من اشاراتهم دالة على مكنون صدورهم ومعقود نياتهم وان زمان السفسطة قدمضى وان دور المغالطة قد انقضى وما بال اعضاء من لجنة اللامركزية بمصر لا شغل لهم سوى الذهاب الى درنه والاياب من درنه والمداخلة مع عرب الجبل الأخضر لغاية استيلاء ايطاليا على هاتيك الديار بدون اعطاء السنوسية شيئاً من الامتيازاب الملكية التى تضمن صيانة اراضى العرب وعدم تبسط الملايين من جياع ايطاليا فى بقاعهم مما يؤل الى طردهم من اوطانهم اهذه هى المنافع التى يعد بها طلاب مجد العرب وحفاظ حقوق العرب اخوانهم عرب افريقية وما بال جريدة الاهرام التى هى من اهم مقاول اللامركزية هى الداعية الكبرى لايطاليا فى طرابلس الناصحة ابداً للعرب بقبول حكم هذه الدولة التى ليست من قحطان ولا غسان فياليت شعرى مابال هؤلاء لا يصيرون عرباً الا لاجل عداوة الترك وما جوابهم على هذا وقد طارحنا هم السؤال عنه مراراً فلم نجد منهم الاالخرس المطلق والصمت المغلق وانما لدى هذا السؤال

يحملون علينا من جهة اخرى بالطعن والقذف ويحاملون بالبهتان والافتراء
شأنهم فى كل مواقفهم ودأبهم عندما يلزمهم مناظرهم الحجة ولايجدون
مما دخلوا فيه مخرجاً افكلما جاءكم رسول بما لاتهوى انفسكم استكبرتم
او كلما وقف الانسان عن مجاراتكم فى اهوائكم وضلالاتكم لجأتم الى
المهاترة والشتم تخذونهما احد سلاحكم وامضى نصالكم فى نضالكم
ومابالكم تتكلمون عن العرب وعن قحطان وتنصبون انفسكم وكلاء
عن هذه الامة وتقارعون باسمها الترك فهل اخذتم التفويض من عرب
الآفاق بهذا العمل وهل ابناء قحطان انفسهم وهم يملأون اليمن
وقسماً من نجد اوالحجاز والعراق والبحرين ومنهم سكان البلقاء وعرب
غزة وفلسطين ومنهم اكثر عرب الصعيد ابناء لخم وجذام قداحالوا
عليكم قضية مخاصمة الترك ومشاغبة الدولة العثمانية اثناء الحرب ونبذوا
واجبات الاسلام ظهرياً وهل قال لكم هؤلاء الملايين من بنى قحطان
انهم عرب قبل كل شئ وان الاسلام هو عندهم بالدرجة الثانية حتى
جئتمونا بهذه النغمة الجديدة باسم قحطان وهاهم ابناء قحطان فى منبت
اسلة قحطان الذى هواليمن يواصلون الرسائل الى سورية بالنصيحة بعدم
شق العصا وبالانضمام حول الدولة العثمانية وينكرون ويكبرون اتخاذ
الاجانب اولياء من دون العثمانيين والاوربيين من دون المسلمين ولقد
بلغ امراء العرب ان الدولة فى حلمها وصفحها وميلها الى اسكات القالة
وصبرها على اخلاق هذه الامة ريثما تكون عرفت واجباتها قد رضيت
ان تتفاوض مع الجماعة الذين اجتمعوا فى باريز وان تجاذب واياهم
احاديث الاصلاح فانتقدوا هذا الحلم ورأوا اضراره اكبر من نفعه
وانكروا وكالة اولئك النفر عن العرب حتى لقد صرح بهذا اللوم
الشريف عبدالله بك نجل امير مكة لوالى سورية عارف بك الماردينى

بحضور جم غفير من سادات العرب فى المدينة المنورة وكيف كان الامر
فان الدولة لم تستنكف ان تدخل فى المفاوضة مع بعض ابنائها وان
جمعية الاتحاد والترقى لم تأنف من استعتاب اولئك الاشخاص واسترضائهم
ومن دعوتهم الى الوفاق ومع علمها بما كان بعضهم يفعلونه ويكيدونه وما
يلقونه الى الاجانب من مفاوضاتها العثمانية الصرفة معهم ومايستظهرون
به على دولتهم من مداخلة اعدائها فقد طوت على كل هذه العظائم
كشحاً وتدرعت بالصبر الجميل واظهرت قبول العذر والتجاوز عن
الوزر وكفت من غرب الحفيظة وطأمنت من جانب الموجدة ذهاباً مع
الحكمة والتزاماً لقاعدة المداراة لا سيما والدولة مشغولة من مقارعة
البلغار ومكافحة اليونان ومن الاستمساك امام الثقل الروسى الملقى
بكلكله عليها بما لم يبق مجالاً للاشتغال بمعاتبة ابنائها فارتضت بدعوتهم
الى الاستانه واكرمت مثواهم واحسنت مقدمهم وظنت ان الامر قد
انتهى اوكاد وان الجماعة كانوا يبتغون مخرجاً مما ادخلوا انفسهم فيه
فوجدت لهم مخرجاً شريفاً ولو على اعين الخلق فظهر بعد هذا كله ان
جماعة من هذه الفئة ازدادوا بهذه المعاملة غروراً وبعد ان سقط فى يدها
وكادت تقطع كل امل من نجاحها عادت الى سابق لهجتها واستأنفت
ماضى غيها ومن شك فى ذلك فعليه ان يراجع جرائد هذه الفئه ويتأمل
خلال السطور منها ليعلم الروح التى تنفث فى روعها والطوية التى تملى
عليها انهم كانوا يكرهون ان تفوز الدولة فى قضية ادرنه خوفاً من ان
استرداد ادرنة يسترد هيبتها فى قلوب الامة وهم يريدون خرق حجابها
انهم كانوا لايتمالكون انفسهم من اظهار الفرح بكل نكاية تصيب قلب
الدولة اوسهم ينفذ فى احشاء الامة ان بعضهم كان يتجاهل حوادث اعتداء
البلقانيين على مسلمى الروملى ويعمسها قصداً ويطمسها عمداً ولايزال

يتسقط روايات تكذيبها حتى اذا وقع على اقل قرية من هذا القبيل
بادر بنشرها تغطية لعسف اوربا وتغافلاً عن تعصبها الذى يزيد الشرقيين
تعصباً لحوزتهم حال كون اصحاب هذه الجرائد انما يريدون تزيين
السلطة الاوربية لكل شرقى واقناع كل مسلم بان شريعته لم تتوفق فى
يوم من الايام الى توطيدا من ولا الى رفع بناء ثابت فاذا خافت افتضاح
سرائرها تجاه الامة التى هى تخدعها نشرت بعض مقالات دفاعية تقصد
بها اثبات صدقها وعصبيتها فجاءت بالمتناقضات وظهرت فى شكل ابى
قلمون « ورب ابن صارابا » ولقد اتخذت نغمة واحدة تتغنى بها فى
كل مقال وهى انها لم تكن لتكره الدولة ولا لتسعى فى توهينها وانما تلك
مساع اصلاحية جل المقصد منها تقوية الدولة وتعزيز الملة ولكن الترك
يجهلون مصلحة انفسهم فلابد ان يساقوا الى الاصلاح قسراً ويجرعوا
كأس اللامركزية كما يجرع العليل مر الدواء ففضلاً عن كون هذا
الدواء هو الآن سماً ناقعاً للعليل لانسلم اصلاً بمحبتهم للدولة وتمسكهم
بكيانها مادامت عيونهم تنم عليهم والفاظهم تبدر بخلاف دعواهم ولقد
كنا نحادث مرة احد فضلاء الهند ممن هو مداخل للاجانب مواطئ
لهم على كثير من مقاصدهم فاخذ يذكر لنا حججاً من عرفهم من
روساء هذه الفئة اذ كان اجتمع معهم فى مصر ونحن نردها له واحدة
واحدة الى ان نشدناه الله ان يصدقنا القول هل هذه الفئة مسرورة
بارتباط قلوب مسلمى الهند بالدولة ومعاونتهم لها اذ كانت صادقة للدولة
كما تقول فاضطر حينئذ ان يقول لنا كلاً لايحبون هذا الارتباط ولا
يغتبطون به قال انا هذا وهو صاحبهم وقسيمهم فى الافكار وشريكهم
فى كثير من المنازع فلم تكن المسئلة اذاً مسئلة اصلاح اوشكل فى الادارة
يودون تغييره بل ماهناك سوى دسائس يقصدون بها ثلم بنيان الدولة

وادخال الاجانب فى البلاد لتكون لهم الحظوة عنـدهم وهم يطلقون على ذلك القاباً مختلفة من قبيل اصلاح ولامركزية ونهضة ورقى وغيره والالفاظ لا تغنى من الحق شيئاً ومن قبلهم قام اعداء الاتحاديين فالفوا جمعية سموها بالجمعية المحمدية تقرباً بهذا الاسم الشريف الى قلوب العامة ولم يكن المقصد منها خيراً وقيل انها كلمة حق اريد بهـا باطل فالدعاوى لاتغير حقائق الاشياء والاسماء لا تصدق الا اذا اقترنت بالافعـال وقد يخدعون الاغبياء ويتغفلون العوام الذين لايعلمـون ماوراء الا كمة فأما الذين عندهم مسكة عن عقل اوحصاة من روية فانهم لايخدعون بهذه الالفـاظ ولا يغترون بذلك الطـلاء وهم يعلمون ان الدولة سـواءً طالبوهاهم ام لم يطالبوا بالاصـلاح فقد كانت عازمة على تغيير شـكل الادارة وان القيـام بهذه العربدة التى قاموا بهـا على الدولة فى اثناء مكافحتها لاعدائها على ابواب عاصمتها لايفيد شيئاً من الاصلاح ولا من التقوية وانما يورث الدولة زيادة الضعف وطمع العدو واستئساده وانه ان كان لابد من المطالبة والمراجعة فقد كان لهم مندوحة عن الاجتماع فى باريز والاعتضاد بالاجانب على دولتهم الشرعية وماأحسن قول الشاعر

لقد رابنى من عامرٍ أن عامراً
بعين الرضى يرنوالى من قلانيا

يلتمسون عذراً للادريسى على خروجه وعصيانه واغرب منه انهم لايقبحون ممالأته للطليان حينما كان الطليان يقاتلون المسلمين ويخرجونهم من ديارهم بل يقاتلون العرب الذين الادريسى منهم وذلك لأنهم يجدون كل ذنبٍ مغفوراً فى جانب الخروج على الدولة

يضمرون لابطال الاتحاديين مثل طلعت وانور وفتحى من البغض والشنآن مالايضمرونه للروس ولا للبلغار ولا لليونان لا بل تجدهم

يعلنون هذه البغضاء ولا يجمجمونها فى صدورهم معان السيد السنوسى وجميع خلفائه وحلفائه وجميع روساء العرب فى طرابلس وبرقة قد بلغوا من حب انور وفتحى وتوقيرهما مبلغاً لا يعلمه الا من عرف احوال هاتيك البلاد ولا نظن فى الدنيا عثمانياً منصفا لا بل انساناً عادلاً يمكنه ان يبغض هؤلاء الابطال الذين باعوا انفسهم من اوطانهم والذين قدوقر لهم الاجانب حق التوقير والاعزاز

يتهمون الاتحاديين بكونهم ارادوا تتريك العناصر ومحو العربية والعرب ورفيق بك العظم يقول لعبد الرحمن بك اليوسف فى مصر انه على ثقة تامة من هذا القرار الذى قرره الاتحاديون فى سلانيك لانه قد تلقى خبره حتى من البلغار انفسهم

انظروا الى هذا الاسناد البلغارى الذى يخجل الانسان من ذكره فى قضية واقعة بين العرب والترك وتأملوا كيف يدعى بعضهم المعرفة والمنطق وهو يستشهد بكلام اعدائنا البلغار ويتخذه حجة على فرية غير معقولة ويبنى عليه حكماً طويلاً عريضاً مهما بلغ بالاتحاديين الغرور او تمادى بهم الاستئثار فلن يجهلوا تعذر حمل سائر العناصر العثمانيه على الاندماج فى التركية بل لقد وجدنا الاتراك اشد الناس تفريطاً فى حفظ عنصرهم ورأيناهم والله يهملون تتريك طائفة من مسلمى الروملى اسمها البوماق تركوها بدون تعليم اللغة التركية حتى اذا غلب البلغار على بلادها هذه المرة فى قرجه على وجمه بالا حملوها على النصرانية بالسيف وتزوجوا بنباتها قسراً زاعمين انهم انما اعادوا البوماق الى دينهم الاصلى ولم ينصروا الترك الذين لم يكن اصلهم نصارى وان الدليل على كون البوماق بلغاريين فى الاصل هو جهلهم اللغة التركية وعدم معرفتهم غير البلغارية

فالاتراك يحكمون فى الروملى منذ ستمائة سنة ولا يفكرون فى ان يدمجوا فى التركية طائفة كالبوماق عددها ١٥٠ الفاً وهى بين اظهرهم ولا يحاولون تتريك الارناووط ولا البوشناق هذه الامم الصغيرة ويقوم هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض وقد زادهم الله مرضاً بمدهذه الحرب هم فيقولون انهم قرروا تتريك العرب الذين هم اكثر منهم عدداً والذين اصل الاسلام فى كل شئ

وهكذا تجدهم دائبين فى تمزيق هذه الامة المسكينة التى لم تكفها بلايا اوربا فى جوانبها حتى قاموا هم يقطعون فى احشائها ويفرقون من اوصالها بالاراجيف والاكاذيب والاخبار الموضوعة فيقولون للنصرانى ان الاتحاديين او الاتراك يريدون محو النصرانية من البلاد ويدعوننا الى احياء التعصب الدينى ونحن مسلمى العرب لا نقبل منهم ذلك فلهذا هم يكرهوننا ويقولون للمسلم العربى ان الاتراك لا يريدون ضعف النصارى فى البلاد العربية لاجل ان يجعلوهم شغلاً شاغلاً لنا عن مقاومتهم ويقولون لطالب الرفاعى واهل البصرة ان الاتراك يريدون الرضيخه ببلادكم للانكليز والالمان وهم يبيعون بلاد الاسلام كما باعوا طرابلس الغرب فيقوم هؤلاء هناك وينادون واسلاماه كيف تقبلون ايها المسلمون ان تباع بلادكم من الاجانب وان يخفق فوقكم علم الصليب ويرسلون الى ابن سعود قائلين له ان لم تأخذ الاحساء وقطر وسائر لواء نجد فان الباب العالى سيعطيها قريباً الى الانكليز ويكونون فى الوقت نفسه ذاهبين جائين فى السفارة الى الانكليز يخبرونهم بما عندهم من اخبار سورية واليمن وعسير والحجاز التى مالها ان العرب باجمعهم ناقمون وقائمون وانهم يريدون الحماية الانكليزية والخلاص من الحكم التركى الى ان روى صاحب جريدة بيسه اخبار فى الهندان انكليزياً كبيراً فى

مصر لا نريد ان نسميه قال له اذهب الى الشام لتعلم انه لا يوجد عربي واحد الا وهو يفضل حكم انكلترة على حكم تركيا واذهب الى الحجاز لتشهد بعينك كيف ان العرب يتقربون الى الله تعالى فيه بقتل التركى وهذه الاقاويل هى كلها نتيجة ما يلقيه هؤلاء الجماعة فى آذان الانكليز صباح مساء

ويقولون للعربى ان الاتراك قرروا تتريك كل العناصر العثمانية فبدار الى الخروج عليهم قبل ان يباشروا اجراء قرارهم بالفعل فهم يهيجون بذلك احقاد العرب ويتغفلون كثيراً من اغرار العرب ولا يخافون الله فيما يفترون وما يضعون ولا يتقونه فى ملتهم ولا فى وطنهم وفى انفسهم وهم يعلمون ما فى هياج العامة العمياء من الخطر العام وما وراء تناحر العناصر من سقوط الجميع فى هاوية الاستيلاء الاجنبى على حين لو عاد هؤلاء الاغرار المتهورون اليهم فيها بعد قائلين لهم اين الدولة العربية التى وعدتمونا واين اللامركزية التى قلتم لنا انها مرحلتها الاولى واين السعادة التى زعمتم انها مستقبلنا فما نحن اليوم الا تبعة دولة اجنبية لا ترقب فينا الاً ولا ذمةً بفضل فرفرتكم هذه ووالله لنار الاتراك ولا جنة الاوربيين لنفضوا ايديهم منهم وقالوا لهم اننا ابرياء منكم (قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برئ منك) وياليت شعرى ماذا يفيد اللوم يومئذٍ وماذا يقدر هؤلاء المساكين من هذه الامة المغرورة ان يثاروا من اولئك المغررين وقد سبق السيف العذل وانتهى كل شئ واصبح قصارى من عرف خطأ نفسه يومئذٍ ان يقول الا لعنة الله على المفسدين الا لعنة الله على المتسببين

يذيعون من جملة اكاذيبهم لتهييج العوام ان الدولة هى فى ايدى الاتحاديين وان هؤلاء هم كلهم من يهود سلانيك ولا يزالون يكررون

ان جاويد هو يهودى وان رحمى هو يهودى وان كل من خرج من سلانيك هو يهودى حتى ان اناساً من كبار الاتحاديين ليسوا من سلانيك اصلاً قالوا انهم يهود ايضاً وغيروا قلوب جم غفير من عامة الناس بهذه الاقاويل التى ماجعل الله لها من نصيب من الصحة فالاتحاديون الذين يمنونهم هم احسن الناس اسلاماً واشدهم بالاسلام تمسكاً وجاويد بك الذى يقولون انه يهودى هو والله اصدق اسلاماً واقرب الى رضى الله ورسوله من اكثر اولئك الذين قاموا ينفخون فى بوق العنصرية ويزرعون بذور الشقاق بين العرب والترك ويقولون نحن عرب اولاً ومسلمون ثانياً مخالفين قول صاحب الاسلام عليه الصلاة والسلام وليس جاويد الذى هو مسلم بل يهود سلانيك انفسهم هم اخاص لدولة الاسلام ولاءً من هؤلاء الذين لم يجدوا فرصة للقيام على الدولة ومشاغبتها باسم المطالبة بالاصلاحات سوى فرصة احاطة الاعداء بها وحصارهم لعاصمتها واخذ الاعداء بخنق الاسلام وارتكاب البلقانيين بمسلمى الروملى مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا كتاب روى من الفظائع والفجائع ان يهود سلانيك هم الى يومنا هذا ينوحون على ايام الدولة العثمانية ويراجعون دول اوربا فى اعادة سلانيك الى الدولة وقد عاتبهم ملك اليونان على ما ظهر من حزنهم لدى دخول عساكره الى سلانيك فقال له حاخامهم ان الذى يفقد والده لابد ان يلبس عليه اثواب الحداد مدةً والا لا يكون انساناً ونحن نعد الدولة العثمانية اباً لنا لانه لما طردنا الاسپانيول من اسبانيا لم نجد لنا ملجأ الا فى اكناف الدولة العثمانية التى انزلتنا فى الاستانة وفى سلانيك وازمير هذا كلام الحاخام اليهودى لملك اليونان عندما يكون مناسادة يدعون انهم من آل البيت النبوى مداخلين الاجانب على دولتهم عند ما نكون متزلفين الى الاجانب بمصر بقولنا لهم ان عرب

الشام والحجاز يفضلون الحكم الاوربى على الحكم التركى وينتظرون الخلاص على ايديكم.

الا فليعلم هؤلاء المغرورون ان الاسلام ليس عقارا يرثه الانسان عن والده ولا وقفاً يحتكره ولا لقباً يتلقب به ولا بضاعة يحوزها فيمنعها غيره ان الاسلام حالة روحية من تحقق بها وراعى شروطها المبينة فى كتاب الله وسنة رسول الله كان هو المسلم المرتضى عند الله ورسوله ولو كان فرنسوياً او انكليزياً او روسياً بل لو كان زنجياً رأسه زبيبة وان بيرلوتى ولاون اوستروروغ وغيرهما من النصارى المحبين للدولة والاسلام من فضلاء اوربا هم اعلى درجة عند الله ورسوله من اولئك الذين يدعون الاسلام ظاهراً ويعملون على قتله باطناً ثم ينقلبون على المسلمين المخالفين لهم بالتكفير والتفسيق كلما جاؤهم بما لا تهوى انفسهم ومن جملة نكاتهم فى هذا الموضوع ان ابن شيخ الصقر وهم قبيلة من العرب تنزل بارض بيسان فى الغور كان محبوساً فى دمشق الشام بسبب من الاسباب فبعد التدقيق فى قضيته تبينت براءته فاطلق سراحه وكان لبعض الاتحاديين يد فى هذا الافراج فحضر والده من الغور اليه فرحاً مسروراً وقال له من ذا الذى انقذك من الحبس يا بنى وصنع اليك هذا الجميل فقال له هم الاتحاديون يا ابتاه فقال له وقد اخذت منه الدهشة كل مأخذ كيف تقول هذا والناس يقولون ان هؤلاء هم كفار يكرهون الاسلام ويدينون بدين الفرماسون وانهم يريدون استئصال جرثومة العرب فقال له ولده كلا يا والدى فان مابلغك عنهم هو افتراء محض فان اخوانى هؤلاء هم من اصدق الناس اسلاماً وايماناً ومن اقربهم الى فعل الخير وانك لتعلم ذلك من كشفهم هذه الغمة عنى فاخذ شيخ الصقر

يعجب من ذلك البهتان العظيم الذى سمعه بحق الاتحاديين ويكرر اللعنة على الظالمين

ولقد كانت الحكومة استدعت مؤخراً نورى بن شعلان شيخ قبيلة الروله الكبيرة من عرب الشام فتخلف عن الحضور وبعد الفحص عن السبب وجدت عنده كتب من بعض تلك الفئة تحذره من المجئ وتؤكد سوءنية الدولة بحقه وتروى له روايات ما انزل الله بها من حق وهكذا فانهم لا يتركون فرصة لافساد افكار الناس من بدو او من حضر الا وتوردوها

وحسبك مراسلاتهم مع الادريسى الثائر بعسير واطماعهم اياه احياناً بالخلافة وتحذيرهم من الاخلاد الى السكون والطاعة ولقد كنا فى الاول نرتاب فيما ينقل الينا من اخبار هذه التسويلات منهم ونظنها من جملة وساوس الاتراك وننكروه صدور هذه الاقوال منهم وننزه ايا كان عن مراسلة الادريسى فى شئ من مقاومة الدولة الا اننا اخيراً علمنا اشياء ازاحت بها الشكوك وثبت بها فساد اولئك الذين لا قلوب فى صدورهم تمنعهم من تفجير دماء المسلمين وتعريض جزيرة العرب للاستيلاء الاوربى غيظاً بالاتراك او انتقاماً من الاتحاديين

ان الادريسى ظهر فى الاول بمظهر الدين والصلاح وارتدى حلة التقوى وخلب بسحره كثيراً من سكان تلك البلاد واستجلبهم اليه بالمواعظ واقنعهم بأنه مجتهد يسعى فى اقامة الشريعة الغراء واجراء حدود الله وقد ساعده على ذلك سوء ادارة بعض العمال العثمانيين وخلو القطر من القوة الكافية ومن الحكومة بالمرة فى بعض الاماكن بما لا تزال هذه الدولة مشغولة به من الخطوب الاوربية ولا يحول دون توفرها على اصلاح بلادها من نفاد الاموال فى ميرة الجيوش المرصدة للدفاع

عن حريم الدولة مع تنائى ذلك الاقليم الشاسع عن مركز الخلافة فاصبح الادريسى ذايد باسطة وكلمة مسموعة فى اكناف عسير وكان الامام يحيي اذذاك لم يأتلف مع الدولة فارسل الى الامام يعرض عليه ان يكون من قبله فى عسير فارسل الامام اليه تفويضاً بالامر بالنيابة عنه ومازال كل منهما يجاذب الدولة الحبل من جهته حتى فوجئت الدولة بحرب طرابلس فقال الامام اما وقداعتدى العدو على بلاد الاسلام فحاشا ان احمل السلاح فى وجه الدولة وابلغ الدوله انه هادنها الى مابعد الحرب مع ايطاليا فلما بلغ الدولة ذلك وايقنت انه جدير بان يكون اميراً من امراء الاسلام حقيقاً بان يركن اليه ويعول عليه ارتضت بالصلح معه وقررت معه من الصلح ما استقر به امر اليمن فى نصابه وكفى الله المؤمنين من الجانبين شرهذه الفتنة الا ان الادريسى لم يزل على ضلاله وفساده وغدره بالعساكر العثمانية مما حدا الامام الى ان يكاتبه مذكراً اياه بما يحظره عليه الشرع الذى يدعى انه مجتهد فيه من مقاتلة المسلمين عندما يكونون فى حرب مع الاعداء ويكون العدو هو المهاجم لهم فلم تحك النصيحة فيه ولم يكتف بقول المسلمين حتى مديد المصافحة الى ايطاليا فارسلت اليه بالذخيرة والعدة والنقود والمدافع وتقبلها مبتهجاً مسروراً وقاتل بها المسلمين ووضع العساكر العثمانية بين نارين فى سواحل قنفدة فكان الطليانى يقاتلهم من البحر والادريسى من البر كما شهد بذلك الوف من عرب اليمن ومن العرب الذين فى الجيش العثمانى ومن عرب الحجاز ولما بلغ الامام يحيي ذلك ارسل اليه يقول افلا تخشى الله افلا تستحى من رسول الله افلا تخجل من ان تستمد النصارى على المسلمين وتقاتل امة محمد بسلاح اعدائها فاجاب انى انما اخذت الاسلحة من النصارى لا قاتلهم بها اى النصارى

وكان جواباً كما ترونه مافقاً وعند ذلك شهر الامام عليه الحرب من جهة اليمن كما ان امير مكة كان شهرها عليه من جهة الحجاز وصار كل منهما يزحف اليه قوة ولو لا اتساع عسير ووقوف الدولة عن متابعة هذه الحرب بماشغلها من حرب البلقان لكان انتهى امر الادريسى

واما الفئة المهودة فلم يغضبها على الادريسى قتاله للمسلمين حينما يكون خمس دول نصرانيات مقاتلات للدولة العثمانية ولانفرها منه اتفاقه مع الطليان وقتاله المسلمين بسلاحهم ولا غير لهجتها بحقه عفو الدولة عنه اصراره على الحرب بل الادريسى هو الامام المجتهد المجدد المرشح للخلافة القائم بالفرض والسنة بل نقموا جداً على الامام يحيى وعلى الشريف حسين امير مكة مقاتلتهما الادريسى وقد سمعنا منهم بآذاننا مالفظته افواههم من البغضاء لهما واغرب من خيانة الادريسى هذه فى اطراف اليمن خيانة كل من انتسب اليه حتى ابناء عمه الذين فى صعيد مصر ممن كانت مراسلته من تلك الفئة هى بواسطتهم وممن لم يقتصروا على خدمة ايطاليا فى البحر الابيض وكانوا فى مقدمة كل من الوفدين اللذين انفذا من الاسكندرية الى درنة لاقناع سيدى احمد الشريف السنوسى بترك المقاومة وتسليم السلاح والطاعة لايطاليا وان يأخذ عوض ذلك مالاً كثيراً

هذا هو السيد الادريسى الشريف المنتسب الى اشرف عترة وهذه هى افعاله وهذا هو ضلاله وهذه هى مساعى ابناء عمه الذين يجرون ذيول السيادة ويلوثون عمائم الشرف ولكن رسول الله برئ من الولد العاق الذى يخالف امره وينبذ دينه ولا ينهض بالانسان نسبه اذا كبا به عمله

اذا لم تكن نفس الشريف كاصله
فما هى الاحجة للنواصب

وسينكر من اشرنا اليهم مداخلتهم الادريسى وفرحهم بما يعمل ورضاهم عما يأتى شبانهم فى كل امورهم وهو التشبث باذيال الانكار والتحريك من وراء الاستار ولكن هذا الانكار لا يفيدهم شيئاً وفى بعض كتاباتهم فضلاً عن مشافهاتهم التصريح بكونه مجتهداً واما ماهناك من المراسلات السرية بواسطة اولاد عمه الذين فى الصعيد فكاد يكون معلوماً عند الجميع وفى يد الادريسى مكاتبات كثيرة يقرأها للناس ويكتم مصادرها ويضع يده احياناً على تواقيعها

ومن هذه الطائفة من اعمالهم ماظهر منهم من الشماتة يوم سقوط ادرنه فى ايدى البلقانيين فانهم فرحوا بذلك فرحاً شديداً كتمه عقلاؤهم واظهره سفهاؤهم وكان بعضهم يبشر بعضاً حينما عساكر البلغار تفتك بالمسلمين وضباطهم تنتخب لهم كرائم البيوتات الاسلامية للافتراع والعلم العثمانى ينكس عن حصون ادرنه والصليب يرتفع فوق مآذن جامع السلطان سليم والوف من جثث المسلمين مطروحه بالعراء وساعة وقوع الاسلام فى هذه الفتن التى هى كقطع الليل المظلم نعم فى هذه الساعة العظيمة كان اناس يقولون انهم عثمانيون وآخرون يدعون الاسلام « وربما نفوا منه من يشاءون » فرحين مستبشرين يختالون فرحاً ويمشون فى الارض مرحاً وقد حدثوا عن ضابط من ضباط الجيش العثمانى ويا للخجل انه خرج من قهوة ديار بكر فى محلة شمبرلى طاش واخذ يقبل يد من ابلغه بشرى سقوط ادرنه تقبيلاً مكرراً وجرى من امثال هذه الفضيحه امثال عديدة فى جميع انحاء السلطنة وانه لاعظم سقوط فى اخلاق العثمانيين والمسلمين الى هذه الدركات التى من سقط اليها لم يعجب الناس من فشله فى الحروب وخجله بين الامم ولقد اخبرنى احد رجال الدولة من المسيحيين وممن ليسوا اتحاديين انه بعد قتل ناظم باشا جاءه فى جوف الليل بعض ضباط من ابناء العرب وهم يحرقون غضباً

ويتوهجون حنقاً قائلين له اننا لا بد من ان نأخذ بثأر ناظم باشا فاجابهم ما اجدركم يا اولادى بان تأخذوا بثار وطنكم المغلوب وبثار دولتكم المقهورة وان تتركوا هذه الانتقامات الشخصية الى مابعد الحرب على الاقل

والله ان من اخفى الاسرار الاجتماعية واعضل الامراض التى شاهدناها فى هاتين السنتين ان يشاهد بعض العثمانيين ماحل بهم وببلادهم وباخوانهم وان يصابوا فى شرفهم وعرضهم وفى اغلى شئ لديهم وتبقى لهم حشاشات متوفرة على بغض بعضهم بعضاً والتعصب للاحزاب ومناصبة فريق منهم الفريق الاخر العداوات والتفكر والانتقام فقد ثقل على اولئك الضباط ان يناموا على ثار ناظم باشا وهو الذى بغروره واستبداده برأيه رحمه الله كان اكبر سبب فى هذا الخزى الذى اصاب المسلمين ولم يثقل عليهم ان يناموا على الثار الذى لهم عند البلغار واليونان

ومن جملة فصولهم العجيبة القيام التى اقاموها على قضية الدفاع عن ادرنه فما كنت تسمع الا تنديداً ولوماً وما كنت تحس منهم الا ازدراءً وسخطاً وتارةً يقولون مالنا وللحرب وما بسياسة العواطف يأخذ الرجال وكل ذلك لكون كامل باشا مال الى تسليم ادرنه فكامل باشا هو المصيب بل هو الصواب المجسم بل هو الحق الذى يتكلم وكامل باشا هو الشيخ المحنك الذى وان ذهب اكثر المملكة فى ايامه فهو ادهى الدهاة والقطب الذى تدور عليه رحى السياسة ومهما فعل فهو الحكمة ومهما نزل به على البلاد فانما هو فى خير الامة

والمصيبه انهم لقفوا بعض كلمات مقتضبات قالها قائلوها فى محلها فظنوها قاعدة مطردة وشرعوا يطبقونها على كل شئ وظنوا انهم اصابوا المحز وطبقوا المفصل فكلما قام الاتحاديون وهم العرق الوحيد النابض فى هذه الملة بعمل يقصدون به حفظ شرف الدولة والفداء الذى بدونه

لا يكون امة ولا وطن قالوا مالهؤلاء القوم ماشين بنا على سياسة العواطف وفاتهم ان ليس هناك سياسة عواطف بل سياسة حفظ الشرف الذى من فاته فليس له وجود فى هذه الدنيا ومن فاته المعنى فاتته المادة ايضاً

نعم انكسرت فرنسا واخذ امبراطورها اسيراً وتبدد جيشها واحاط الالمان بعاصمتها وصارت جميع مقاوماتها عبثاً مع ذلك واتفقت جميع الامم على ان اصرارها على الدفاع كان واجباً لأن الامة التى لا تدافع عن شرفها فليس لها بقاء ولا ارض ولا سماء وان الناس الذين لا يحافظون على عواطفهم لا يقدرون ان يحافظوا على اموالهم ومرافقهم فمقاومته فرنسا بعض انقطاع كل امل فى نجاحها فى حرب المانيا لم يزدها الا شرفاً وعزاً

وكذلك الروسية بقيت تكافح اليابان كفاح المستميت وهى واثقة بعقم كل حركة من حركاتها وقد طوحت باسطول البلطيك الى بحر الشرق الاقصى وهى على يقين بان سيناله من اسطول اليابان ما ناله لكن لم تجد بداً من ايصال شعبها الى درجة اليأس التام خوف انتقاضه عليها ولم يلمها احد على مافعلت ولا ازدادت الا رفعة فى نظر العدو والصديق

فاما العثمانية فليس لها ان تحافظ الى الآخر على شرفها ولا ان تدهق الكأس الى أصبارها بل يجب ان تبادر الى قطع الامل وتتجرد من جميع العواطف ولا يكون لها اسوة ببقية الامم لأن عندها من يقرأ عليها فلسفة جديدة

مع انه لو اخذ البلغار ادرنه بدون حرب كما كان تقرر مع المرحوم كامل باشا لما كان جرى بين الحلفاء البلقانيين ماجرى من الخلاف الذى اهتبلنا من ثناياه الغرة التى اعادت لنا ادرنه وقسماً من شرفنا

وذلك انه لما اخذ البلغار ادرنة قوى عزم اليونان على استبقاء سلانيك وطمع الصرب فى الاحتفاظ بمناستر لانفسهم فلما قام البلغار يزاحمونهم عليهما بالمناكب اجابوهم بقولهم حسبكم ادرنة التى اخذتموها ولم تكن داخلة فى الحساب فقال البلغار هذه قد استولينا عليها بسيوفنا فقال الصرب اننا انجدناكم لاخذها بنحو سبعين الف جندى وارسلنا من عساكرنا الى حد شتالجه وقال اليونان لولا مشاغلتنا للدولة العثمانية من الغرب وسدنا عليها باب البحر الابيض لما تسنى لكم ان تأخذوا ادرنه ولا غير ادرنه فوقع بينهم من المشاحنة بسبب ادرنه ما اعاد الجدال جلاداً وانحل ما كان انعقد من خلفهم انحلالاً غريباً كان لنا فرصة لاسترداد ثلثى تلك الولاية ورجوعنا دولة اوربية بعدان كانت الاستانة قد اصبحت لاتصلح عاصمة للعثمانية وصار وسطنا طرفاً

ولا نعيد آلان مابدامنهم يوم استرجاع ادرنة من العذل والتنديد وما رددوه فى جرائدهم من الكلمات الدالة على غصتهم بهذا الشرف الذى تسلت به الامة العثمانية على عظيم بلاياها فقد اشرنا اليه سابقاً ولكنه سيبقى الى ماشاءالله سمعة عار على هذا الوطن التاعس الذى لم تضربه اوربا بحروبها ولا الامم السلافية بهجماتها ضرر هذه الارواح الخبيثة فى جنباتها

وسيقولون لك هذه امثال قلائل فى امة كبيرة لاتخلو منها امة ولا وطن وهذه مفاريد حواديث لايبنى عليها حكم وما كنا باقل من الاتحاديين اسى على سقوط ادرنة ولا اقل فرحاً باستردادها الى غير ذلك مما اعتادوا التمويه به والجواب ان هذه الاعراض المخجلة التى ظهرت فى الامة العثمانية انما كانو اهم اعظم اسباب ظهورها وان هذه اللامركزية التى قاموا بها فى هذه المدة واصحبوها الحملات الشنيعة على الحكومة هى التى اوجدت

فى اكثر المعارضين للحكومة روحاً لاتليق الا بامة يتخطبها الشيطان من المس ان لم تكن خائنة ساقطة

ولا نقول ان كل المعارضين وكل اللامركزيين كانوا منطوين على هذه السرائر حاشاشه ولكننا نقول ان مئات منهم او الوفاً كانوا يشتفون بخسائر الدولة ومصائبها وهزائم اخوانهم غيظاً بالاتحاديين وان فى ذلك من العار والاثم ماهو كاف وما لايمهدله عذر ولا يغتفرله وزر . ومن دقق فى جرائدهم وانعم النظر فى كتاباتهم لم يخف عليه انهم كانوا شامتين بل كانوا كانهم ليسوا من هذه الامة المقهورة

وزد على ذلك ان حركتهم لم تبطل ومشاغبتهم لم تقف عند حد ولايزالون يترقبون كل فرصة وان كانوا ابدوا التوقف والتريث فلم يكن ذلك منهم ضناً بالمصلحة ولا رفقاً بالدولة ومنهم عصابة يعملون على هدمها من اساسها ولكن خافوا اذا ظهرت سرائرهم بتمامها ان يقوم عليهم العامة الذين خدعوا كثيراً منهم بقولهم انهم انما يريدون ليصلحوا الامور ويخففوا عن عواتقهم احمال سوء الادارة

وبينما الدولة ترضى ان تفاوضهم فى الامور العامة ولا تأنف من معاملتهم معاملة الاب لاولاده بعدما جرى من الافعال اذ نشروا رسالة سموها

(بياناً للامة العربية من حزب اللامركزية) عادوا فيه الى نغمتهم الاولى ولم يكتبوا بما لايزال محيطاً بالدولة من الاخطار والمشاكل وبما يبرز من الروسية من الحركات الموجهة لاضمحلال الدولة والاسلام وبقيامها بعد تخليص الروملى من ايدينا الى فتح مسئلة فى الاناضول تكون لنا مكدونية ثانية وتؤول الى تقسيمنا نظير العجم حتى اوحت اليهم قلوبهم الجاسية ان يشاقوا الدولة ايضاً فى هذه الازمة كأنهم آلوا

على انفسهم ان لا يدعوا أزمة تقع فيها الدولة الا كانوا اول من صب على نارها زيتاً فجاءونا برسالة استهلوها بقولهم

« من المعلوم ان الامة العربية المستظلة براية الهلال العثمانى من اخلص الامم للدولة العلية الخ » وهذه حقيقة مسلمة فان كل العرب مخلصون للدولة وانما يخلصون بذلك لانفسهم وما خلص منهم من الاخلاص للدولة الا اولئك النفر الذين هبوا يثيرون عليها المشاكل ويمشون الى بلاد الاجانب مستعينين بهم على الدولة المتبوعة ثم قالوا

« صبرت الشعوب العربية العثمانية على ذلك طويلاً وللصبر حد ينتهى انه ولما رأت هذه الشعوب ان الالتجاء الى رابطة عامة دخلها الوهن والسكوت على مرض بلغ حد الاعضال ليس من الاخلاص للدولة التى يودون بقاءها فى شىء هب عقلاؤهم والمفكرون فيهم الى البحث عن اقرب الطرق المؤدية الى السلامة »

يعنون بذلك كما هو ظاهر ان الرابطة العثمانية دخلها الوهن فلابد من الاعتياض منها برابطة اخرى وهذا ظاهر لايحتاج الى تأويل ولا يقبل مما حكة وياليت شعرى اذا انحلت هذه الرابطة بالوهن الذى لم يدخل الا بوجود المشاقين فى الامة فان الرابطه التى يمدون الناس بها ويخيلونها كفيلة بالنهوض هى اشد وهناً واسرع انحلالاً واوهى اساساً ومن عرف دخائل الامة العربية وتبطن سرائر سورية خاصة فهم كيف ان تلك الرابطة التى يسعون الى اقامتها مقام الرابطة العثمانية ليست سوى ربقة يهيئون لها اعناق ابناء جلدتهم فهم مطوقون وجامعة يجمعون اليها ايدى اولاد وطنهم فهم مقمحون والسعيد من اتعظ بغيره والعاقل من قاس يومه على امسه والبصير من ابصر ماحواليه واحس بما يجرى تحت رجليه ثم قالوا

« ان ادواء الوطن والامة كثيرة ترجع كلها الى امر واحد هو شكل الاداره التى تدار بهما المملكة »

لا نزاع ان شكل الادارة محتاج الى التبديل وان المركزية الشديدة خصوصاً فى امر المعارف والاشغال العمومية هى غير مساعدة للترقى ولكن الدولة الى هذا الامر قررته قبل اجتماع حضراتهم فى باريز وقبل وجود اللجنة العليا والسفلى ولذلك لم يكن من حاجة الى تلك الجلبة التى لم يكن لها فائدة سوى زياده ضغط الاجانب على الدولة وتخيفهم جوانب الامة فاما كون ادواء الامة كثيرة وكون مرجعها كلها شكل الادارة فليس بصحيح فان مرجع الامراض والعلل هو فى الحقيقة كون الدولة دولة اسلامية وحيدة بين دول عديدة تخالفها كلها فى المذهب وتطمع فى توارثها فهى ترهقها من كل جانب حتى لا تقدر على لم شعثها وهى حقيقة كنانود لو استغنينا عن التصريح بها تحاشياً لنسبة التعصب لكن لسوء الحظ هى الحقيقة الوحيدة ومادام كثير من الاوربيين يصرحون بها فاعجب اذا قفونا فى ذلك اثرهم

ثم ذكروا عدم استفادة المملكة من كنوزها الطبيعية وتأخر البلاد من كل وجه وهذا وان كان رجال الباب العالى انفسهم لا ينكرونه فان فيه اغراقاً كبيراً لان التقدم المادى والمعنوى امر مشهود لاسيما فى الشام ولان صعود الاثمان والاسعار وازدياد المحاصيل وتضاعف اعداد طلاب العلوم فى جميع اقطار سورية بدون استثناء هو فائق امثاله فى كل صقع آخر حتى فى مصر فلا يصح ان يعد ذلك تأخراً ويكون من باب كفران النعمة وانكار الحقائق المعززة بالارقام وللدولة نفسها فى هذا الرقى اليد الطولى خلافاً لما يتشدق به المتفيقهون الذين يريدون ان يطفئوا نور الله بافواههم ثم اشاروا الى عدم كفاية الموظفين الذين يقذف بهم المركز

الى الولايات . وهذه قضية منها قسم كبير صحيح ولا انكار فى ان فى انتخاب المأمورين تساهلاً يجب النظر فى العدول عنه ولكن علمنا بالتجارب ان المأمورين الذين فى ولاياتنا ليسوا الى اليوم اعلى درجة فى الكفاية من الذين يقذف بهم المركز ويقذف بحقهم هؤلاء المتعنتون وهذه هى المجالس البلدية فى كل الولايات متمتعة باوسع الحرية ومنتخبة من اماثل من عندنا ولا نظن دائرة من دوائر الدولة اشد تأخراً من دوائر البلديات التى كان ينبغى ان تكون بحسب زعمهم مصدر سعادة البلاد لتوفر شروط العمل فيها وكونها على حد قول المتنبى (ولم أر فى عيوب الناس شيئاً) (كنقص القادرين على التمام) هذا والنادر لا عبرة به

ثم قالوا ان عقلاء العرب فكروا فيما يجب عمله لاجل ملافاة الخطر فلم يجدوا طريقة للسلامة الا بان يناط باهل كل ولاية النظر فى شؤونها الادارية والتعليمية

والجواب عليه ان الدولة ضمنت هذا الغرض للولايات العربية وغيرها بقانون الولايات الجديد الذى فيه اكثر مما ذكروا لمن اراد ان يتدبر وينصف لا لمن اراد ان يتعنت ويتعسف وعلى فرض انه لم يزل فيه بعض النقص فكان يمكن مجلس الامة عند التئامه ان يسدده

قالوا كذلك تأسس فى مصر حزب اللامركزية الادارية وارتاح اليه جميع المخلصين الخ ثم ارتاح الى هذه الحركة كل من يتربص بالدولة الدوائر وكل من يرود للاجانب فى بلاد الشرق وكل من ينتظر شبوب الفتنة بين العرب والترك وافراد قلائل ممن خدعتهم تمويهات هؤلاء الاساتذة من دجالى الاصلاح ولم نعلم ان الامة العربية ارتاحت الى تلك الحركة لا سيما فى الظروف الزمانية والمكانية التى اختاروها لها

ثم قالوا « لم يشذ عن مشاركتنا بهذا الشعور الا افراد من عباد المنفعة فى الامة العربية »

فحاشا الله ان يكون بلغ الانحطاط من اخلاق الامة العربية الى ان يكون الشعور السائد فيها هو مشاغبة الدولة فى اشد ازماتها وانتهاز فرصة ضعفها لاجل المطالبة بالاستقلال الادارى ورفع نعرة الجنسية على نعرة الدين التى لولاها لم يكن شئ والتى بها قامت دولة العرب

وعقد المؤتمرات فى بلاد الاجانب ومراجعتهم بصورة رسمية فى الامور الداخليـة الصرفة التى لا ينبغى ان تدور مذاكراتهـا الا بين العثمانيين فقط حاشا ثم حاشا ان يكون موافقاً جمهور العرب على هذه المساعى التى انما تليق باصحابهـا المعهودين ولقد اثبت جمهور العرب الا شذاذاً قلائل ليسوا فى العير والنفير ان هذه الافكار هى بعيدة عنهم بعد الارض عن السماء وانهم جميعاً يطلبون الاصلاح ولكنهم لا يطلبونه على هذا الشكل ويريدون تبديل شكل الادارة ولكن لا يطرقونه من هذا البـاب وهؤلاء هم امراء العرب وسادات العرب وغطـاريف العرب وصناديد العرب من الشام ومصر والحجاز ونجد واليمن واليمامة والعراق والجزيرة والغرب ليقل لنا هؤلاء القائلون من من هؤلاء ارسل الى اللجنة اللامركزية فى مصر يقول لها قد احسنت فيما فعلت من هذا القيام فى هذا الوقت الصعب ومن فتح الابواب التى فتحتها على الدولة فى سورية وفى البلاد العربيـة او من منهم ابرق الى مؤتمر باريز الملقب بالعربى قائلاً اننا نحن قد وكلناك عنا وفوضنا اليك امر المطالبة بحقوقنـا وانما كانت هذه الفئة عبارة عن افراد قلائل فى بعض مدن سـورية جمعهم على هذه الافكار اسباب متعددة واستمدوا القوة من ضـعف الدولة ومصائب الاسلام وكسبوا المكانة التى كسبوها لا باهميتهم فى قومهم ولا

بموازرة عنصرهم لهم بل بمراجعتهم الدول الاجنبية ووضع ايديهم فى
ايدى العناصر المقاومة للدولة وكفاهم بذلك خزياً لو كانوا يشعرون
واما قولهم الذين لا يزالون يكررونه بان مقاومى حركتهم انما هم من
عباد المنفعة فالله يعلم ان مقاوميهم هم اشرف منهم نفوساً واعلى همما
وازهد فى الدنيا وابعد عن المنافع الشخصية وانهم لم يقوموا لابطال
سحرهم وتضليل كيدهم طمعاً فى جاه ولا مال ولا استزلالاً لنعمة او
منحة ولكن خوفا على بلادهم من الهزاهز والفتن وربئة باوطانهم
عن ان تجر اليها هذه الحركات ماجرته الى غيرها فان استمرار النزاع
بين الاحزاب والعناصر وتمادى الاخذ والرد والايجاب والسلب لايمكن
الا ان يؤديا الى فتنة داخلية تكون سبباً تدخل اجنبى فى سورية وربما
تبع هذا التعرض الاجنبى لسورية تعرض دول اخرى من قبيل
التعويضات على رأيهم فنكون فتحنا بايدينا باب تقسيم السلطنة العثمانية
فضلاً عن ان نكون اقدحنا زند فتنة فى سورية ترمى علينا بشرر
كالقصر فخفنا على بيوتنا ورجالنا واشفقنا على اعراضنا ودمائنا وعلمنا
ما عندنا من الحزازات والاحقاد الكامنة الى يوم انفجار الدم فها انا
ان يصيبنا مااصاب المسلمين والنصارى فى الروملى او ان تعاد فينا الفتن
السابقة وما يوم حليمة بسر فنقع فى الدواهى التى تصفر منها الانامل
عندما يكون اولئك الذين اشعلوا هذه النار جالسين من حول حديقة
الازبكية ينظرون الى المرارات الكهربائية العادية ويقرأون الصحف
والبرقيات الآتية باخبار خراب الوطن وتناحر الجيران حين لا ينفع
النادمين ندم ولايغنى عن اللائمين لوم هذه اسباب مقاومتنا لهذا الفساد
لاغير وهئولاء القوم لا يزالون يفترون على الناس ويرمونهم بالتملق الى
الدولة والتزلف الى الترك والممالاة على العرب طمعاً فى كسب مال

اونيل منصب ويشيعون ان مقاومى فسادهم اخذوا الاموال الجزيلة والبدر المصرورة وانهم اثروا من مال الدولة وانعلوا افراسهم بنعماها عسجداً الى غير ذلك مما يعلم الله وملائكته بل يعلم الناس فى سورية انه لا نصيب له من الصحة ولو تأمل هئولاء المفترون قليلاً لوجدوا انه لو صح شئ مما يقولون لكان اصغر جرماً واخف تبعةً من اخذ بدر الاجانب ومداليد الى عدو الوطن لقبض المال الذى يتمكن به من مد اليد الى الوطن نفسه

ثم يقولون ان جمعية الاتحاد والترقى التركية ارسلت مندوباً من قبلها للاتفاق مع اعضاء المؤتمر بعد ان نحلوه اسم العربى وجعلوه نائباً عن الشعب العربى الكريم وحقيقة انه لا يمكن ان يقال ان جمعية الاتحاد والترقى تركية بل عثمانية وهناك فرق ظاهر وهى التى ضمت من العرب سادةً لا يقاس بواحدمنهم احد من جماعة اللا مركزية بل هى التى كان من جملة اعضائها هؤلاء الذين قاموا اليوم ينصبون لها العداوة واما كون هذه الجمعية مما يليق بصدقها للدولة وينطبق على مبادئها فى ضمد الجراح العثمانية ان لا تأنف من المفاوضة مع بعض شبان من تبعة آل عثمان تهوروا بسبب من الاسباب فى عثرة يرجون اقالتها ودخلوا فى مسئلة اصبحوا ينشدون منها مخرجاً شريفاً فارسلت اليهم من ينصحهم ويثير فيهم عواطف العثمانيه ويذكرهم بواجباتهم الوطنية ان لم تكن واجباتهم الدينيه لعلهم يتخذونها فرصة للانابة فهذا لا محل فيه للانتقاد فاما ماذكروه من امر الاتفاقية مع بعض التحوير ومن قضية الاصلاح فالحقيقة فيه ان جمعية الاتحاد والترقى لم تكن تجهل حقيقة مؤتمرهم هذا وانهم لم ينوبوا فيه الا عن انفسهم وعن زمرة صغيرة ممن شاكلهم ولكنها ظنت بالتساهل مع بعض ابناء الوطن الوصول الى سدهذا الباب واماطة ذلك العار ورضيت بما رضيت به

على هذا الامل ولكن الحكومة هي غير الجمعية فلم تقدر ان تجارى هؤلاء المطالبين في جميع اهوائهم وانما نشرت بعض القرارات تسكيناً لخواطرهم ولم تكن قراراتها هذه نشأة جديدة احدثها مؤتمرهم الباريزى ولا لجنتهم العليا بل هي امور مقررة عندها من قبل ارتضت نشرها على الملأ اثناء مجيئهم الى الاستانة حتى لا تدع محلاً للائمة ولا مجالاً لتهمة كبرى على ابنائها فجعل هؤلاء ينفخون في ابواق عظمتهم مرددين كل يوم ذكر الاتفاق بين الجمعية والمؤتمر وناشرين قرار مجلس الوكلاء والارادة السنية ايهاماً بانه لولاهم لم تكن في هذا الموضوع ارادة سنية ولا قرار وكلاء وانهم هم الذين استدروا كل هذه العطايا واستنزلوا جميع هذه النعم ومع هذا فانهم لولا حرج موقف الدولة واشفاقهم على الوطن لم يكونوا ليرضوا بها فرضاهم بها انما موقت وكل هذا منهم تزيد بما ليس فيهم وتعاظم في عيون العامة وماتزيد متزيد الا لنقص يجده في نفسه

ثم نشروا برنامج حزبهم واردفوه بالاتفاقية التى عقدت مع الشبيبة وصدقها مؤتمر باريز واردفوا ذلك بيان الحكومة بموجب برقية صادرة من نظارة الداخلية حتى يخال القارئ ان كل هذه القرارات سلسلة متصلة فلولا الاتفاقية التى صدقها مؤتمر باريز لم تكن برقية نظارة الداخلية ثم لم تكن الارادة السنية بالاصلاحات العربية واى دليل بعد هذا اعظم من هذا الدليل على فضل اللجنة العليا على الامة العربية فليقدسوها وليسبحوا بحمدها وليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف لا جرم ان فضل هذه اللجنة على العرب لكفضل النيل على مصر ما بقيت عندنا في ذلك مرية . ثم انهم اجروا المقابلة بين هاتيك الاتفاقيات وبين بيان الحكومة واستخرجوا منها الفروق المهمة التى آلت الى توقف حزب اللامركزية عن ارسال وفده الى الاستانة

كما كان قرر ونشروا صورة كتاب ارسل به رفيق بك العظم الى « احد اركان الدولة » يقول فيه انه مع تكذيب جمعية الاتحاد والترقى فى جريدة طنين لخبر الاتفاق الذى حصل بصورة مهينة لطلاب الاصلاح فان اللجنة كانت باقية على عزم ايفاد الوفد لاعتبارها ان الحقائق هى التى تنشد لا الالفاظ لكن الحكومة ببيانها الاخير شوهت مواد تلك الاتفاقية تشويهاً ادخل اليأس من جديد فى نفوس اعضاء حزبهم وهو اى رفيق بك يخاطب ذلك الركن من اركان الدولة بصفته من شهود ذلك الاتفاق بان اللجنة عولت على ايقاف الوفد حتى ترضى الحكومة بتطبيق الاتفاقية بالحرف اوايداع مسئلة اللامركزية الى رأى الامة وان كانت الحكومة لاترى لاهذا ولاذاك فقد عول رفيق بك العظم الركن الآخر من اركان الامة على المضى فى الوجهة التى رسمها الحزب لنفسه تاركا تقدير النتائج المترتبة على ذلك الى ضمائر القابضين على زمام الامر اليوم الخ

يتهددون الدولة بانها ان لم تجبهم الى مطالبهم فانهم يحدثون احداثاً ويخلقون مشاكل ويجرون غوائل ويا حبذا لو كانوا يتهددونها باهميتهم وبمالهم من النفوذ والتاثير فى العرب ولكن كل تهديدهم وصلفهم وجميع تدللهم وتعجرفهم هو مبنى على اعتقادهم حرج مركز الدولة ووجودها بازاء دول عظام كل منها يجاذبها الحبل من جهة والدليل على ذلك انه ماظهرت منهم هذه القوة الا عند ماظهر ضعف الدولة وانهم ماتوزدوا هذا الاصلاح الذى ملاؤا الارض بالفاظه الضخمة الامن ثنايا هزائم الجيش العثمانى وانهم لو علموا ان الامة تجيب نداءهم لما احجموا عن شئ من الحركات التى تفت فى عضد الدولة اجباراً لها على ارضائهم لكنهم خافوا ان يفتضح امرهم اكثر مما افتضح فظهروا بمظهر المناصح الذى كظم الغيظ حباً بسلامه الناس ولكن لا يفتأون ينذرون الدولة

ويتوعدونها لاقل حادثة علماً بوفرة مشاكلها وكثرة اعدائها والاعتماد على غيرها والاعتزاز بضدها ولبئس ما ارتضوه من هذا الموقف لانفسهم لو كانوا يعقلون

ثم رموا فى الفلسفة الى ابعد شأو المرتمى فجاءونا بآيات جديدة فى تاريخ الامة العربية ورجعوا بنا الى مشترعين غير محمد بن عبدالله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم مما يؤكد ماطالما سمعناه منهم وعنهم من المبادئ الذين يريدون ان يزرعوها فى الامة العربية فقالوا

« ان الامة التى استمد منها العالم القديم روح المدنية والتشريع منذ ستة الاف سنة اى من عصر حمورابى وكان العالم الجديد مديناً فى مدنيتهالها من الف سنة اى فى عصر الرشيد والمأمون وما بعدهما لايجوز العدل والانسانية ان تسحق باقدام الطامعين والسياسيين وان الاوطان التى انبتت حمورابى اول واضع للشرائع المدنية واخرجت مثل موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام الذين قلبوا نظام العالم الانسانى واخرجوه من ظلمات الوثنية والرذائل الى نور التوحيد والفضائل لا يجوز ان تكون اوطاناً لغير اهلها النابتين من ترابها الخ »

اولاً ان الاسلام قد نهانا عن مفاخرات الجاهلية وانالشرع لايعلم لدى سلب الاسلام فضيلةً مذكورةً فالاعتزاء الى حمور ابى والاعتزاز بحمور ابى ليسا من روح الاسلام فى شئ

ثانياً ان جاز الفخر بفرسان الجاهلية او باشراف الجاهلية او غير ذلك مما قبل الاسلام فلن يجوز الفخر بشريعة زعم اللامركزيون هئولاء انها من وضع العرب قبل الاسلام وانها اول شريعة وضعها الناس فانه لا شرائع للمسلم مع الشريعة المحمدية كما لا يخفى

ثالثاً ان زعموا ان مقصدهم بالتنويه بشريعة حمور ابى هو بالنسبة

الى ما قبل الاسلام او على رايهم العالم القديم وانه كان مديناً بالمدنية لحورابى فما معنى قولهم ان العالم الجديد مدين للامة العربية بالمدنية منذ الف سنة ولما ذا لا يقال ان العالم الجديد مدين بالمدنية للعرب منذ الف وثلثمائة سنة اى منذ بعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام

رابعاً ظهر ان مرادهم تحديد ابتداء مدنية العرب منذ الف سنة فقط لا الف وثلثمائة سنة تاريخ ظهور الاسلام انهم لايعتدون ظهور الاسلام مبدئاً للمدنية ولا صاحب الدين هو المعلم الحقيقى للخير وانما يعتدون مبدأ التمدن العربى خلافة الرشيد والمأمون حسبما صرحوا به لكون الرشيد والمأمون هما اللذين امرا بتعريب كتب اليونان وعنيا بفلسفتهم فالمدنية بزعمهم لم تبدا بالقرآن بل بفلسفة اليونان كما لا يخفى على كل من تأمل فى عبارتهم

خامساً بعد ان ذكروا حورابى مرتين فى فقرة واحدة وجعلوه اول واضع للشرائع المدنية عادوا فستروا الدسيسة بذكر اصحاب الشرائع الثلاث موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم فجعلوا للنبى الاعظم حصةً من جملة حصص فى مكان لا يجوز ان يذكر فيه معه غيره لانه مخصوص بالتشريع ولان الشريعة المحمدية هى اكمل الشرائع باقرار الجميع

سادساً اذا كان محمد صلى الله عليه وسلم نقل الناس من ظلمات الوثنية والرذائل الى نور التوحيد وفضائله فما معنى هذه المفاخرة بالعرب قبل الاسلام وما وجه تذكار ذلك التاريخ العربى المملوء بفظائع الجاهلية وسفاحها ووأد بناتها وعبادة عزاة ومناتها وما لا يزالون يكررونه على اسماعنا بكرةً واصيلاً من كون العربية هى مقدمة على الاسلام وان الاسلام طارئ عليها مع انه ما اعتزت العربية الا بالاسلام

سابعاً لنترك كل العقائد الدينية ولننظر الى المسئلة نظر اجنبي غير متعصب فاننا نجد عند ئذٍ ان شريعة حمورابي التي اشاروا اليها ان هي الا بصيص ضعيف من نور خفيف لايذكره عاقل بجانب شمس الاسلام المشرقة وان القوانين المنسوبة الى حمورابي لم تكن سوى بعض اصطلاحات من قبيل العين بالعين والسن بالسن ومما اصطلح البدو واشباههم على ما هو ارقى منه في درجات المدنية فاين هذا من الشريعة المحمدية التي لاتزال شرائع الدنيا عيالاً عليها حتى ان اوربا الراقية العالية لتستمد منها ما ينقصها من الاحكام الى يومنا هذا ولا تأنف حكوماتها ان تراجع مشيخة الاسلام في الاستانة في معرفة كثير مما خلت منه شرائعها تماماً مع انه مبذول في كتب فقهائنا

ثامناً غاية ما وصل اليه التحقيق الى هذا اليوم من امر مشترع اللامركزيين الجديد هو انه ملك من ملوك بابل وجد في نواحي العراق سنه ٢٢٥٠ قبل ميلاد المسيح ويقال انه وحد المدن البابلية مملكة واحدة وكانت لغته ولغة قومه بابلية والبابليون خليط من امم مختلفة يظن انهم لايرجعون الى اصل سامي ويذهب بعضهم الى ان طائفة من العرب هاجرت الى ارض بابل وان لغتها غلبت على لغة اهلها وعلى هذا لا يمكن ان يجزم بان البابليين هم عرب والعرب ساميون وانه على فرض كان امتزج بهم قوم من العرب ممن يسمى بالنبط فلا يكونون بذلك عرباً قال المتنبي بها نبطي من اهل السواد يدرس انساب اهل الفلا وهل صار قصارى امرنا بأن نفتخر بكوننا نبطاً من سواد العراق قبل الاسلام ولو فرضنا ان حمورابي هو عربي النسب اصلاً فلم يبق عربياً بعد ان صار ملكاً لامة غير عربية فان المرء من حيث يوجد لا من حيث يولد وان كثيرا من فرسان العربية

اليوم ليسوا منها ولاقلامة ظفر ومع هذا فهم يتكلمون بلسانها وهم مستعربون

ثم قالوا انهم لايعلمون عربياً مخلصاً تظله راية الهلال العثمانى الا وهو يريد البقاء للدولة والحياة مع اخوانه الاتراك تحت راية واحدة كما انه لايوجد عربي يعقل معنى الحياة يرضى ان يكون مكانه من هذه الدولة مكان العبد المملوك من المالك والجواب اننا لم نجد فى كلامهم من اوله الى آخر جملة واحدة نقبلها بدون اعتراض سوى هذه الجملة ولكن الطريق الذى ساروا اليه لاجل بقاء الدولة والحياة مع اخواننا الاتراك ولاجل ان لا يكون العربى مع التركى بمنزلة العبد من السيد ليس هو الطريق المؤدى الى سلامة عربى ولا تركى بل هو الطريق الموصل الى هلاك الاثنين معاً والنافذ الى عبودية كل منهما الى شخص ثالث هو الافرنجى ويا حبذا لو شاهدنا من هذه الفئة ربع هذه الحمية العربية فى رفع ربقة الاجنبي من اعناق العرب الذين اصبح منهم مايقرب خمسين مليوناً تحت سلطنة انكلترة وفرنسا وايطاليا الخ فنحن نقول قبلهم ان اوطان العرب لايجوز ان تكون اوطاناً لغير اهلها

ثم عادوا الى الجعجعة بالفارغ فقالوا انه فى اليوم الذى يصدر فيه منشورهم هذا « تهتز اسلاك البرق وتنبض عروقه بين عاصمة الدولة وجميع الولايات العثمانيه العربية والجاليات العربية العثمانية فى الممالك الاجنبية فتشعر حكومة العاصمة بما تنبض به قلوب العرب العثمانيين فى مشارق الارض ومغاربها وانه فى ذلك اليوم تستوى الشمس على كرسيها من القبة الزرقاء وفخامة الصدر الاعظم مستوٍ على كرسيه فى الباب العالى ووفود طلاب اللامركزية من العرب واقفون فى ادارات التلغراف فى سورية وفلسطين والجزيرة والعراق وفى اوربا وفى اميركا

يخاطبون فخامته بما نصه (وذكروا صورة تلغراف ورد يومئذ الى الصدر وناظر الداخلية بطلب اللامركزية

انا نرى جعجعةً ولا نرى طحناً وانا نأبى ان يقع مثل هذا الكلام باسم العرب الذين لو كانوا بالفعل قائمين بهذه المطالبة حسب زعمهم لهزوا اركان الارض فضلاً عن اركان الدولة العثمانية الا ان العرب لم يطالبوا الدولة بما زعم هؤلاء الجماعة وماهب منهم الى هذه المطالبة والمشاغبة سوى افراد معدودين كما قد منا آنفاً ولذلك استوت الشمس على كرسيها فى القبة الزرقاء ولم يحصل شئ سوى تقديم تلغراف بصورة واحدة من دمشق الشام فيه نحو ٥٠ توقيعاً من بعض الناقين والمخالفين لاسباب شخصية تدل على قلتهم وضع اسم الاب وابنه الاخ مع اخيه لا بل مع اخويه معاً وتلغرافات من بعض قصبات سورية وفلسطين كتلغراف من نابلس فيه بعض تواقيع وآخر من جنين فيه خمسة امضاآت وآخر من جباثة الخشب قرية من قرى القنيطرة فى حوران وآخر من بعلبك ولم نعلم ان هؤلاء هم العرب وانهم ممن يقيم الارض ويقعدها بل هم من بعض العرب وليس لهم ان يتكلموا الا عن انفسهم ولم تكن الامة العربية الكريمة لترحب بحركات مصادرها اوربا ومراميها ضعف الدولة العثمانية ولذلك ولعلم الباب العالى من هم العرب وما هى افكار العرب لم يهتز اصلاً بحركة الكهرباء ذلك اليوم ولو نبضت اسلاكه ببعض برقيات جاءت على نغمة واحدة من بضعة اماكن فكان على المتصدرين للكلام باسم العرب ان يراجعوا كبار الامة واعيانها وعلماءها واهل الحل والعقد فيها وارباب السنان والعنان منها وسكان الحجاز واليمن ونجد ومن هم سنام العرب ولا يظنوا ان العرب

هم موتى وان شرذمة من المهاجرين الى مصر والى اميركا يقدرون ان ينوبوا عن الامة العربية ويسلبوها حقوقها ويبيعوا ويشتروا عنها

ثم ختموا بيانهم ذاك بتهديد وتحريض قالوافيه « ومن اراد الحياة الطيبة الشريفة لايلام واذا سعى لها سعيها نالها بسلام اوغير سلام ومتى ارادت الامة فعلت ومتى سارت وصلت »

آه ما اشدنا شعوراً بالحياة الشريفة الطيبة وما اشوقنا ان نرى العرب متمتعين بها ولكن فى كل البلاد العربية لا فى الشام وحدها ولاباذاء الترك وحدهم بل فى مصر والسودان وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب الاقصى وشنقيط وزنجبار ومصوع وغير ذلك وآه ما اشدنا خجلاً عندما نرى اناساً من قومنا اسداً على الاتراك وعلى الافرنج نعائم وصقوراً باذاء اخوانهم وبازاء اعدائهم حمائم وياليت شعرى متى صار اللا مركزى يقول « نالها بسلام او بغير سلام » الا بعد ان انس ضعف الدولة على اثر حرب البلقان وايقن انها من مشاغلها العظيمة وكروبها المدلهمة فى شغل شاغل عنه فقد كنانود لو ظهرت مناهذه الرجولية فى عنفوان امر الدولة وعنجهية سلطان الترك لاننا معاشر العرب نأنف ان نقاوم الترك فى اثناء غرة ونخجل من ان نطالبهم بالحقوق فى احناء نبوة ولكن حاشا للعرب ان يهددوا الدولة فى يوم بؤسها وان يكونوا للسلاف رداً فى موالاة خطوبها ثم ان الامة العربية متى ارادت فعلت ولكن ليست لجنة اللامركزية هى التى متى ارادت فعلت فان هناك امة عربية كريمة تدافع عن الدولة وعن الخلافة وتدافع عن اخلاقها معاً

سيقولون اننا استضعفنا شعور الامة من جهة الدين فحركنا وتر الاعتقاد واستظهرنا به على دفع نظرياتهم الواهية ويطيلون القول فى

هذا الصدد فما كان عليهم الا ان يدفعوا دعاوينا هذه بمبادئ الاسلام الصحيحة التى ليس فيها فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى الا بالتقوى وان يكتفوا بالمساجلة بآثار محمد عن آثار حورابى فى وضع شريعة مدنية

وسيميلون علينا الى جهة المسيحيين ميلة واحدة كما جرت لهم عادة ان يفعلوا ويقولون لهم اننا انما نهيج التعصب الدينى الذى يبغون هم ازالته ودحض ادرانه من هيئة العرب الاجتماعية والحال اننا اصدق منهم لاخواننا المسيحيين واننا لا نسر لاخواننا المسيحيين خلاف ما نظهره ولا ندعى امامهم بغير ما نحن منطوون عليه رغبة منافى اخاء ولا نحاربهم ونؤاخيهم معاً ونقول انما نحن عليهم رقباء ولكننا نحب ان نعيش واياهم بسلام وولاء وان نتساكن ونتعاشر معهم على اتم وئام وصفاء وان يأخذوا حقوقهم بل زيادة على حقوقهم رضى بيننا متبادل وان نكون واياهم جميعا اصحاب البلاد وحماة الاوطان واننا لنعدهم اخواناً واعضاداً ونجدهم اقرب الناس الينا مودة كما قال الله تعالى والله يعلم اننا نكره من اساءة المسيحى ما نكره من اساءة المسلم ونعلم ان لا سعادة لهذا الوطن الا بالتناصف والتساوى فى الحقوق وبالتواد والتصافى فى الاجتماعات ولكن لا يدخل فى بروغرامنا هذا شئ من رفض اخاء اخينا التركى ولا من ترجيح سلطة الاجنبى مهما وضعت لنا فى قالب من الاصلاح ولا من ايثار الجنسية على الدين حينما تكون اوربا لا تريد ان تعرفنا مساوين لابنائها فى الحقوق ولا من سائر المنازع التى هب بعضهم لاحيائها فى هذه الايام سابقين بها اوربا نفسها التى لا تزال تعرف جامعة الدين وربما قال قائل لا غبار على هذا الكتاب فى شئ سوى كونه شديد التعصب للاسلامية قائل بالدعوة الدينية وجوابه لنترك

الدين جانباً وننظر الى نقطة استقلال الوطن فنجد ان لا امل بنجاة الشرق اجمع من السقوط فى هاوية العبودية الاوربية الا ببقاء الدولة العلية ولا بقاء للدولة العلية الا ببقاء الاسلام ولكن ذلك لايفهم منه بعض المسيحيين الشرقيين والنفور منهم مع وجود الرابطة الوطنية الجامعة بينهم وبين المسلمين والتى هى جامعة للمصالح ناظمة للمنازع منزلة ابناء الوطن الواحد منزلة ابناء البيت الواحد وعلى كل حال فهذا هو اعتقاد جمهور المسلمين والاولى بابناء الوطن ان يفهموا الحقائق كما هى وان يستعمل بعضهم مع البعض الصراحة وعدم التمويه اذ ذلك ادعى الى التفاهم وابعد عن التخاصم ومن كان منصفاً علم ان المصارحة هى اولى من المداجاة وان من يعالن برايه منذ البداية هو اولى بأن يوثق بوده ويركن الى عهده ولو حمل عليه المتعصبون وان من يحاول تغطية الحقائق والمكابرة فيما عليه جمهور الامة والتزين بغيرزيه وارضاء ابناء وطنه بالكلام الفارغ والتزلف الى جيرانه بالرئاء وكتمان السريرة الصحيحة هو اولى بان ينبذ ويهمل وبان لايعول عليه فى خصام ولا فى وفاق ولقد اغنانا الله ولله الحمد عن المداجاة والرئاء ولو ساء وقع ما نقول عند بعض من لايحبون ان يسمعوا الا مايشتهون وسيفزعون الى طريق الطعن والشتم ويلجأون الى الافتراء والبهتان ظانين انهم بحت اسلات الصادقين يحولون دون رفع اصواتهم بالنكير فليعلموا ان الشتم هو اوهى سلاح المقاتل واوهن حجج المناظر وانه لايخلو ممن يذود بمثل سلاحهم ويناظر بشبه سبابهم ولئن صبر عليهم الناس اول مرة عندما لاذوا من ضعف حجتهم بمعاقل الهجر وهجروا مراجع العقل فيوشك ان لايصبر جميع الناس الى الآخر على عدوانهم ويكيل لهم بعض ابناء الوطن بمثل صاعهم ومدهم ويقفوهم فى تطوحهم عند حنذهم وان كان لا يكفيهم

هذا البيان عما فعلوه فى عام الشدائد هذا وكانوا يكابرون فيها هنا من الحقائق فاننا نزيده ان شاء الله شرحاً وعند ذلك نفصل ما اجملناه ونقيد ما اهملناه واننا آلينا على انفسنا ان لا نسكت على هذه الترهات وان لا نقبل اصلاحاً الا بالاتفاق مع الدولة ومع مراعاة موقف الخلافة منحصرة فى بنى عثمان وان لا تأخذنا فى الحق لومة لائم وان نحذر ممن يضل ونقاتل من يبغى حتى يفئ الى امر الله

انتهى



تنبيه

قد كان الامير كتب هذا الكتاب وهو فى الطريق سائراً الى المدينة المنورة وارسل به للطبع فى الاستانة فلم يتيسر له الوقوف على طبعه ووقعت فيه اغلاط مطبعية كثيرة واختلاف فى ترتيب الصفحات ادى الى اعادة طبعه الآن مصححاً ومضافاً اليه بعض جمل اثنا التصحيح

خطأ	صواب	صفحة	سطر
الواهن	الوهن	٤	١٩
ممن	من	٤	١٩
البرير	البربر	٦	١٣
بليه	يليه	٧	٢٣
المصرى	المضرى	٨	١٦
سهحوا	سمحوا	٩	١٥
عينها	عليها	١١	١٩
اور	اوربا	١١	١٩
الصريح	الصريخ	١٤	١
تجاهدون	يجاهدون	١٤	١٩
اتخذف	اتخذت	١٧	٥
الوثية	الوثبة	١٨	٢١
يقلون	يقلبون	١٩	١٨
قسمه	قسه	٢٢	٣
ولغلكمات	والكلمات	٢٢	٨
والمتواصل	المتواصل	٢٣	٣
الا	الى	٢٥	٢
هؤلاء المعارضين فى هذه المعارضين	هؤلاء المعارضين فى هذه المدة	٢٥	٥
ايديهما	ايديهم	٢٦	٢٠
صعود	صعوده	٢٧	٩
الاستبدال	استبدال	٢٧	١١
اعضل	من اعضل	٣٠	١٤
الوظائف	الى الوظائف	٣٠	١٥
المندوية	المعنوية	٣٢	٢١
مذعوراً	هب مذعوراً	٣٤	٦
المتدين المتمدن	المتمدن	٣٨	٦
فتاة	فتات	٣٨	٩
رفاته	رفاته	٤٠	١٥
مقدمتان الاختلال	مقدمتان للاحتلال	٧٢	١٨
يجير	يجبر	٧٤	٦
احتياجها	اجتياحها	٨٠	٩
ان	الا ان	٨٨	١٦

واعدب	واغرب	٨٩	١٦
العدمين	العدميين	٩٤	١
ينابع	ينابيع	٩٦	١٤
الفضا	الفضا	٩٦	١٢
لن	ان	٩٩	١١
لو افتؤاخذ	افتؤاخذ	١٠٣	١٨
الرسل	ارسل	١١٠	٢٠
اجرت	اجرة	١١٢	٧
السان	اللسان	١٢٣	١١
غلواتها	غلواتها	١٢٦	١٥
يخل	يخل	١٢٨	٢
والقبوله	والقبوه	١٢٨	٤
فان فان	فإن	١٣٣	٨
فلا	لئلا	١٣٣	١٣
من	ممن	١٣٧	١٢
يحومون	يحومون	١٣٧	١٥
لاخوف	وكثلة لاجوف	١٣٩	١٦
رشان	رشاد	١٤٠	٥
ربى	رائى	١٤٥	١٦
الحربهم	الحرب	١٤٧	٤
وفى انفسهم	ولا فى انفسهم	١٤٨	٩
لنضوا	لنفضوا	١٤٨	١٦
نكروه	ونكره	١٥١	١٢
ولايحول	ومايحول	١٥١	٢٣
اصراره	واصراره	١٥٣	٨
حيثا	حيثما	١٥٤	١٠
واسيداه	واستبداده	١٥٥	٩
القيام	القيامة	١٥٥	١٢
بعض	بعد	١٥٦	١٠
خلفهم	حلفهم	١٥٧	٩
حاشاشه	حاشالله	١٥٨	٤
يكتبوا	يكتفوا	١٥٨	١٩
ولكن الدولة الى هذا الامر قرنه قبل	ولكن هذا الامر قرنه الدولة قبل	١٦٠	٥
فاعجب	فلاعجب	١٦٠	١٤





